لوسي مود مونتغمري

منزل أحلام آن

آنْ
مكتبة
5

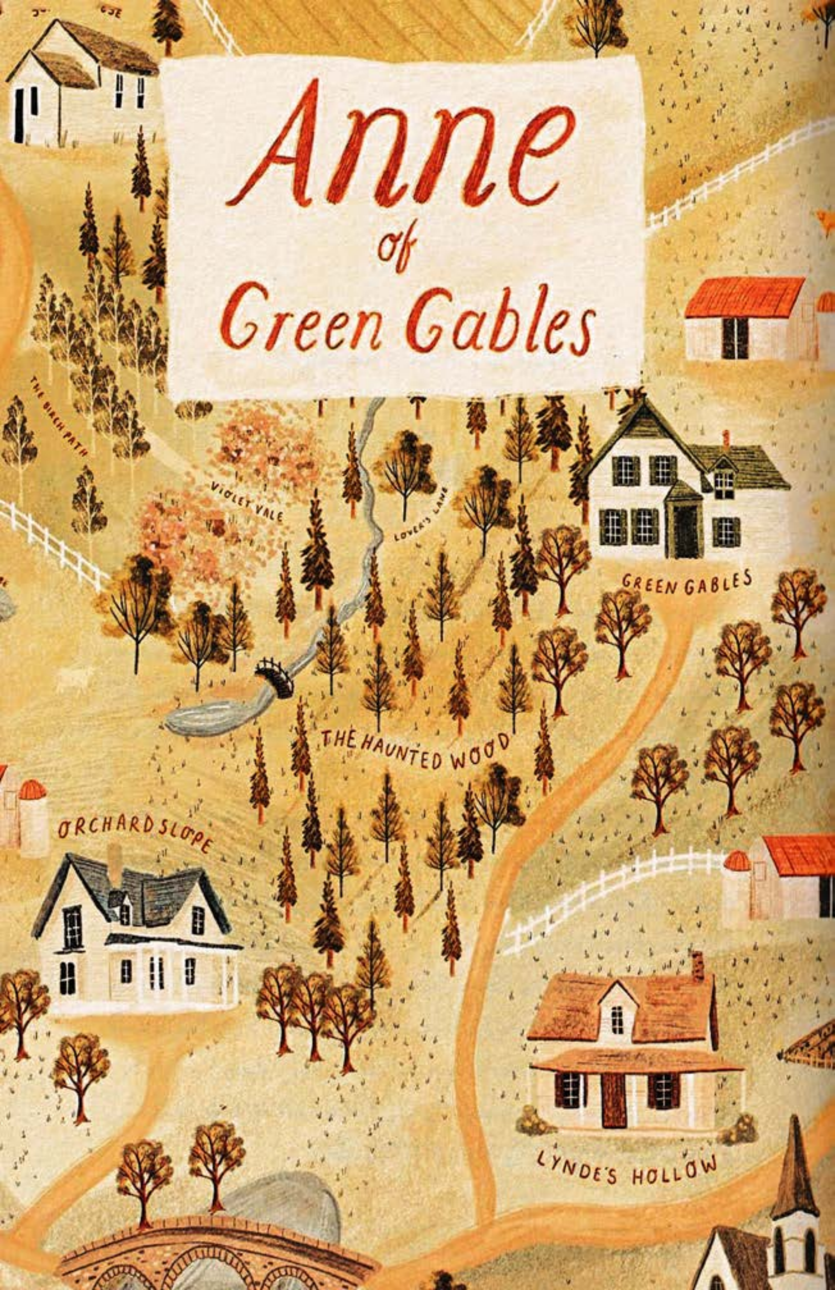
ترجمة
هلا رتشي آل عبد الله

مراجعة وتدقيق
سارة شيبان





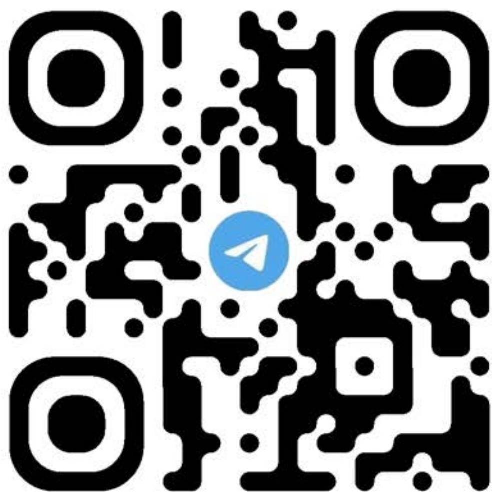



Anne
of
Green Gables
THE BIRCH PATH
VIOLET VALE
LOVER'S LANE
GREEN GABLES
THE HAUNTED WOOD
ORCHARD SLOPE
LYNDE'S HOLLOW

منـــــــزل أحلام آن

الجزء الخامس







لوسي مود مونتغمري

منزل أحلام آن

الجزء الخامس

ترجمة: هلا رتشي آل عبد الله
مراجعة وتدقيق: سارة شيبان

فلامينغو

Little Puffin
Publishing house

novel

anne's house of dream

Lucy Maud Montgomery

Translated by: halaa rutshi al-abdullah

Proofreading by: Sarah Sheban

رواية

منزل احلام آن

لوسي مود مونتغمري

ترجمة: هلا رتشي آل عبد الله

التدقيق اللغوي: سارة شيبان

التوزيع في الخليج العربي لدى
Little Puffin

Business Center, Sharjah, Publishing City Free Zone, Sharjah, United Arab Emirates

Littlepuffinpublishing@gmail.com

منشورات فلامنكو للترجمة والتوزيع و Little Puffin

البريد الألكتروني: info@flamingopupl.com





14 6 2024 مكتبة

t.me/soramnqraa

الطبعة الأولى 2023

الرقم الدولي ردمك (ISBN)

978-9922-9289-6-8



تصميم الغلاف: ماهر عدنان

الاخراج الفني: اية نبيل

Lucy Maud Montgomery

ANNE'S HOUSE OF DREAM

Part Fifth

Translated by:
halaa rutshi al-abdullah

فلامينغو

Little Puffin
Publishing house

1
عِليّة المرتفعات الخضراء



بسخرية واستهزاء، رمت آن شيرلي مجلدًا لعالم الرياضيات "إقليدس" في صندوق الكتب، وخبطت على غطائه انتقامًا، وجلست عليه قائلةً: "شكرًا، لا حاجة لي بهذا... فلقد انتهيت من تعلُّم الهندسة وتعليمها." ثمَّ نظرت إلى ديانا رايت عبر عِليَّة "المرتفعات الخضراء" بعيونٍ رماديةٍ تشبه سماء الصَّباح. كانت هذه العِليَّة، كباقي العِليَّات، حجرةً غامضةً مُلهمةً ومبهجة.

كان ذلك بعد ظهر أحد أيام آب، حين جلست آن أمام النافذة المفتوحة لتستنشق الهواء المنعش المعطَّر والدَّافئ وتتمتَّع بمنظر السلسلة الجبلية الكبيرة تحت القُبَّة الجنوبيَّة الزَّرقاء المُزيَّنة بالسُّحب الثَّلجية، وأغصان الحور التي تلقى في مهبِّ الرِّيح، والغابة حيث درب العشاق، الفاتن وبستان التُّفاح القديم الذي يحمل محاصيله الوردية بسخاء. ومن النافذة الأخرى، لمحت من بعيد بحرًا أزرق اللون بحلَّة بيضاء تطفو على سطحه، خليج سانت لورانس الجميل، كجوهرة أبيجويت التي تخلَّوا عن اسمها الهندي اللَّطيف منذ فترةٍ طويلةٍ لتُسمَّى لاحقًا باسم "جزيرة الأمير إدوارد" الأكثر رقَّة.

لقد كبرت ديانا رايت ثلاث سنواتٍ عن آخر مرة رأيناها فيها. إلّا أنَّ ملامحها بقيت كما هي، عينان سوداوان لامعتان وخدَّان ورديان وغمازتان ساحرتان... بقيت كما كانت عليه في الأيام الماضية حين تعهدت هي وآن شيرلي بصداقةٍ أبديةٍ في مزرعة منحدر البستان.

كانت ديانا تحمل بين ذراعيها فتاةً صغيرةً نائمةً ذات شعرٍ أسود مُجعَّد في سنِّ الثانية ينادونها باسم "آن كورديليا الصغيرة." بالطبع، علِم سكان آفونلي سبب تسمية ديانا للطِّفلة بـ"آن،" لكنهم وقعوا في حيرة حول سبب تسميتها ب"كورديليا." إذ لم يمتلك أيًّا من باري ورايت قريبة تدعى كورديليا. قالت السيدة هارمون أندروز بأنَّه لربما وجدت ديانا هذا الاسم في إحدى الرِّوايات التَّافهة؛ وبما أنَّ فريد لا يملك ذوقًا رفيعًا مثلها، قبِل بهذا الاسم. تبادلت ديانا وآن الابتسامة، فهما تعرفان جيدًا من أين جاء اسم آن كورديليا الصغيرة.

قالت ديانا مبتسمةً: "لطالما كرهتِ الهندسة، لكنني اعتقدتُ أنكِ ستكونين سعيدةً حقًا بتدريسها!"

"أوه، لطالما أحببتُ التدريس، ما عدا الهندسة. كانت السنوات الثلاث الماضية في مدينة سمرسايد ممتعةً للغاية. لقد أخبرتني السيدة هارمون أندروز، عندما وصلت إلى المنزل، بأنَّ الحياة الزوجية ليست أفضل بكثيرٍ من التَّدريس كما كنت أتوقَّع. من الواضح أنَّها تؤيِّد رأي الأمير هاملت بأنه يُستحسن الاهتمام بأنفسنا بدلًا من الالتفات إلى الغرباء."

صدحت ضحكة آن المبهجة الممزوجة بالحلاوة والنُّضج خارج أرجاء العليَّة. سمعت ماريلا، التي كانت تُعلِّبُ البرقوق الأزرق في المطبخ بالأسفل، هذه الضحكة التي تتوق لسماعها، فابتسمت هي الأخرى. ثم تنهَّدت متسائلةً متى سيتردَّد صدى تلك الضحكة العزيزة في المرتفعات الخضراء في خلال السَّنوات القادمة. لم تُسعد ماريلا

بأيِّ خبرٍ طيلةَ حياتها كفرحتها بزواج آن وجيلبرت بلايث، ومع ذلك، دائمًا ما تعتلي معالم الحزن وجهها. ففي خلال السنوات الثلاث الماضية، عندما كانت آن تعمل في مدينة سامرسايد، كانت الأخيرةُ تقبع في المنزل غالبًا لقضاء الإجازات وعطلات نهاية الأسبوع. أما الآن، فستكون الزيارة نصف السَّنوية أكثر ما ترجوه.

قالت ديانا بهدوء وثقة سيدة ذات خبرة أربع سنوات زواج: "لم يكن عليكِ أن تدعي كلام السيدة هارمون يُقلقكِ، بالطَّبع للحياة الزوجية تقلباتها. يجب ألَّا تتوقعي أنَّ تسير كل الأمور دائمًا بسلاسة. لكن يمكنني أن أؤكد لك يا آن بأنها ستكون حياة سعيدة ما دمت قد اخترتِ الزواج من الرجل المناسب."

اختلقت آن ابتسامة مزيَّفة لتُخفي قلقها، لطالما كانت خبرة ديانا الواسعة تسليها قليلًا.

تابعت كلامها قائلةً: "بالطبعِ سأتجرأ على قول هذا بعد خبرة زواج أربع سنوات. لا تقلقي، من المؤكد أن حسَّ الفكاهة لديَّ سيساعدني لتخطِّيها."

بينما كانت ديانا تحضن الصغيرة آن كورديليا بإيماءة الأمومة الفريدة، التي كانت تلامس دائمًا قلب آن، والمليئة بأحلامٍ وآمالٍ وألمٍ أثيريٍّ وأحاسيس أخرى غريبة، توجَّهت لآن بسؤالٍ: "هل قرَّر جيلبرت بعد أين ستعيشين؟"

"نعم، كان هذا ما أردتُ أن أخبركِ به عندما اتَّصلت بكِ اليوم. بالمناسبة، لا أستطيع أن أصدِّق أنَّه بات لدينا هواتف في آفونلي الآن. يبدو وكأنَّنا نسير قُدمًا لِمُعاصرة الحداثة أخيرًا في هذا المكان القديم المحبوب."

قالت ديانا: "علينا أن نشكر شركة آيفيس. فلولا بذلهم قصارى جهودهم واتّخادهم الاجراءات اللَّازمة، ما كنَّا لنحصل على خطِّ

الهاتف أبدًا. فعلى الرغم من كثرة العوامل الرَّادعة والمحبِطة لكثير من الشركات، إلّا أنهم تمسكوا بمخطَّطاتهم ونفَّذوها. لقد صنعتِ معروفًا بالغ الأهمِّية لآفونلي يا آن حين أسَّستِ هذه الشركة. لقد استمتعنا كثيرًا في اجتماعاتنا! أتتذكرين القاعة الزرقاء ومخطط جودسون باركر لرسم إعلانات الأدوية على السياج؟"

قالت آن: "أوه، لم أكن على علمٍ بأنني ممتنَّة جدًا لـشركة آيفيس في مسألة الهاتف. فهو وسيلة تواصلٍ أفضل بكثير من ضوء الشموع وسيلتنا البدائية القديمة! وكما تقول السيدة ريتشيل، "يجب على آفونلي مواكبة التَّطوُّر، وهذا هو ما يحدث فعلًا." لكنَّني أشعر أحيانًا كما لو أنَّني لا أريد أن تُفسِد –ما يسميه السيد هاريسون حين يريد أن يتفلسف– "المضايقات الحديثة" آفونلي، بل أودُّ الاحتفاظ بها دائمًا كما كانت في السنوات الماضية. ويعتبر هذا الأمر جنونيًا ومستحيلًا، لذا عليَّ أن أعود إلى رشدي على الفور وأن أفكِّر بعقلانيَّة. فعلى الرغم من أن السيد هاريسون يرى الهاتف مغفَّل لعدم مراعاته الخصوصية، لا يُنكر دوره المهم في عملية التَّواصل."

تنهدت ديانا قائلةً: "هذا أسوأ ما في الأمر، إنه أمرٌ مزعجٌ للغاية أن تسمع تشويش أجهزة الاستقبال كلما اتصلتِ بشخص ما. لقد علِمتُ بأنَّ السيدة هارمون أندروز قد أصرَّت على وضع هاتفهم في المطبخ لتتمكَّن من سماع رنينه ومراقبة العشاء في الوقت نفسه. فاليوم، عندما اتصلتِ بي، سمعتُ بوضوح أصواتًا غريبةً ومزعجةً، لا شكَّ بأنَّ جوزي أو جيرتي قد سمعا أيضًا."

"أوه، ألهذا السبب اشتريتِ واحدةً جديدةً في المرتفعات الخضراء؟ لم أستطع أن أفهم ما قُلته حينها، فقد تشوَّش الخط بمجرد أن تكلمتِ. أفترض أنه يجب العملُ على تحسين جودته. حسنًا، لا تشغلي بالك بهذا. وكما تقول السيدة ريتشيل دعينا ندعو أن تبقى أجهزة الاستقبال

هذه في تطوُّرٍ مستمرٍ. دعكِ من ذلك، جئت حاملةً إليكِ البشارة! لقد تم تحديد مكان بيتي الجديد!"

"أوه، هل أنت جادَّة يا آن! أين يقع؟ آمل أن يكون قريبًا من هنا."

"لاا، هنا تكمن المشكلة. سيستقرُّ جيلبرت في ميناء فوروينذز على بعد ستين ميل من هنا."

تنهدت ديانا قائلةً: "ستون! وكأنها ستمئة ميل بالنسبة لي. أنت تعرفين بأنني لا يمكنني الابتعاد عن المنزل أكثر من نطاق مدينة شارلوت تاون."

ردَّت آن قائلةً: "عليك القدوم إلى فوروينذز، إنه الميناء الأجمل على هذه الجزيرة. تعتلي قمَّته قرية صغيرة تدعى جلين سانت ماري حيث الطبيب ديفيد بلايث، عم جيلبرت الأكبر، الذي يعمل هناك منذ خمسين عامًا. وبما أنَّه بلغ سنَّ التَّقاعد، سيحل جيلبرت مكانه في العمل. وقد علمت بأنه يريد الاحتفاظ بمنزله لنفسه، لذلك علينا أن نجد منزلًا آخرًا لنقطن فيه. لا أعرف حتى الآن شكله أو موقعه، لكنَّني أحلم بمنزلٍ صغيرٍ مفروشٍ كقلعةٍ صغيرةٍ مبهجةٍ في إسبانيا."

سألتها ديانا: "أين ستقضيان شهر العسل؟"

"لن نذهب إلى أي مكان، لا تندهشي يا عزيزتي ديانا. أنتِ تفكّرين كيف ستُعارض السيدة هارمون أندروز مُخطّطاتنا، وبأنها ستقول إنه من الأفضل عدم الزواج إذا كنا لا نستطيع تحمّل التكاليف الباهظة؛ وبعد ذلك ستذكرني بأن جين قد سافرت إلى أوروبا من أجل شهر العسل. لكنني لا أهتم، أريد أن أقضي شهر العسل في منزل أحلامي اللَّطيف في فوروينذز."

"وهل اخترتِ إشبينتكِ؟"

"لا، لن أُوصِّف إشبينة. فقد استقلَّيْتِ أنتِ وفيل وبريسيلا وجين قطار الزَّواج قبلي. ولن يكون بمقدور ستيلا القدوم، إذ إنها تعمل في

فانكوفر. لا أمتلك صديقة مقرَّبة أخرى وبالطَّبعِ لن أوصِّف غريبةً لتكون إشبينتي."

سألت ديانا بقلقٍ: "لكنك سترتدين طرحةً، أليس كذلك؟"

"نعم، بالطبع لن تكتمل طلَّتي من دونها. أتذكر أنني أخبرتُ ماثيو، في ذاك المساء الذي أحضرني فيه إلى المرتفعات الخضراء، أنني لم أتوقع أبدًا أن أكون عروسًا لأنني كنت قبيحةً للغاية ولن يرغب أحد في الزواج بي إلَّا أحد المبشرين الأجانب. إذ إنَّني أؤمن بأن المبشرين الأجانب لا يدقِّقون كثيرًا في مسألة المظهر إذا أرادوا أن تخاطر فتاة بحياتها بين أكلة لحوم البشر. كان عليكِ أن تري المبشر الأجنبي الغامض والوسيم الذي تزوَّج بريسيلا. إنَّه يشبه تمامًا رجل الأحلام الذي لطالما أردنا أن نتزوج به يا ديانا. لقد كان أكثر رجل أنيق قابلته على الإطلاق، ومع ذلك كان يهذي بجمال بريسيلا الذهبي الأثيري. لكن بالطبع لا وجود لآكلي لحوم البشر في اليابان."

هتفت ديانا بحماس: " إن فستان زفافك مثالي للغاية، ستبدين كملكة فاتنة الجمال بطول قامتك وخصرك المنحوت. كيف تحافظين على وزنك يا آن؟ لقد زاد وزني كثيرًا في الآونة الأخيرة، حتى إن خصري لم يعد منحوتًا كما كان سابقًا."

ردَّت آن: " إنَّ البدانة والنحافة هي من الأمور التي يصعُب السَّيطرة عليها دائمًا. في جميع الأحوال، من الجيِّد أنَّ السيدة هارمون أندروز لن تُوجِّه لك الكلام نفسه الذي قالته لي عندما عدت إلى المنزل من مدينة سمرسايد، خلاصته بأنَّ الجسم النحيف مثيرٌ، لكنّني نحيلة جدًا وشاحبة وهذا ليس بالأمر المُثير إطلاقًا."

"لقد أقرَّت السيدة هارمون بأن جهاز عرسك جميل ولطيف كجهاز جين؛ على الرغم من أنها قد تزوجت من مليونير بينما أنت ستتزوجين من طبيب فقير "على الحديدة" لا يملك فلسًا."

ضحكت آن قائلةً: "نعم، فساتيني جميلة، فأنا أبتاع ما أراه لطيفًا. أتذكر أنَّ كل ما كنت أرتديه سابقًا كان قبيحًا للغاية وأنَّ أوَّل فستان جميل ارتديته في حفلتنا المدرسيَّة كان قد أعطاني إياه ماثيو. كانت تلك اللَّيلة مميَّزة للغايةِ، فبدا وكأنَّني دخلت في عالمٍ جديدٍ.

"كانت تلك الليلة التي تلا فيها جيلبرت قصيدة "بنجن على نهر الراين"، وتوجَّه إليكِ بنظراته عندما قال "واحدة أُخرى، ليست بأختٍ." وفي تلك الأثناء كنتِ غاضبةً جدًا لأنه وضع وردة المنديل الورديِّ الخاصِّ بكِ في جيب صدره! لم تتوقعِي حينها بأنَّكِ ستتزوجين منه لاحقًا بعدها."

ضحكت آن، وهما تنزلان درج العليَّة، قائلةً: "أوه، وهذا دليلٌ آخرٌ على أنَّه لا مهرب من القدر."

***

2
بيت الأحلام



لم يسبق أن عمَّت الإثارة أرجاء المرتفعات الخضراء كهذا اليوم. فحتى ماريلا كانت متحمسة للغاية، لكنها الوحيدة الاستثنائية التي لم تستطع إظهار مشاعرها كالبقيَّة.

قالت، وكأنها تحاول تبرير موقفها للسَّيدة ريتشل ليندي: "لم نشهد إقامة حفل زفاف في هذا المنزل سابقًا... عندما كنت طفلةً، سمعت وزيرًا عجوزًا يقول إن المنزل لا يكون منزلًا حقيقيًا حتى تتم فيه المناسبات الثلاثة ألا وهي الولادة والزفاف والموت. لقد توفي والدي ووالدتي وماثيو أيضًا في هذا المنزل، وقد شهدنا ولادة هنا. منذ فترة طويلة، بعد انتقالنا إلى هذا المنزل، كان لدينا رجل مستأجر متزوج حديثًا، وأنجبت زوجته طفلًا هنا. إلا أننا لم نشهد حفل زفاف هنا من قبل. ما زلت لا أصدق أن آن ستتزوج، فهي بنظري ما زالت تلك الفتاة الصغيرة التي أحضرها ماثيو إلى هنا منذ أربعة عشر عامًا. لم أستطع أن ألاحظ أنها قد كبرت بهذه السرعة. لن أنسى أبدًا ما شعرت به عندما رأيت أن ماثيو قد أحضر فتاة. أتساءل عن مصير الفتى الذي كان من المفترض أن يأتي بدلًا منها."

فأجابتها السيدة ريتشل ليند: "حسنًا، لكننا لا ننكر بأننا كنا محظوظين بهذا الخطأ. فما زلت أتذكر عندما أتيت في ذلك المساء لرؤية آن، وكيف رحَّبت بي بحرارة. لقد تغيَّر الكثير منذ قدومها."

تنهدت السيدة ريتشل قائلةً: "لا تقف الحياة على فقدان أحد، لذا علينا مجاراتها."

ثمَّ نهضت مستأنفةً كلامها: "سأعطي آن بطانيتين من القطن؛ واحدة مُخطَّطة، والأُخرى مُحاكة بغرزة أوراق الشجر. فقد أخبرتني آن أنهما باتا موضة من جديد. برأيي، سواء عصرية أو تقليدية، لا جمال يضاهي جمال بطَّانية مُحاكة بغرزة أوراق الشجر على سرير الغرفة. لقد قمت بخياطتها منذ وفاة توماس، ولا شك أنها مُتَّسخة الآن. لدينا شهرٌ واحدٌ للعمل على تنظيفها، وأنا واثقة بأن مسحوق التبييض سيصنع العجائب ويفي بالغرض."

شهر واحد فقط! تنهدت ماريلا ثم قالت باعتزاز:

"سأعطي آن نصف دزينة من البسط المضفَّرة التي أمتلكها في العليَّة. إنها قديمة الطراز، لذا لم أتوقع أبدًا أنها ستلفت انتباه أحد. لذا تفاجأت حين طلبتها آن مني مُقرةً أنها لن تجد ما سيلائم أرضية منزلها أكثر من هذه البسط. في الحقيقة، إنها جميلة. فقد صنعتها من أفخم الأقمشة، وقمت بتضفيرها في خطوط، واستعملتُها طيلة فصول الشتاء القليلة الماضية. وسأحضِّر لها من البرقوق الأزرق ما يكفيها لمدة عام لتخزنه في خزانة المربى الخاصة بمنزلها الجديد. لم تُزهر أشجار البرقوق الزرقاء تلك لمدة ثلاث سنوات، حتى ظننت أنها قد تُقطع. لكن، في الربيع الماضي، أزهرت أشجار البرقوق الأزرق هذه بسخاءٍ فجأةً. فبدا الأمر غريبًا بالنسبة إلينا، إذ لم نعتد على رؤية مثل كميَّة محصول البرقوق هذه أبدًا في المرتفعات الخضراء."

قالت السيدة ريتشل بنبرة واثقة ومطمئنة: "أشكر الله لأنه استجاب

لي، فقد دعوت كثيرًا التكون آن من نصيب جيلبرت. وها هما سيتزوجان فعلًا بعد كل ما مرَّا به. أذكر أنني شعرت بارتياحٍ شديدٍ عندما اكتشفتُ أنَّ آن لم تكن تنوي في الحقيقة الارتباط بذاك الرجل، من مدينة كينغزبورت المعاصرة، على الرغم من ثرائه الفاحش؛ وقبِلت بجيلبرت الفقير الذي هو في نهاية المطاف ابن هذه الجزيرة."

شعرت ماريلا بغصَّة: "إنه جيلبرت بلايث." محاولةً كبت النار التي بداخلها... تلك المشاعر نفسها التي كانت تراودها كلَّما نظرت إلى جيلبرت منذ طفولته. فلولا عنادها وكبريائها في الماضي، ربما كان ابنها الآن. لذا، كانت تواسي نفسها بالتفكير بأنه لربما زواجه من آن سيصحح هذا الخطأ القديم، ويولد الفرح من رحم المرارة.

كانت آن سعيدةً جدًا لدرجة أنها شعرت بالخوف من أن تصاب بالعين. إذ سمعت بعض الخرافات القديمة التي تُنذِر بالسُّوء. لكنها كانت على يقين بأن البشر على هذه الأرض يتمنون الخير للغير من صميم قلوبهم. ومن بين البشر، اثنتان نزلتا على آن في غسق اللَّيل وحاولتا بكل طاقتهما كشف الحقيقة المُرَّة لها وجعلها تدرك أنَّ ليس كل ما تظنه صحيح هو صائب بالفعل. إن هاتين السيدتين الجديرتين لم تكونا يومًا عدوتين لآن؛ بل على العكس من ذلك، لقد كانتا تحبَّانها حقًا- كطفلتهما تمامًا- وكانتا ستفعلان ما في وسعهما للدِّفاع عنها من أي شخص قد يُؤذيها وحتى من نفسها. فمثلًا، إذا فكَّرت في الاستفادة من الطبيب الشاب بلايث واستغلاله أو إذا تخيلت أنه ما زال مفتونًا بها كما كان في صِباه، كان من واجبهما بالتَّأكيد تسليط الضَّوء على الأخطاء التي ارتكبتها وإسداءُ النُّصحِ لئلَّا ترتكب مثلها في المستقبل. فكما أن أصابع اليد غير متشابهة، إن طبيعة البشر ليست متَّسقة أيضًا.

بحسب صحيفة ديلي إنتربرايز، جاءت السيدة إنجليس ني جين أندروز بصحبة والدتها والسيدة جاسبر بيل. تعيش جين حياةً زوجيَّةً

مُرفهةً مُمتعةً سعيدةً خاليةً من المشاحنات. في الحقيقة، لم تكن جين ذكية، وربما لم تدلي بأي كلامٍ مهمٍ وذي معنى في حياتها؛ لكنها في المقابل، لم تنطق قط بكلمةٍ واحدةٍ من شأنها أن تجرح مشاعر أي شخصٍ. وهذه موهبة سلبية إلى حدٍّ ما، لكنها نادرة وتُحسد عليها أيضًا. تقول السيدة ريتشل ليند بأنه على الرغم من أن جين قد تزوجت مليونيرًا وبأن زواجها ناجحٌ، لكنها لم تفسدها الأموال. فهي ما زالت كما كانت، هادئة، لطيفة، ذات خدود وردية، متعاطفة مع سعادة صديقتها القديمة ومهتمة بشدة بكل التفاصيل اللطيفة المتعلقة بجهاز عرس آن كما لو كانت تختار أقمشةً حريريةً مرصعةً بالجواهر لنفسها.

قالت السيدة هارمون أندروز باستغرابٍ ودهشةٍ: " أفهم من هذا أن جيلبرت لم يتخلَّى عنك بعد الأحداث التي مررتما بها. عمومًا، هكذا هم أفراد عائلة بلايث، يفون بالوعود التي يقطعونها، بغض النظر عما يحدث. دعيني أرى، همم أنت في الخامسة والعشرين من عمرك، أليس كذلك يا آن؟ لم أكن هكذا عندما كنت فتاةً في الخامسة والعشرين من عمري. تبدين أصغر، هكذا يبدو الصُّهب دائمًا! "

قالت آن ببرودةٍ وابتسامةٍ مزيَّفةٍ: "الشعر الأحمر رائج للغاية هذه الفترة. " لقد طوَّرت الحياة فيها روح الدُّعابة التي ساعدتها في التَّغلب على الكثير من الصعوبات، لكنها لا تستطيع تمالك أعصابها حين يسيء أحد إلى شعرها.

أقرَّت السيدة هارمون قائلةً: "نعم، إنَّه كذلك. لا أحد يعرف إلى ما ستودي بنا هذه الموضة الغريبة. إنَّ شكلكِ جميل يا آن ومناسب جدًا لمكانتكِ في الحياة، أليس كذلك يا جين؟ آمل أن تكوني سعيدةً للغاية. أتمنَّى لك التوفيق. ففي كثير من الأحيان لا تتكلل الخطوبة الطويلة بالزواج، لكن حالتك استثنائية بعض الشيء وشاء القدر أن تكون كذلك. "

قالت السيدة جاسبر بيل، التي دائمًا ما ترتدي قبعة بريشة سوداء اللَّون تتساقط شُعيراتها المتعرجة على رقبتها، بحزنٍ: "يبدو جيلبرت صغيرًا جدًا بالنسبة لطبيب. لذا أخشى ألَّا يثق الناس به كثيرًا." ثم أغلقت فمها بإحكام وكأنها قالت ما اعتبرته من واجبها أن تقوله وأراحت ضميرها.

صحيح أن انتقادات السَّيدة ميسدامس بيل وأندروز اللَّاسعة قد عكَّرت فرحة آن بتجهيزات الزفاف الجميلة؛ إلا أنها لم تستطع تعكير السعادة التي تعتلي أعماق قلبها في هذه المناسبة المميَّزة. وبمجرَّد مجيء جيلبرت نسيت آن ما حصل. وراحا يتجولان على ضفَّة الجدول بين أشجار البتولا التي أصبحت الآن أعمدةً عاجيةً طويلةً تكاد تُلامس النجوم بعد أن كانت شتلات صغيرة عندما أتت آن إلى المرتفعات الخضراء. تحدّثا تحت ظلالها بحبٍّ عن منزلهما الجديد وحياتهما المستقبلية معًا.

"لقد وجدت منزلًا لنا يا آن."

"أوه، أين يقع؟ آمل أنه ليس في القرية، لأنني لن أحب ذلك على الإطلاق."

"لا. لم أجد منزلًا في القرية. إنه منزلٌ صغيرٌ أبيض اللَّون على شاطئ الميناء، يقع في منتصف الطريق بين غلين سانت ماري وفوروينذز بوينت. إنه بعيد قليلًا، لكن لا يهم؛ فعندما نحصل على الهاتف، سنكون قد حللنا المشكلة وسيكون الوضع أكثر من جيِّد. يُطِلُّ المنزل على الميناء الأزرق الرائع حيث يمكننا مراقبة مشهد غروب الشمس وتلاعب الرياح بالأمواج العاتية التي تلاطم بدورها الكثبان الرملية."

"لكن كيف هو شكل البيت- بيتنا الأول- يا جيلبرت؟"

"إنه ليس كبيرًا جدًا؛ لكن حجمه مناسب، إذ يتَّسع بما يكفي لكلينا.

ففي الطَّابق السُّفليِّ، غرفة جلوس رائعة بها مدفأة، وغرفة طعام تُطلُّ على الميناء، وغرفة صغيرة مناسبة لتكون مكتبي. إنه أقدم منزل في فوروينذز، فقد مضى حوالي ستين عامًا على بنائه. إلا أنهم قد اعتنوا به جيِّدًا ليبقى في حالةٍ سليمةٍ. ومنذ حوالي خمسة عشر عامًا، تم إجراء بعض التعديلات عليه كتلبيسه بالألواح الخشبية والجصِّ وتغيير الأرضيات. لقد تم بناؤه بتأنٍ وحبٍ؛ فقد أدركتُ أن قصةً رومانسيةً تكمن وراء بنائه، لكن الرجل الذي سلَّمني مفتاح البيت يجهل ما جرى."

"قال إن الكابتن جيم هو الوحيد الذي بإمكانه غزل تلك الخيوط القديمة الآن."

"من هو الكابتن؟ عمَّا تتحدَّث يا جيم؟"

"جيم هو حارس المنارة في فوروينذز بوينت. أنا واثق من أنَّكِ ستحبين منارة فوروينذز يا آن. إنها تبُثُّ أنوارًا دوَّارةً تومض كالنُّجوم المتلألئة في السماء المكفهرَّة، ستتمكَّن من رؤيتها من الباب الأماميِّ أو من خلال نوافذ غرفة المعيشة."

"من هو صاحب هذا المنزل؟"

"في الحقيقة، إنه ملك لكنيسة غلين سانت ماري الآن، وقد استأجرته من الأوصياء عليه. تعود ملكيته في الأصل إلى الآنسة العجوز إليزابيث راسل التي توفيت في الربيع الماضي؛ وبما أنها كانت وحيدة لا تمتلك أقارب ليرثوها، وهبت ممتلكاتها لكنيسة جلين سانت ماري. ما زال أثاثها في المنزل، وقد اشتريت معظمه. فلحسن الحظِّ، يئس الأمناء من بيعها لأنها قديمة جدًا. فكما أعتقد، يفضِّل سكَّان غلين سانت ماري قطع الأثاث الفخمة المحفورة والمزيَّنة بالمرايا والزَّخارف. لكن أثاث الآنسة راسل جيد جدًا وأنا متأكد من أنك ستحبينه."

أومأت آن برأسها موافقةً ثم قالت بتردُّدٍ: "حتى الآن، جيد. لكن لا يستطيع الناس العيش على الأثاث وحده، بقي أمر مهم لم تأت على ذكره بعد. هل هذا المنزل محاط بالأشجار؟"

"أوه، أكوام منها! يقع خلف منزلنا المستقبليِّ بستانٌ كبيرٌ من أشجار التنوب (الصنوبر)؛ وعلى طول الممر، صفَّان مُتناسقان من أشجار الحور اللومباردي. تحاوط البستان المبهج هذا حلقة من أشجار البتولا البيضاء. يفتح بابنا الأمامي مباشرة على الحديقة، ولدينا مدخل آخر وهو بوابة صغيرة تقع بين شجرتي التنوب اللَّتين تشكّل أغصانهما المتعانقة قوسًا."

"أوه، أنا سعيدة للغاية! أنت تعلم أنني لم أستطع العيش في الأماكن الخالية من الأشجار، كسمكةٍ لا تستطيع العيش إلا في محيطها، إذ بداخلي طاقة غريبة تحترق شوقًا لرؤياها. حسنًا، لن أرفع سقف توقعاتي أكثر، ولن أسألك عما إذا يتواجد جدول بالجوار."

"هنا تكمن المفاجأة. في الواقع يقع الجدول في زاوية حديقة منزلنا الجديد."

تنهدت آن مطوَّلًا، وكأن جبلًا قد انزاح عن كاهلها، ثم قالت بارتياحٍ: "هذا المنزل الذي وجدته يا جيلبرت هو البيت الذي لطالما حلمتُ به."

***

3
في أرض الأحلام



سألت السيدة ريتشل ليند بجديَّة، وهي تقوم بخياطة مناديل المائدة: "هل جهَّزت قائمة المدعوين إلى حفل زفافك يا آن؟ فقد حان الوقت لإرسال الدعوات إليهم، حتى لو لم تكن هذه الدعوات رسمية بالفعل."

قالت آن: "لن أدعو الكثير، نريد حضور المقربين الذين سيفرحون بزواجنا وحسب. فمن طرف جيلبرت، سنتشرف بحضور السيد والسيدة آلان، والسيد والسيدة هاريسون."

قالت ماريلا بجفاء: "لم يمر الكثير من الوقت على لقائك بالسيد هاريسون، بالكاد أصبحتم أصدقاء!"

ضحكت آن، وهي تتذكَّر ما جرى، ثم قالت: "صحيحٌ أنني لم أكن منجذبةً بشدةٍ إليه في لقائنا الأوَّل، لكنَّه أثبت حسن نيَّته فيما بعد؛ وزوجته السيدة هاريسون امرأة لطيفة جدًا. بالطبع، لن أنسى الآنسة لافندر وبول أيضًا!"

"هل قرَّرا المجيء إلى الجزيرة هذا الصيف؟ اعتقدتُ أنهم سيسافران إلى أوروبا."

"لقد غيَّرا رأيهما بعدما أرسلتُ إليهما برسالةٍ أخبرهم فيها أنني سأتزوَّج. فقد تلقَّيتُ اليوم رسالةً من بول يُخبرني فيها بأنَّهما قد ألغيا سفرتهما إلى أوروبا لحضور حفل زفافي المميَّز."

علَّقت السيدة ريتشل: "لطالما أحبَّكِ هذا الطفل."

"هذا الذي تنعتينه "بالطفل" قد أصبح الآن شابًا في التاسعة عشر من عمره."

فردّت السيدة ليند: "كيف يمضي الوقت بنا بهذه السرعة!"

"قد تأتي معهما شارلوتا الرابعة. لقد أخبرتني من خلال رسالة بول بأنها ستأتي إذا سمح لها زوجها بذلك. أتساءل عما إذا ما زالت تضع ربطات الشعر الزرقاء الضخمة على رأسها، وما إذا كان زوجها يناديها بشارلوتا أو ليونورا. سأُسعد حقًا بمجيئها إلى حفل زفافي، فقد مرَّ الكثير من الوقت على آخر مرَّة التقيت بها في إحدى حفلات الزِّفاف. وقد أخبروني بأنه من المتوقع أن يكونوا في منتجع نزل ايكو الأسبوع المقبل. ولا تنسي أيضًا فيل والقس جو."

قالت السيدة ريتشل بحزمٍ: "يبدو الأمر مروعًا لسماعك تتحدثين هكذا عن القِسِّ يا آن."

"ما الخطأ الذي اقترفته؟ هكذا تناديه زوجته."

ردَّت السيدة ريتشل: "عليها أن تحترم منصبه."

فمازحتْها آن قائلةً: "سمعتُ أنَّكِ تنتقدين القساوسة بشدةٍ."

احتجت السيدة ليند على ذلك قائلةً: "صحيح ما تقولينه، لكنني أنتقدهم باحترام. هل سمعتني يومًا أنادي أحدهم باسمه الصغير؟"

اختلقت آن ابتسامة مزيَّفة، ثم قالت: "وبالتأكيد، سأضيف على لائحة المعازيم ديانا وفريد وفريد الصغير وآن كورديليا الصغيرة وجين أندروز. أتمنى لو كان باستطاعة كل من الآنسة ستايسي والعمّة جيمسينا وبريسيلا وستيلا المجيء. إلا أن ستيلا- كما تعلمون- في فانكوفر،

وبريسيلا في اليابان. وقد استقرَّت الآنسة ستايسي في كاليفورنيا بعد زواجها. وكذلك ذهبت العمة جيمسينا إلى الهند لاستكشاف مجال عمل ابنتها على الرغم من رهاب الأفاعي الذي تعاني منه. إنه لمن المؤسفِ حقًا تغرّب الناس عن أحبابهم وتشتّتهم في مختلف أنحاء العالم."

قالت السيدة ريتشل برسمية: "هذه هي الحياة، لقد تغيَّرت كثيرًا عمَّا كانت عليه. ففي أيام شبابي، نشأ الناس وتزوجوا واستقروا في المكان الذي ولدوا فيه، أو بالقرب منه. شكرًا لله، لأنك ستمكثين في الجزيرة يا آن. كنت أخشى أن يُصرّ جيلبرت على السَّفر إلى أقاصي الأرض بعدما أنهى دراسته ويسحبك معه."

"أجد أنه لمن حكمة الله انتقال البشر يا سيدة ليند؛ فلو بقي الجميع في مسقط رأسهم، ستمتلئ الأماكن وتزدحم."

"يا إلهي، لن أتجادل معك الآن يا آن، فأنا لست مثقَّفة. بالمناسبة، في أي وقت من اليوم سيُقام حفل الزفاف؟"

"لقد قررنا أن نقيمه في وقت الظهيرة، فقد أخبرونا بأن هذا هو الوقت الأنسب. إذ سيُتاح لنا الوقت للَّحاق بالقطار المسائي المُتوجِّه نحو جلين سانت ماري."

"وهل ستقيمين الحفل في صالة الاستقبال؟"

"لا، إلا إن أمطرت. وجدنا أنه من الأجمل إقامة الحفل في البستان المُزهر تحت القُبَّة الزَّرقاء الصَّافية المُشعَّة بأشعة الشمس الذَّهبيَّة. لو بإمكاني أن أختار مكان وزمان حفل زفافي لاخترت فجر أحد أيام حزيران، عند شروق أشعة الشمس الخافتة، وتفتح الورود في الحدائق؛ لكنت التقيت بجيلبرت ومشينا معًا إلى قلب غابات الزان حيث سيتكلَّل حبّنا بالزَّواج وسط الخُضرة الأخَّاذة."

بلعت ماريلا ريقها، وبدت الصدمة واضحة على وجه السيدة ليند.

"لكن سيكون هذا غريبًا جدًا يا آن، ولا يبدو أنه قانوني حتَّى. وماذا ستقول السيدة هارمون أندروز عندئذٍ؟"

تنهدت آن قائلةً: "هنا تكمن المشكلة. للأسف، إنَّ خوفنا مما قد تقوله السيدة هارمون أندروز يردعنا عن فعل الكثير من الأمور المبهجة. فكما يقول الشاعر، ما كل ما يطلبه المرء يدركه... تجري الرياح بما لا تشتهي السفن!"

تذمَّرت السيدة ليند: "بمرور الوقت، اكتشفت أنني لست متأكدة مما إذا كنت أفهمك فعلًا يا آن."

قالت ماريلا مبررةً: "أنتِ تعلمين، لطالما كانت آن رومانسية."

ردت السيدة ريتشل باطمئنان: "حسنًا، على المرجح أن الحياة الزوجية ستكون الدواء لدائها."

ضحكت آن ثم نزلت تتمشى بعيدًا في درب العشاق حيث وجدها جيلبرت. من الغريب أنه لا يبدو على أيٍّ منهما الشعور بالأمل أو بالخوف من الحياة الزوجيَّة المستقبليَّة التي "ستشفيهما من الرومانسية" بحسب أقاويل الأشخاص المحيطة بهم.

وفي الأسبوع التالي، وصل الأصدقاء المنتظرين إلى نُزل إيكو، وانغمرت المرتفعات الخضراء بالبهجة والسُّرور. لم تتغيَّر الآنسة لافندر كثيرًا، لدرجة أن آن قد أحسَّت أنَّ السَّنوات الثلاث، التي انقضت منذ زيارتها الأخيرة للجزيرة، كما لو أنها اللَّيلة الماضية. أما بول –على عكس الآنسة لافندر– قد تغيَّر كثيرًا وأثار دهشة آن. فوقفت مصدومةً تتساءل هل يمكن أن يكون هذا الرجل الوسيم الذي يبلغ طوله ستة أقدام هو بول الصغير نفسه؟

قالت آن: "لم يكن عليَّ النَّظر إليك! أنت تجعلني حقًا أشعر بالشيخوخة يا بول."

ردَّ بول: "لن تشيخي أبدًا يا معلِّمتي. فأنتِ والأم لافندر من الأقلِّية

المحظوظين الذين عثروا على ينبوع الشباب وشربوا منه. وليكن بعلمكِ أنه عندما ستتزوجين، لن أناديكِ بالسيدة بلايث؛ فبالنسبة لي، ستبقين دائمًا مدرِّسة أفضل الدروس التي تعلمتها على الإطلاق. أودُّ أن أُرِيَكِ شيئًا."

كان يودُّ أن يريها دفتر ملاحظاته المليء بالقصائد. كان بول قد عبر عن الأفكار الخيالية الجميلة التي تجول في خلده، والتي لم يقدّرها محررو المجلات، في أبياتٍ شعريةٍ. قرأت آن قصائد بول، المليئة بالسحر والجمال، بفرحةٍ حقيقية.

"ستصبح مشهورًا يا بول. لطالما حلمت بأن يُصبحَ أحد طلابي مشهورًا. كنت أحلم بأن يصبح رئيسًا للكلية، لكن أن تكون شاعرًا عظيمًا هذا أفضل بكثير. يومًا ما، سأكون قادرةً على التَّباهي بأنني اكتشفت الطالب المتميز والموهوب بول إيرفينغ. أوه، لكنني لم أكتشف موهبتك مسبقًا، أليس كذلك يا بول؟ لقد أبقيتك مخفيًا طيلة هذه المدَّة. يا إلهي، لقد ضاعت الفرصة من يدي!"

"ستُحقِّق شهرتكَ بنفسك، أيها البطل. لقد اجتهدت في خلال السنوات الثلاث الماضية وأبدعتَ، أنت تستحقُّها فعلًا."

"لا، لا أظن بأنني سأصبح مشهورًا، فأنا أعرف حجم قدراتي. لا يمكنني كتابة سوى بضعة جمل جميلة وبسيطة وخيالية يحبها الأطفال. فرصتي الوحيدة للخلود على هذه الأرض هي ركن في مذكراتك."

تخلصت شارلوتا الرابعة من ربطات الشعر الزرقاء، لكن لم تستطع السنوات محو النمش من على وجهها.

قالت: "لم أتوقَّع أبدًا يا آنسة شيرلي من أنني سأتزوج أميركيًا من سكان نيو إنجلاند 'يانكيز'. لكن كما تعلمين نصيبك سيصيبك. وفي النهاية، لا يمكن لومه، فليس ذنبه إن ولد هكذا."

"بتّ تُعتبرين الآن من سكان نيو إنجلاند فقد تزوجت واحدًا منهم

يا شارلوتا."

"آنسة شيرلي، أنا لست كذلك! ولن أكون حتى لو تزوجت عشرات "اليانكيز"! توم رجل لطيف، فهو لا يشرب ولا يتذمَّر لأنه مضطر على العمل لتأمين سبل العيش. ولم أُرِد أن أكون قاسيةً معه، فربما لن أحظى بفرصةٍ أخرى جيدةٍ كهذه. وفي نهاية المطاف، أشعر بالرضا التَّام تجاه قراري يا سيدتي."

"سألت آن: "هل يناديك ليونورا؟"

"يا إلهي، بالطبع لا يا آنسة شيرلي، فلن أعرف آنذاك أنه يقصدني. عندما تقدَّم لخطبتي، كان عليه أن يناداني بهذا الاسم "أطلب يدك يا ليونورا". وأعترف لك يا آنسة شيرلي لقد أحسست بشعور مروعٍ للغايةِ، إذ لم أشعر أنه يوجِّه كلامه إليَّ. ستتزوجين إذًا يا آنسة شيرلي! لطالما رغبت في الزَّواجِ من طبيب. إذ سيكون مفيدًا جدًا في حالة أُصيب الأطفال بالحصبة أو الخانوق. أما توم، فهو مجرَّد عامل بناء؛ إلا أنه مرحٌ حقًا. فعندما أردت أن أستأذنه للقدوم، قلت له "توم، هل يمكنني الذهاب إلى حفل زفاف الآنسة شيرلي؟ أودُّ أن آخذ موافقتك."قال لي "افعلي ما يرضيك يا شارلوتا، وسأرضى." إنه زوجٌ لطيفٌ للغاية يا سيدتي."

وصلت فيليبا وزوجها القِّس جو إلى المرتفعات الخضراء قبل يوم واحد من موعد حفل الزفاف. كان لقاء آن وفيليبا لقاءً حافلًا بالحيوية، إذ جرت محادثة سرية ودافئة تبادلتا فيها أخبارهما.

"سمو الملكة آن، تبدين ملكة كما عهدتُّكِ دائمًا. أما أنا فقد أصبحتُ نحيفةً بشكل مخيفٍ بعد إنجابي الأطفال. لم أعدْ وسيمةً جدًا، لكنني أعتقد بأن جو ما زال يحبني كما أنا؛ وكما ترين نحن منسجمان معًا. لقد سُرِرتُ كثيرًا بعدما علمت بأنك ستتزوجين بجيلبرت. لم يكن روي غاردنر ليفعل ذلك مطلقًا. على الرغم من أنني شعرت بخيبة أمل

شديدة حين كنت تعاملين روي معاملةً سيئةً، أستطيع تفهُّمكِ الآن."

"ابتسمت آن قائلةً: "لقد سمعت بأن قد تعافى، كما فهمت."

"نعم، لقد تعافى وتزوج من امرأةٍ حسناء، وها هما يعيشان حياةً سعيدةً معًا."

"هل تزوَّج كلٌ من آليك وألونزو؟"

"نعم لقد تزوَّج آليك، لكن ألونزو لم يتزوَّج بعد. إنني سعيدة بالتحدث إليكِ، فقد عادت بي الذاكرة إلى الأيام الخوالي عندما كنا نتبادل أطراف الحديث في منزل باتي. لقد كنا نحظى بمتعةٍ لا تضاهى!"

"هل زرت منزل باتي مؤخرًا؟"

"نعم، أذهب كثيرًا إليه. ما زالت الآنستان باتي وماريا تجلسان جنبًا إلى جنبٍ بجوار المدفأة. أوه كدت أنسى، لقد أعطياني هديةً لأسلِّمها لكِ بمناسبة زواجكِ. احزري ما هي يا آن."

"لم يخطر شيئًا ببالي، ما عساها تكون؟ وكيف عرفتا أنني سأتزوج؟"

"لقد أخبرتهما عندما كنت هناك الأسبوع الماضي. وكانتا مهتمتان جدًا بهذا الخبر. لذا قبل يومين، أرسلت لي الآنسة باتي رسالةً تطلب مني أن أتصل بها عند فراغي؛ وعندما اتصلت، سألتني إن كان بإمكاني أن أوصِل هديَّتها إليكِ. ألم تحزري بعد؟ ما الذي كان يجذبكِ كثيرًا في منزل باتي؟"

"يا إلهي، هل أرسلت لي الآنسة باتي كلبيها الصينيان؟"

"هلُمَّ، إنهما في صندوق سيارتي الآن. ولديَّ رسالة لك أيضًا، انتظري لحظةً لأحضرها."

لقد جاء في رسالة الآنسة باتي التالي: "عزيزتي الآنسة شيرلي، لقد سُعدتُ أنا وماريا كثيرًا بسماع خبر اقتراب موعد زواجك. نرسل لك أطيب تمنياتنا. فصحيح أننا لم نتزوج، لكننا لسنا ضد فكرة زواج الآخرين. وفي هذه المناسبة السعيدة، رغبنا في إهدائك كلبينا الصينيين

بعد أن رأيناكِ تبدين مودةً صادقة تجاههما. لقد شبنا وهرمنا، ولم يبقى من عمرنا سوى القليل ولم نعد قادرتان على الاعتناء بهما- على عكسك- فأنت ما زلت في ريعان شبابك وقادرة على تحمل مسؤوليتهما. لا تنسي بأن دوغ ينظر إلى اليمين وموغ إلى اليسار."

قالت آن بحماس: "أوه لم أتوقع أن تكون الهدية بهذا الجمال! أتخيل كم سيكون هذان الكلابان العجوزان الجميلان وهما جالسان بجانب المدفأة في منزل أحلامي الجديد."

في ذلك المساء، بينما بدأت التحضيرات لليوم المنتظر في منزل المرتفعات الخضراء، خرجت آن بمفردها للقيام ببعض الواجبات المُترتِّبة عليها في يوم عزوبتها الأخير. ذهبت آن إلى مقبرة آفونلي الصغيرة المظلَّلة بالحور لزيارة قبر ماثيو حيث استرجعت ذكرياتها القديمة التي جمعتها به.

همست: "كان ماثيو سيُسعدُ كثيرًا لو كان بيننا الآن. لكنني أؤمن أنه يعلم وهو سعيد بذلك. فقد قرأت مرةً بأن "أمواتنا لا يموتون أبدًا إلَّا إذا نسيناهم". وماثيو لن يموت أبدًا، سيبقى خالدًا في ذاكرتي."

تركت آن الأزهار التي أحضرتها على قبره وأكملت طريقها ببطءٍ نزولًا من التَّل المرتفع. كانت ليلةً لطيفةً، منيرةً بالأضواء. تَلَبَّدَتْ فيها السماء الحمراء بالغيوم، وتلألأ البحر بانعكاس لمعان أشعة الشمس الخافتة، وعلا صوت تلاطم الأمواج على الشاطئ البني. كانت آن تمشي بسلامٍ وسط جوٍّ ريفيٍّ رائعٍ حيث التِّلال والحقول والغابات التي لطالما أحبَّتها.

التقى بها جيلبرت عندما مرت ببوابة بلايث فانضم إليها قائلًا: "إن التاريخ يعيد نفسه، هل تتذكرين نزهتنا الأولى على هذا التل يا آن، هل تتذكرين نزهاتنا الأولى في الكثير من الأماكن؟"

"نعم، بينما كنت عائدةً إلى المنزل بعد زيارة قبر ماثيو في غسق تلك

اللَّيلة، فاجأتني عند البوَّابة. حينها دست على كرامتي وكسرت من نفسي وسامحتك."

تابع جيلبرت: "عندما سامحتني تلك الليلة، أحسست بأن القدر قد ابتسم لي أخيرًا. ومنذ تلك اللّحظة، وأنا أتطلع إلى الغد. فعندما تركتكِ عند بوابتكِ، كنت آنذاك أسعد فتى في العالم."

"أعتقد بأنَّك فعلتَ الكثير لتستحقَّ هذه الفرصة. لقد أنقذتَ حياتي فعلًا في ذلك اليوم حين كنت جالسةً عند البركة وقد غمرني الحزن والبؤس. كنت قد استسلمت للأعباء المُترتِّبة عليَّ! أنا لا أستحق السعادة التي غمرتني."

ضحك جيلبرت وأمسك بإحكام يد آن النَّاعمة التي كانت ترتدي بها خاتم الخطوبة. كان خاتم خطوبتها من اللؤلؤ، فقد رفضت الألماس تمامًا.

"لم أعد أُحب الماس أبدًا منذ أن اكتشفتُ أنه ليس كاللَّون الأرجواني الجميل الذي لطالما حلمتُ به، إنه يذكِّرني دائمًا بخيبة أملي القديمة."

اعترض جيلبرت على كلامها: "لكن تقول الأسطورة القديمة: إن اللؤلؤ هو في الأصل دموع."

"في الواقع، أنا لست خائفةً من هذه الأقاويل. إذ لا تُذرَف الدُّموع في الأحزان وحسب، بل تُذرف أيضًا في الأفراح. فقد فاضت دموع عيني في أسعد لحظات حياتي كعندما أخبرتني ماريلا أنني سأبقى هنا في المرتفعات الخضراء، وعندما أهداني ماثيو أول وأجمل فستان ارتديته على الإطلاق، وعندما سمعت بأنك تتعافى من الحمَّى. لذا فإن خاتم اللؤلؤ هذا، يا جلبيرت، كفيلٌ بأن يجعلني قادرةً على مواجهة أحزان الحياة بطيب خاطر."

إلا أنهما حاولا هذه الليلة الابتعاد عن كل ما يعكِّر صفوهما؛ ولم

يفكرا إلا بالفرح وبالأجواء الجميلة التي تنتظرهما غدًا، يوم زفافهما الموعود، وبمنزل أحلامهما الذي يُشرف على الشاطئ الأرجواني الضَّبابيِّ لميناء فوروويندز.

***

4
العروس الأولى في المرتفعات الخضراء



استيقظت آن في صباح يوم زفافها لتجد أشعة الشمس الذهبية التي اخترقت نافذة شرفتها الصغيرة تداعب وجهها، ونسيم شهر أيلول يُراقص ستائرها.

كانت تدور بخلدها أفكار ورديَّة: "إنني في قمَّة السَّعادة بشروق شمس هذا اليوم."

عادت بها الذاكرة إلى الصَّباح الأوَّل الذي استيقظت فيه في هذه الغرفة الصغيرة بعدما تسلَّلت إليها أشعة الشمس من خلال انجراف ملكة الثلج العجوز. لم يكن ذاك الصَّباح بروعة اليوم، فقد كان محمَّلًا بخيبة الأمل المريرة التي عاشتها في اللَّيلة السَّابقة. لكن بعد ذلك الحين، أصبحت هذه الغرفة الصغيرة محبَّبةً لديها، فقد قضت أجمل أيام طفولتها فيها. فعند نافذتها، ركعت شكرًا وابتهاجًا في اللَّيلة التي علمت فيها أن جيلبرت سيُشفى من الحمَّى. وفيها جلست بجانبه في سكينةٍ وهدوءٍ ليلة خطوبتهما. لقد عاشت فيها الكثير من لحظات الفرح وبعض من الحزن، وحان الوقت اليوم لتركها إلى الأبد. من الآن فصاعدًا، لن تبقى هذه الغرفة ملكها. فبعد مغادرتها، سترثها دورا ذات

الخمسة عشر عامًا. لا تمانع آن بذلك، فلطالما كانت هذه الغرفة الصغيرة مسكنًا للصِّبية والفتيات إلى حينٍ يأتي اليوم الذي يودِّعون فيه العزوبيَّة لاستقبال الحياة الزَّوجيَّة.

كان منزل المرتفعات الخضراء مزدحمًا ومبهجًا. وصلت ديانا مبكرًا مع فريد والصغيرة آن كورديليا لمدِّ يد المساعدة. بينما تولَّى توأما المرتفعات الخضراء، ديفي ودورا، مهمة نقل الأطفال إلى الحديقة.

حذرت ديانا بقلقٍ: "لا تدعا الصغيرة آن كورديليا تلوّث ملابسها."

فقالت ماريلا: "لا داعي للقلق، ضعي قدميك في ماءٍ باردةٍ. إنها في أيادٍ أمينة، فدورا طفلة أكثر عقلانيةً وحذرًا من معظم الأمهات اللَّاتي أعرفهنَّ. إنَّها حقًا رائعةٌ وليست كذاك الأهوج."

ابتسمت ماريلا لنظرات آن المُستاءة، يبدو أنها قد أحبَّت ذاك الطَّائش أكثر من أي شخصٍ آخر."

ألقت السيدة ريتشل نظرةً للتَّأكُّد من أنهما بعيدان، ثمَّ قالت: "هذان الطِّفلان لطيفان حقًا. فدورا أنثويَّة ومتعاونة للغاية؛ وديفي قد تحسَّن وأصبح ذكيًّا للغاية، لم يعُد ذاك المشاكس الذي اعتاد أن يكون."

اعترفت ماريلا: "لم أكن مشتَّتةً في حياتي أكثر من الأشهر السِّتَّة الأولى له هنا في المرتفعات الخضراء، لكنَّني اعتدت عليه. وقد أخذ فكرةً شاسعةً عن الزراعة مؤخرًا، ويريد مني السماح له بمحاولة إدارة المزرعة العام المقبل. لا أعتقد بأن السَّيد باري سيرغب في استئجارها لفترة أطول، ربما سيتعيَّن إجراء بعض الترتيبات الجديدة."

قالت ديانا وهي تُزيل القماشة من فوق الفُستان الحريريِّ: "بالتأكيد ستبدين رائعةً اليوم في حفل زفافك يا آن. فلا يمكن أن تجدي أفضل من هذا الفستان مادامك قد طلبته من شركة إيتون."

كانت لدى السَّيِّدة ليند وجهة نظرٍ قويةٍ حول موضوع المتاجر

الكبرى الشبيهة بالأخطبوط. لذا لم تضيِّع أبدًا الفرصة التي أُتيحت لها، وقالت بسخطٍ: "من المؤسف أنَّ الكثير من أموال سكان هذه الجزيرة تذهب إلى شركة إيتون نفسها. ومن المؤسف أكثر، اهتمام فتيات آفونلي بالكتالوجات الخاصَّة بهذه الشَّركة أكثر من اهتمامهنَّ بالكتاب المقدَّس، فقد فوَّتوا زيارة الكنيسة أيام الأحد من أجل البحث عنها!"

قالت ديانا: "نعم، إنها ممتازةٌ لتسلية الأطفال، ففريد والصغيرة آن يجلسان ويتأمَّلا الصُّور لساعاتٍ وساعاتٍ."

قالت السيدة ريتشل بثقةٍ: "إنني أُسلِّي عشرة أطفالٍ من دون الحاجة لكتالوج إيتون."

حاولت آن التَّخفيف من حدَّة النِّقاش، فقالت بمرحٍ: "على رسلِكما، لا تتشاجرا بشأن كتالوج إيتون. اليوم هو يومي، وأنا في قمَّة السعادة وأريد أن يكون جميع الحاضرين سعداء أيضًا."

لقد كانت السَّيدة ريتشل تتمنى أن تُسعد آن دائمًا، لا بل كانت واثقة من ذلك. إلا أنها كانت تؤمن بأنَّه من غير المُستحبِّ التَّباهي بسعادتها أمام النَّاس خشية أن تصاب بمكروه، لذا تنهَّدت واكتفت بقول كلماتٍ معدوداتٍ: "أنا متأكِّدةٌ من أن سعادتك ستدوم، يا صغيرتي."

وبالفعل، كانت آن، أوَّل عروس من المرتفعات الخضراء، عروسًا سعيدةً وجميلةً خطفت الأنظار بخصرها النَّحيل وعينيْها البرَّاقتيْن بعد أن طلَّت ظُهر ذاك اليوم بطرحتها حاملةً باقةً من الورود، ثمَّ نزلت السَّلالم القديمة المفروشة ببساطٍ متوجهةً نحو القاعة حيث كان جيلبرت في انتظارها بعيونٍ مليئةٍ بالحبِّ ترافقها وهي تخطو نحوه باستسلامٍ. لقد أصبحت هذه الجميلةُ، التي طال انتظارها، ملكه أخيرًا. وفي هذه الأثناء، كانت تساؤلاتٌ كثيرةٌ تصول وتجول في عقله، هل يستحقُّها فعلًا؟ هل سيتمكَّن من جعلها سعيدةً كما كان يأمل؟ وكيف سيواجهها إن خذلها ولم يفِ بوعده؟ إلى أن شبكت يدها بيده، والتقت

عيونهما وزال كل الشَّكِّ والخوف. فقد أيقنا أنَّهما ينتميان إلى بعضهما بعضًا، وأنَّ سعادتهما تكمن في بقائهما معًا، وأن الحياة غير قادرةٍ على تفرقتهما أبدًا.

عُقد زواجهما تحت أشعة الشمس الذَّهبيَّة في البستان القديم وهما محاطان بوجوه أفراد أسرتهما وأصدقاء عمرهما اللَّطيفين. ثمَّ قام القسّ جو بطقوس التَّرانيم المُعتادةِ التي نالت إعجاب السيدة ريتشل ليند.

وبينما كان جيلبرت وآن يكرِّران عهود الزَّواج، سمعا زقزقة عصفورٍ مبتهجٍ من على أحد الأغصان المخفيَّة... على الرُّغم من أنَّ الطيور لا تغني كثيرًا في شهر أيلول. فرحت آن بسماعه وكذلك جيلبرت، إذ لم يسبق له أن سمع نغمةً مُبهجةً إلى هذا الحدِّ. وكانت شارلوتا الرَّابعة واثقةً بأنَّ هذه هي بُشرى سارَّة تدلُّ على أنَّ الآنسة شيرلي ستحظى بحياةٍ سعيدةٍ. بينما استغل بول الفرصة وعبَّر عن طربه بطريقته الخاصَّة من خلال كتابة قصيدةٍ غنائيَّةٍ كانت واحدةً من أكثر القصائد إثارةً للإعجاب في مجلَّد الشِّعر الأوَّل الخاص به. أكمل الطَّائر غناءه طيلة الحفل واختتمه بنغمةٍ صغيرةٍ وسعيدةٍ.

لم يسبق أن شهد هذا المنزل القديم الرَّماديُّ ذو القرميد الأخضر وبساتينه الممتدة يومًا مليئًا بالفرح والمرح كهذا اليوم. فقد أُلقيَت الدُّعابات القديمة، التي باتت بندًا مهمًا في مراسم حفلات الزفاف، وأثارت ضحك الجميع كما لو أنَّها تُقال للمرَّة الأولى.

وها قد حان وقت المغادرة للَّحاق بقطار كارمودي، فاستقلَّت آن وجيلبرت العربة التي قادها بول. وأحضر التَّوأم الأرزَّ والأحذية القديمة ليُلقيَها كلٌّ من السَّيد هاريسون وشارلوتا الرَّابعة... وهكذا زُفَّت عروس أيلول.

وقفت ماريلا عند البوابة وهي تنظر إلى العربة التي تبتعد شيئًا فشيئًا

عبر الممرِّ الطَّويل المُزيَّنة ضفافه بأزهار العود الذَّهبيَّة. استدارت آن في نهاية المطاف لتلوِّح وداعها الأخير، إذ لم تعُد المرتفعات الخضراء منزلها بعد الآن" بدا وجه ماريلا شاحب اللَّون عندما استدارت إلى المنزل الذي ملأته آن خلال الأربعة عشر عامًا التي قضتها فيه بالنُّور والحياة.

بقي كلٌّ من ديانا وصغارها، وسكَّان نزل إيكو، وعائلة آلان لمساعدة السيدتين العجوزتين في التَّغلُّب على شعور الوحدة في اللَّيلة الأولى، فجلسوا جميعًا حول مائدة الطَّعام واستمتعوا بتناولهم العشاء بهدوءٍ وتبادلهم أطراف الحديث حول تفاصيل هذا اليوم اللَّطيف. وبينما هم جالسين، كانت آن وجيلبرت قد وصلا إلى غلين سانت ماري.

***

5

نحو المنزل الجديد



أرسل الطبيب ديفيد بلايث عربةً يجرُّها حصانٌ ليُقلَّهم. نزل السائق الذي أحضرها بابتسامة ترحيبٍ، وتركهما يتمتَّعان بفرحة القيادة بمفردهما نحو منزلهما الجديد في ذلك المساء المُنير.

لم تنسَ آن أبدًا المنظر الأخَّاذ الذي ظهر أمامهما في أثناء قيادتهما العربة فوق التَّلِّ خلف القرية. لم يكن بوسعها رؤية منزلها الجديد بعد؛ لكن بدا لها ميناء فوروينذز كمرآةٍ رائعةٍ ومشرقةٍ من الورود والفضَّة. يقع مدخله بين الكثبان الرملية من جانب وجرفٍ قاتمٍ من الحجر الرَّملي الأحمر شديد الانحدار على الجانب الآخر. لفت انتباهها ضوءٌ خافتٌ يُنير ما وراء البحر. إنها قرية الصَّيد الصَّغيرة. بدت هذه القرية، التي تقع في الخليج عند مُلتقى الكثبان الرملية بشاطئ الميناء، وكأنها حجرٌ كريمٌ متلألئ في الضَّباب.

كان المنظر ذاك المساء أشبه بلوحةٍ فنيَّةٍ جذَّابةٍ. فقد كان الهواء نقيًا، محمَّلًا بنسيم البحر العليل. وكانت السَّماء مرصعةً بالجواهر التي تُضيء الظُّلمة؛ بينما كان الضَّوء الذَّهبيُّ الدوَّار على الجرف يلمع بدفء تحت السَّماء الصَّافية، نجمًا مرتجفًا ومرتعشًا يبعث الأمل في

النُّفوس. بعيدًا، على طول الأفق، ارتفعت سحابة رمادية من دخان باخرةٍ عابرة. وعلى طول شاطئ الميناء المظلم المكسوِّ بأشجار التنوب، رست بضع أشرعةٍ قاتمة اللَّون. كان الجرس يدقُّ بهدوء من برج كنيسةٍ صغيرةٍ بيضاء على الجانب البعيد، وقد امتزج صوت الجرس بأنين البحر وشكّلا رنينًا عذبًا.

تمتمت آن: "أوه، أحببت مدينة فوروويندز، فهي جميلة جدًا. أين يقع بيتنا يا جيلبرت؟"

"لا يمكننا رؤيته بعد، فأشجار البتولا المُتراصفة هذه تحجب الرؤية. إنه على بعد حوالي ميلين من مدينة غلين سانت ماري، ويفصلنا عن المنارة ميلٌ واحدٌ فقط. لن يكون لدينا الكثير من الجيران يا آن، فهناك منزلٌ واحدٌ فقط بالقرب منا ولا أعرف من يقطنه. هل ستشعرين بالوحدة عندما أكون بعيدًا؟"

"بالطَّبع لن أشعر بالوحدة أمام هذا الجمال المُضاء بتلك الأنوار. تُرى من يعيش في ذلك المنزل يا جيلبرت؟"

"لا أعرف. لا يبدو واضحًا ما إذا سيكون الجيران أُناسًا طيِّبين، أليس كذلك يا آن؟"

كان المنزل كبيرًا وواسعًا، لكنَّه بدا باهتًا تمامًا على الرُّغم من أنه مُطلى باللَّون الأخضر الزَّاهي. وبدا مُجرَّدًا أيضًا على الرُّغم من الخُضرة التي تحاوطه، فمن الأمام حديقة مُرتَّبة ومن الخلف بستان. ربما أناقته هي المسؤولة عن ذلك؛ إذ كان كلٌّ من المنزل، والحظيرة، والبستان، والحديقة، والعشب والممر، نظيفٌ ومُرتَّبٌ للغاية.

قالت آن بتعجبٍ: "لا يُعقل أن يكون الرجل الذي اختار لون الطِّلاء هذا لطيفٌ جدًا! أيُعقل أنه مجرَّد حادثٍ كالذي حصل في قاعتنا الزرقاء. لا أعلم، لكنني متأكِّدةٌ من أنَّ هذا المنزل خالٍ من الأطفال، فهو مُرتَّبٌ ومنظَّمٌ للغايةِ. لم أتوقع أبدًا أن أرى مكانًا مُرتَّبًا إلى هذا

الحدِّ كهذا."

لم يلتقيا بأي أحد على الطريق الأحمر الرَّطب المُمتدِّ على طول شاطئ الميناء حيث نمت أشجار التنوب الكبيرة المتناثرة التي يمكن أن تلمح، من بين جذوعها، حقول الحصاد الصَّفراء، ووميض تلال الرِّمال الذَّهبيَّة، وجزءًا من البحر الأزرق. ولكن قبل وصولهما مباشرة إلى أشجار البتولا التي تُخفي منزلهما، رأت آن فتاةً تقود قطيعًا من الإوز الأبيض على قمة تلةٍ خضراء مخمليَّة. لقد خرجت هي وأوزها من البوابة عند سفح التل التي مرَّت بها آن وجيلبرت. كانت الفتاة طويلةً، ترتدي فستانًا أزرقًا باهتًا. سارت بخطواتٍ معينةٍ ثمَّ توقَّفت لبرهةٍ وجلست واضعةً يدها على قفل البوَّابة، ونظرت إليهما بثباتٍ. للحظةٍ عابرةٍ، بدا لآن وكأن في نظرات هذه الفتاة تلميح مستتر من العداء. إلَّا أنَّ جمالها الملحوظ، الذي يجذب الانتباه في أي مكان، هو الذي جعل آن تتمهَل وتتراجع عن فكرتها هذه. بدت الفتاة بثوبها البسيط رائعةً. لم تكن ترتدي قبعةٍ، لكن كانت ضفائر شعرها الثقيلة، بلون القمح النَّاضج، مرفوعةً وملفوفةً حول رأسها كالتَّاج. وكانت عيناها زرقاوين تلمعان كالنُّجوم، أما شفتاها فكانتا قرمزيَّتين كباقة أزهار الخشخاش الحمراء التي كانت تضعهما في حزامها.

سألت آن بصوتٍ منخفضٍ: "جيلبرت، من هي الفتاة التي مررنا بالقرب منها للتَّوِّ؟"

قال جيلبرت، الذي كان غارقًا في النَّظر إلى عروسه: "لم ألاحظ، عن أيِّ فتاة تتحدَّثين؟"

"كانت تلك الفتاة واقفةً إلى جانب تلك البوابة. أوه لا، لا تنظر للخلف. إنَّها ما زالت تراقبنا. يا إلهي، لم أرَ مثل هذا الوجه الجميل قط."

"لا أذكر أنَّني رأيت فتياتٍ جميلاتٍ عندما أتيت المرَّة السَّابقة. لا

أُنكر وجود بعض الفتيات الجميلات هنا، لكنهنَّ لسْنَ بالجمال الذي تتحدَّثين عنه."

"لكن هذه الفتاة فاتنة الجمال، لم ترها على الأغلب. إذ لو رأيتها، ستتذكَّرها فورًا ولن تنساها مطلقًا. لم أر مثل هذا الوجه إلا في الصور. يا لخصلات شعرها الذَّهبيَّة المُنسدِلة، وكأنها أميرة ديزني رابونزل على أرض الواقع!"

"من المحتمل أنَّها زائرةٌ في فور ويندز، قد تكون واحدة من نُزلاء الفندق الصَّيفيِّ الكبير الواقع بالقرب من الميناء."

"لقد كانت ترتدي مئزرًا أبيضًا وتقود سربًا من الإوزّ."

"ما أدراني، ربما تفعل ذلك من أجل التَّسلية. انظري يا آن، ذاك هو منزلنا."

نظرت آن ونسيت لبعض الوقت الفتاة ذات العينيْن السَّاحرتيْن. كانت اللَّمحة الأولى لمنزلهما الجديد متعةً للعين والرُّوح، فقد بدا وكأنُّه صدفةٌ كبيرةٌ رسَت على شاطئ الميناء. كانت ظلال أشجار الحور اللّومباردي الطَّويلة المتراصفة على طول ممرِّ البيت بارزةً ترافق آن وجيلبرت في نزهتهما تحت السَّماء المُلوَّنة.

في الخلف، كانت الرِّياح تصدر أنغامًا غريبةً ومؤرقةً في غابة أشجار التَّنوب الكثيفة التي تُعتبر غطاءً يحمي حديقة المنزل من رياح البحر القويَّة. وتبدو الغابة، ككل الغابات، مسكنًا للأسرار التي لا يمكن معرفتها إلا من خلال الدُّخول والسعي بصبرٍ. إذ تحافظ الأذرع الخضراء الدَّاكنة على حرمتها من الانتهاك من الأعين الفضوليَّة أو غير المبالية.

كانت قرية الصَّيد الصَّغيرة عند الميناء مُشعَّةً بالأنوار حين بدأت رياح اللَّيل بالصَّفير.

انفتح باب المنزل الصغير، وخرج منه وهج النَّار الدَّافئ في اللَّيل

الحالك. أنزل جيلبرت آن من العربة وقادها، بين أشجار التنوب المُحْمرَّة، إلى الحديقة عبر البوابة الصغيرة ثم إلى عتبة درج المنزل.

همس "أهلا بك في منزلنا"، وصعدا يدًا بيدٍ على عتبة منزل أحلامهما الجديد.

***

6
الكابتن جيم



جاء الطبيب العجوز ديف وزوجته الطبيبة إلى المنزل الصَّغير للتَّرحيب بالعروس والعريس. كان الطبيب ديف رجلًا عجوزًا ومرحًا ذا شعر أبيض، بينما كانت زوجته صغيرةً ذات خدود ورديةٍ وشعرٍ فضيٍّ سرقت قلب آن بجمالها ومعاملتها وطيبة قلبها.

"أنا مسرورةٌ لرؤيتكما يا عزيزاي، لابد أنكما متعبان جدًا. لقد أحضرنا لكما طعامًا معلَّبًا سهل التَّحضير، وقد أحضر الكابتن جيم بعض سمك السلمون المرقط. الكابتن جيم، أين أنت؟ أوه، لقد نزلت لرؤية الحصان على ما أظن. هيا اترك ما بيدكَ واصعد إلى الطابق العلويِّ."

نظرت آن إلى السيدة ديف، وهي ترافقها إلى الطَّابق العلويِّ، بعيونٍ مشرقةٍ ومقدِّرة. لقد أحبَّت ديكور منزلها الجديد كثيرًا، فهو يحمل عبق جوّ المرتفعات الخضراء ونكهة التقاليد القديمة.

تمتمت عندما كانت بمفردها في غرفتها: "أعتقد أنني وجدت الآنسة إليزابيث راسل روحًا طيِّبةً. كان في الغرفة نافذتين تسمحا للنَّائم برؤية المرفأ السُّفليِّ والبار الرَّمليِّ وضوء فوروينذز.

ردّدت آن بهدوء: "إنَّه بابٌ سحريٌّ فعلًا ينفتح على زبد بحارٍ محفوفةٍ بالمخاطر في أراضٍ خرافيةٍ بائسة."

كانت نافذة المنزل تُطلُّ على وادٍ ملوَّنٍ يمرُّ عبره جدول. كان المنزل الوحيد، الذي يبعد نصف ميلٍ من النَّهر، منزلًا قديمًا رماديًّا محاطًا بأشجارِ الصَّفصاف الضَّخمة التي تطال نوافذه. تساءلت آن عن سكَّان ذاك البيت، أقرب جيرانها، وأملت أن يكونوا لطفاء. وفجأةً، وجدت نفسها تفكِّر بالفتاة الجميلة راعية الإوز الأبيض.

كانت آن منهمكةً في التفكير بها: "اِعتقد جيلبرت أنها مُجرَّد زائرة، إلا أنني متأكدةٌ من أنَّها تنتمي إلى هذا المكان. كان فيها سرٌّ عجيبٌ جعلها جزءًا من البحر والسماء والمرفأ وكأنَّ دم فورويندز يجري في عروقها."

نزلت آن إلى الطَّابق السُّفليِّ، فوجدت جيلبرت يقف أمام المدفأة ويتحدَّث إلى شخصٍ غريبٍ. وعند دخول آن، التفت كلاهما إليها.

قدَّمهما جيلبرت إلى بعضهما بعضًا: "آن، هذا الكابتن بويد. كابتن بويد، هذه هي زوجتي."

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي يقول فيها جيلبرت "زوجتي" لأي شخص غير آن، وقد قالها بنبرةٍ مُفعمةٍ بالفخر. مدَّ الكابتن العجوز يده البارزة عروقها إلى آن، تبادلا الابتسامة وأصبحا صديقين منذ تلك اللحظة. فالأرواح اللَّطيفة تشعر بالأرواح التي تشبهها.

"أنا مسرورٌ حقًّا بمقابلتكِ، سيدة بلايث. آمل أن تكوني سعيدةً كونك العروس الأولى التي تأتي إلى هنا. لا يمكنني أن أتمنى لك أفضل من ذلك. لم يقدِّمني زوجكِ بطريقةٍ لائقةٍ. أمزح، أمزح. اسمي "الكابتن جيم" وهو الذي أستخدمه يوميًا وقد اعتاد الجميع عليه، ستعتادين على مناداتي به أيضًا. أنت عروس صغيرة ولطيفة يا سيدة بلايث. إنَّ النَّظر إليكِ يجعلني أشعر وكأنَّني تزوجت من نفسي هههه."

أثار مُزاح الكابتن ضحكات الجميع. ووسط هذه الأجواء اللَّطيفة، حثَّت السَّيدة ديف الكابتن جيم على البقاء لتناول العشاء معهم.

"شكرًا على لطفكِ. إنه لمن دواعي سروري يا سيدتي. إنني معتادةٌ على تناول وجباتي بمفردي أمام انعكاس صورتي القديمة القبيحة على المرآة. وها أنا اليوم مدعوٌّ للجلوس مع سيدتين لطيفتين نقيتين، أعتقد أنه ليس عليَّ إضاعة فرصة نادرة كهذه!"

قد تبدو مجاملات الكابتن جيم باهتةً على الورق، فهو ليس بتلك البراعة، لكنه ينطقها بنبرةٍ مُفعمةٍ بكثيرٍ من اللُّطف والاحترام لدرجة أنَّ المرأة التي تتلقَّى كلامه تشعر وكأنها تُكرَّم بطريقة ملكية.

كان الكابتن جيم رجلًا عجوزًا مُرهف الحسِّ وبسيط التَّفكير، يتمتَّع بروح الشَّباب التي تظهر في عينيه وقلبه. إنه طويل القامة، منحني الظهر إلى حد ما، لكنه قويَّ البُنية. يتساقط شعره الرَّماديُّ الحديديُّ الكثيف على كتفيه العريضين. كان الكابتن جيم ذو وجهٍ حليقٍ ونظيفٍ بملامح ظاهرةٍ وحادةٍ؛ وزوجٍ من العيون الزَّرقاء العميقة التي تتلألأ تارَّةً وتحلم تارَّةً أخرى، وفي بعض الأحيان تتَّجه بحزنٍ نحو البحر كشخصٍ يبحث عن ضالَّته الثَّمينة. يومًا ما، ستكتشف آن إلى ما كان ينظر إليه الكابتن جيم.

لا يمكن إنكار أنَّ الكابتن جيم يفضِّل البقاء في المنزل. لم يكن أيًّا من فكُّه، فمه الكبير، جبينه المربع يتوافق مع معايير الجمال؛ بالإضافة إلى أنَّه قد مرَّ بالكثير من المصاعب والأحزان التي أثَّرت سلبًا على جسده. لكن، للوهلة الأولى، لم تُفكِّر آن سوى أنه شخصٌ بسيطٌ ومحبوبٌ. فالرُّوح المتلألئة جمّلت هذا المسكن الوعر تمامًا.

اجتمعوا ببهجةٍ حول مائدة العشاء. قضت حريق الموقد على برودة مساء أيلول، لكنَّهم أبقوا نافذة غرفة الطَّعام مفتوحةً ليتمتَّعوا بنسيم البحر اللَّطيف وبالمنظر المدهش. فقد كانت النَّافذة تُطلُّ على الميناء

والتلال الأرجوانية المنخفضة خلفها. كانت المائدة ممتلئةً بالمأكولات الشَّهية التي أحضرتها السيدة، لكن الطَّبق الذي لا يقاوم- بلا منازع- كان الطَّبق الرَّئيس من سمك السلمون المرقط.

قال الكابتن جيم: "لقد أحضرتها لأنني وجدت أنَّها ستكون لذيذةً بعد رحلة سفرٍ شاقة. إنها طازجة تمامًا يا سيدة بلايث. لقد كانوا يسبحون في بركة غلين قبل ساعتين من الآن."

سأل الطبيب ديف: "من الذي سيحضُر إلى المنارة هذه الليلة يا كابتن جيم؟"

"ابن أخي أليكس. إنه بارعٌ في عمله مثلي تمامًا. أنا سعيدٌ حقًا لأنك طلبت مني البقاء لتناول العشاء معكم. إنَّني أتضوَّر جوعًا، إذ لم أتناول الكثير على عشاء اليوم."

قالت السيدة ديف بصرامةٍ: "أعتقد أنَّك تتضور جوعًا معظم الوقت في هذه المنارة، فلن تتحمل عناء الحصول على وجبةٍ لائقةٍ."

احتج الكابتن جيم: "لم تقولين هذا يا سيِّدتي، أعيش كالملوك. ذهبت اللَّيلة الماضية إلى سوق غلين واشتريتُ رطلين من شرائح اللَّحم للمنزل. كنت أخطِّط لتناول عشاءٍ جيدٍ اليوم."

سألت السيدة ديف: "وماذا حدث لشرائح اللَّحم؟ هل فقدتها في طريق العودة إلى المنزل؟"

استحى الكابتن جيم كثيرًا فقال: "لا، عندما حان وقت النوم، جاء كلبٌ مسكينٌ غريبٌ وطلب الإقامة لليلة. أعتقد أنه ينتمي إلى أحد الصَّيَّادين العاملين على الشَّواطئ الشاسعة. لم أستطع ترك ذاك المسكين، فقد كان يعاني من ألمٍ في قدمه. لذا وضعت حقيبةً قديمةً على الشُّرفة ليستلقي عليها، وذهب إلى الفراش. لكن بقي عقلي مُنشغلًا ولم أستطع النوم. وفجأة، تذكرت أنَّ الكلب بدا جائعًا."

قاطعته السيدة ديف بنبرة توبيخٍ: "لقد نهضت وأعطيته شرائح اللَّحم

جميعها، أليس كذلك!"

قال الكابتن جيم مبرِّرًا: "نعم، إذ لم يكن لديَّ طعامٌ آخرٌ لأُقدِّمه له. فكما تعلمون، إنَّ الكلاب ليست نباتيَّة، بل تُفضِّل شرائح اللَّحم. أعتقد أنه كان جائعًا، فقد التهمها بشراسةٍ. لقد نمت مُرتاح البال بقية الليل، لكن لم يتبقَّ لي سوى بطاطا هزيلةً -على حدِّ قولك- لأتناولها على العشاء. وفي صباح اليوم، عاد الكلب إلى منزله."

تذمَّرت السيدة قائلةً: "إنَّ لا قيمة لفكرة تجويع نفسكَ من أجل كلب!"

احتج الكابتن جيم قائلًا: "أنتِ لا تعلمين، لكنه قد يكون ذا قيمةٍ كبيرةٍ لشخص ما. لم يكن جميلًا أو مُلفتًا، لكن لا يمكنك إطلاق الأحكام على كلبٍ بمجرَّد إلقاء نظرةٍ عليه. يمكن وضع نفسي كمثالٍ على هذا، فالجمال الحقيقيُّ يكمن في الأعماق. لم يوافق عليه قطِّي، لكنَّني لم أهتم. لقد كانت نبرته قاسيةً حقًا، لكنَّه متحيِّزٌ ولا فائدة من أخذ رأي قطةٍ في كلبٍ. صحيحٌ أنَّني فقدت عشائي، لكن كان أمرًا ممتعًا حقًا مشاركة طعامي معه. فمن الرَّائع أن يكون لديك جيران طيبين ولطيفين."

سألت آن: "من يعيش في المنزل بين أشجار الصَّفصاف على مقربةٍ من النَّهر؟"

أجابها الكابتن جيم: "السَّيِّدة ديك مور وزوجها." ألحقه بها كما لو أنه قد نسيَه في البداية.

ابتسمت آن، وتصوَّرت بعقلها شكل السَّيدة ديك مور من خلال طريقة كلام الكابتن جيم؛ من الواضح أنها نُسخةٌ ثانيةٌ عن السَّيدة ريتشل ليند."

تابع الكابتن جيم كلامه: "ليس لديك الكثير من الجيران، سيدة بلايث. وهذا الجانب من المرفأ مُستقرٌ وآمنٌ للغاية. تعود ملكية الجزء

الأكبر من هذه الأرض إلى السَّيد هوارد الذي يعيش فوق نهر غلين، ويؤجِّرها من أجل المرعى. أمَّا الجانب الآخر من المرفأ، فهو مليء بالنَّاس/ السُّكَّان الآن، وخاصةً عائلة ماكاليستر. هناك مستعمرةٌ كاملةٌ منهم؛ لا يمكنك رمي حجرٍ، دون أن تصيبي واحدًا منهم. قبل يومين، كنت أتحدث مع العجوز ليون بلاكيير الذي يعمل في الميناء طوال الصيف وقد أخبرني أنَّ معظم سكان تلك الضِّفة هم من عائلة ماكاليستر كسيندي ماكاليستر، وديير ماكاليستر، ونيل ماكاليستر، ويليام ماكاليستر، وأليكس ماكاليستر، وأنجوس ماكاليستر، وأعتقد أيضًا دايفل ماكاليستر."

قال الطبيب ديف بعد أن هدأت الضحكة: "وكذلك عددٌ مماثلٌ من عائلة إليوت وعائلة كروفورد. أتعلم يا جيلبرت، نحن سكَّان هذا الجانب من فوروبندز لدينا قول مأثورٌ: أنقذنا يا رب من غرور عائلة إليوت، وفخر عائلة ماكليستر، ومجد عائلة كروفورد."

قال الكابتن جيم: "هناك الكثير من الأشخاص الرَّائعين بينهم. لقد أبحرت مع ويليام كروفورد لسنواتٍ عدَّة، وتبيَّن لي بأنه لا مثيل لهذا الرَّجل، فهو شجاعٌ وصبورٌ وصادق. لقد بذل سكَّان ذاك الجانب من مدينة فوروبندز قصارى جهدهم لتغذية عقولهم. ربَّما هذا هو السَّبب في أنَّ هذا الجانب يميل إلى اختيارهم. إنَّه أمرٌ غريبٌ كيف أن الناس يستاؤون من أي شخصٍ يولد بذكاءٍ يفوق ذكاءهم، أليس كذلك!"

ضحك الطبيب ديف، الذي عانى من نزاعٍ دام أربعين عامًا مع الأشخاص الذين على الجانب الآخر من المرفأ، ثمَّ صمت.

سأل جيلبرت: "من يعيش في ذلك المنزل الزُّمرديِّ اللَّامع على بعد نصف ميلٍ من الطريق؟"

ابتسم الكابتن جيم قائلًا: "إنَّها الآنسة كورنيليا براينت. من المحتمل أن تأتي لزيارتكما قريبًا، إن رأتك في الكنيسة الإنجيليَّة

المشيخية. أما إذا كنت من الطَّائفة البروتستانتية، فلن تأتي على الإطلاق. فكورنيليا لديها رعبٌ شديدٌ من الميثوديِّين."

ضحك الطبيب ديف: "إنَّها شخصيةٌ رائعةٌ، لكنَّها عنيدةٌ والأكثر كرهًا للرِّجال!"

تساءل جيلبرت ضاحكًا: "هل تحقد على الرِّجال لأنها لم تستطع الزَّواج؟"

أجاب الكابتن جيم بجديةٍ: "لا، إنها ليست من هذا النَّوع. فلو رغبت كورنيليا، لاستطاعت الزَّواج في شبابها. على الأغلب أنها ولدت بنوعٍ من الحقدِ المزمنِ والحساسيَّة المُفرطة تجاه الرِّجال والميثوديِّين. ومع ذلك، فهي تملك أطيب قلب في فوروينديز ولسانًا يقطر عسلًا. فأينما حلَّت مشكلة، تتدخَّل تلك الآنسة وتفعل ما بوسعها للمساعدة بأرقِّ طريقةٍ ممكنةٍ وإنهاء الخلاف. وعلى الرغم من أنها تحبُّ أن توجِّه لنا المضايقات السَّيئة، التي باتت جلودنا القديمة السَّميكة مُعتادةً على تحمُّلها، إلّا أنها لم تقل كلمةً قاسيةً واحدةً عن امرأة قط."

قالت الطبيبة: "بالمناسبة، إنها تتحدث عنك دائمًا بالخير يا كابتن جيم."

"نعم، وهذا ما أخشاه. لا أُحبُّ هذا تمامًا، إذ تجعلني أشعر كما لو أنَّ في نفسي عيبًا لا أراه."

***

7
زوجة مدير المدرسة



بينما

كانوا يجلسون حول المدفأة بعد العشاء، سألت آن: "من كانت العروس الأولى التي أتت إلى هذا المنزل يا كابتن جيم؟"

سأل جيلبرت: "هل كانت جزءًا من القصَّة التي سمعت أنها مرتبطةٌ ببناء هذا المنزل؟ قال لي أحدهم أنه بإمكانكَ إخباري بأحداث تلك القصَّة يا كابتن جيم."

"نعم، إنَّني على درايةٍ بتلك القصَّة. أعتقد أنني الشَّخص الوحيد، الذي ما زال على قيد الحياة في فوروينذز، القادر على أن يتذكر كيف كانت زوجة مدير المدرسة عندما أتت إلى الجزيرة. صحيحٌ أنَّها قد ماتت منذ ثلاثين عامًا، لكنها كانت واحدة من تلك النساء اللَّاتي لا تُنسى أبدًا."

فناشدته آن: "أخبرنا بالقصَّة من فضلك. أريد أن آخذ معلوماتٍ عن النِّساء اللَّواتي عشن في هذا المنزل قبلي."

"حسنًا، إنَّهنَّ ثلاث نساءٍ. إليزابيث راسل، والسيدة نيد راسل، وزوجة مدير المدرسة. كانت إليزابيث راسل صغيرةً، ولطيفةً، وذكيةً، وكانت السَّيدة نيد امرأةً لطيفةً أيضًا. لكنهما لم تكونا أبدًا

كزوجة مدير المدرسة.

عندما كنت صبيًا في السَّادسة عشرة من عمري، جاء من البلدة القديمة شخصٌ يُدعى جون سلوين للتَّدريس في مدرسة غلين. لم يكن هذا الرَّجل يشبه أولئك المُدرِّسين الذين اعتادوا القدوم في تلك الأيام إلى جزيرة الأمير إدوارد للتعليم في المدرسة. كان معظمهم من الذين علَّموا الأطفال مهارات التَّعلُّم الأساسيَّة كالقراءة والكتابة والحساب، ثمَّ انتقدوهم على نتاجهم. لكن جون سلوين كان شابًا رائعًا ووسيمًا. لقد استأجر منزل والدي، وأصبحنا أصدقاءً مقربين فيما بعد، على الرغم من أنه كان يكبرني بعشر سنواتٍ. لقد قرأنا ومشينا وتحدثنا معًا لبعض الوقت. لقد كان على اطِّلاعٍ بكلِّ الأشعار التي كُتبت على مرِّ العصور، واعتاد على تلاوتها لي أثناء المشي على طول الشاطئ في المساء. كان يعتقد والدي أنَّها مضيعةٌ للوقتِ، لكنه تغاضى عن الأمر، على أمل أن يثنيني عن فكرة الذهاب إلى البحر. لكنَّه لا يعلم أنَّ لا شيء يمكنه ذلك، إذ ولد حبُّ البحر في عروقي. لكنَّني أستمتعُ بسماع جون يتلو ويقرأ. لقد مضى على ذلك ما يقارب ستين عامًا، لكنني ما زالت قادرًا على تكرار تلك الأبيات الشِّعريَّة التي تعلمتها منه منذ ما يقرب من ستين عامًا!

صمت الكابتن جيم لبعض الوقت، محدقًا في النَّار المتوهجة بحثًا عن الماضي. ثم استأنف قصته بحسرةٍ: "أتذكر إحدى اللَّيالي الرَّبيعيَّة حين قابلته على التِّلال الرَّمليَّة. بدا مغمورًا بالسَّعادة كما كنت أنت يا طبيب بلايث عندما أحضرت زوجتك السّيدة بلايث هذه اللَّيلة. حتَّى إنّه خطر على بالي حين رأيتك. وقد أخبرني أنه ينتظر مجيء حبيبته التي ستمكث معه في منزله. في الحقيقة، لم أكن سعيدًا بسماع هذا الخبر. فقد كنتُ صغيرًا أنانيًا في ذلك الوقت، وظننت أنه لن يُعيرني اهتمامًا كما كان يفعل دائمًا قبل قدومها. لكنَّني كنت ذكيًا بما يكفي وحاولت

قُصارى جهدي عدم إظهار هذه المشاعر السَّلبيَّة له. لقد أخبرني الكثير عنها... كانت تُدعى بيرسيس لي، وقد كانت تنوي القدوم منذ فترةٍ طويلةٍ لولا مرض عمّها الكبير. كان عمّها الكبير قد اعتنى بها بعد وفاة والديها، لذا وجدت أنَّ من واجبها ردّ الجميل والبقاء معه في مرضه. وبما أنَّه توفِّي الآن، قرَّرت المجيء بنيَّة الزَّواج من السَّيِّد جون سلوين. ولتأخذ بعين الاعتبار أنَّه لم يكن من السَّهل عليها

-كامرأة- القيام بهذا والسَّفر بمفردها في تلك الأيام.

فسألتُه: "متى تتوقع قدومها؟"

ردَّ قائلًا: "لقد أبحرت على متن باخرة رويال ويليام في ٢٠ حزيران، لذا من المُتوقَّع أن تكون هنا بحلول منتصف هذا الشهر. عليَّ أن أتحدث مع كاربنتر جونسون ليبني لي منزلًا لها. وصلتني رسالتها اليوم، وعلمت على الفور- قبل فتحها حتَّى- أنَّها تحمل أخبارًا سارَّةً لي. فقد رأيتها قبل بضع ليالٍ."

"لم أفهمه. حاول شرح ما قاله مجدَّدًا، لكنَّني لم أفهم ذلك بشكل أفضل. لقد قال لي- يا سيدة بلايث- بأنَّه لم يكن يعرف ما إذا كانت إحدى جدَّاته الكُبرى لديها نعمة أو نقمة. وقد أحرقوها بتهمة السِّحر بعد إلقائها تعويذاتٍ غريبةً في أثناء فقدانها للوعي. هل هذه حقيقةٌ أم خرافةٌ يا طبيب؟"

أجاب جيلبرت: "من الممكن حدوث مثل هذه الحالات، لكنَّها متعلِّقةٌ بالشقِّ النفسيِّ أكثر من الشقِّ الطِّبيِّ. ماذا كان يحدث لجون سلوين؟"

قال الطبيب العجوز متشككًا: "كانت تأتيه على شكل أحلامٍ إذًا!"

قال الكابتن جيم: " قال إنَّه يرى العجائب في أحلامه."

لقد أخبرني أنَّه يرى الأحداث التي تحدث والأحداث التي على وشك الحدوث. قال إنَّ ما كان يراه يُشعره بالرَّاحة تارَّةً

وبالخوف تارَّةً أخرى.

قبل أربع ليالٍ من ذلك، حدثت معه بينما كان جالسًا ينظر إلى النَّار. فرأى بيرسيس لي في غرفةٍ قديمةٍ يعرفها جيدًا في إنجلترا وهي تمدُّ يديها إليه وتبدو سعيدةً للغاية."

قال الطبيب العجوز بسخريةٍ: "إنه ليس أكثر من مُجرَّد حلم."

وافقه الكابتن جيم الرَّأي: "بالطَّبع، هذا ما قلتُه له في ذلك الوقت. لم يُعجبني كيف أنه يُضخِّم الأمور ويجعل من الحبَّةِ قُبَّة، بينما هو في الواقع مجرَّد حلمٍ لا أكثر.

ردَّ قائلًا: "لا، لم يكن حلمًا. لكن أُفضِّل أن نُغلق الموضوع، وألَّا نتكلَّم عنه مرَّةً أخرى. إذ أعتقد أن التَّفكير المُطوَّل بالأمر سيجعلك تتخلَّى عن صداقتنا."

فقال له: "لا تقلق، لا شيء سيفرِّقنا."

لكنَّه هزَّ رأسه مازحًا: "لا داعي للنُّكران. لقد فقدت أصدقاء من قبل بسبب هذا الموضوع، ولا ألومهم على ذلك لأنني بالكاد أتقبل نفسي في بعض الأوقات."

"هذه كانت كلماته، أتذكرها تمامًا كما لو أنه قد أخبرني بها بالأمس. على الرغم من ذلك، لم أفهم إلى الآن ماذا كان يقصد. ماذا فهمت من هذا يا طبيب؟"

قال الطبيب ديف: "بصراحة، أشكُّ في أنه يعرف ما يعنيه هو نفسه."

كانت آن تُنصت بإمعانٍ وهي تعضُّ شفتها بعيونٍ لامعةٍ. وفجأة همست: "أعتقد أنني فهمت." ابتسم الكابتن جيم متعجِّبًا ثمَّ واصل قصَّته.

"حسنًا، وسرعان ما انتشر خبر قدوم زوجة مدير المدرسة بين سكَّان فوروينذز وغلين، وكان الجميع سعيدٌ لأجله. كما أبدوا اهتمامًا بمنزله الجديد أعني منزلكما هذا. لقد اختار هذا الموقع لكي يكون باستطاعته

التَّمتُّع بمنظر الميناء والاستماع إلى البحر. وقد صمَّم الحديقة لعروسه، لكنه لم يزرع أشجار اللّومباردي بل كان هذا عمل السيدة نيد راسل. أمّا صفَّا الورود فكانا من صُنع الفتيات الصَّغيرات، اللَّواتي ارتدن مدرسة غلين، حُبًّا بزوجة مدير المدرسة. وقد عبَّر أنها كانت ورودٌ ورديَّةٌ كخدَّيها وبيضاء كجبهتها وحمراء ككفتيها. لقد حفظ الكثير من الأشعار لدرجة أنَّه بات يتحدَّث اقتباسًا بها.

"أرسل له الجميع تقريبًا بعض الهدايا المُتواضعة للمساعدة في تأثيث المنزل. وعندما حضرت عائلة رسل إلى المنزل، أثَّثوه ورتَّبوه بأسلوبٍ جميلٍ، كما ترى. كان هذا المنزل الصَّغير مُفعمًا بالحبِّ والحيويَّة على الرغم من أنَّ الأثاث الذي وُضع فيه كان بسيطًا للغاية وغير مُزخرفٍ. أرسلت النساء الألحفة ومفارش المائدة والمناشف، وصنع رجلٌ ما صندوقًا لها، والآخر طاولة وما إلى ذلك. تعاون الجميع وساهموا في هذا البيت، فحتى العمة العجوز العمياء مارغريت بويد نسجت سلةً صغيرةً للعروس من عشب التَّل الرَّمليِّ المعطَّر. وقد استخدمتها الأخيرة لسنواتٍ عدَّةٍ للوضع مناديلها فيها.

"وفي النِّهاية، أصبح المكان جاهزًا، حتى جذوع الأشجار كانت قد وضعت في المدفأة الكبيرة للإنارة. لم تكن هذه هي المدفأة في ذلك الوقت، لكنَّها كانت مُتموْضعةً في المكان نفسه. فقد كانت مدفأةً قديمةَ الطِّراز كبيرةً لدرجة أنه بإمكانك شواء ثورٍ بأكمله عليها. أمَّا هذه المدفأة، فقد وضعتها الآنسة إليزابيث عندما سكنت المنزل منذ أكثر من خمسة عشر عامًا. لطالما جلستُ هنا ونسجتُ الخيوط، وهذا بالضّبط ما أفعله اللَّيلة."

مرَّة أخرى، ساد الصَّمت بينما كان الكابتن جيم يجري لقاءه الأوَّل مع الزَّائرين آن وجيلبرت، اللَّذان لم يتمكنا من رؤية النَّاس الذين جلسوا معه حول تلك المدفأة في السَّنوات الماضية بجوٍّ مُفعمٍ بالفرح

إلى أن أُخمدت نارها ورُمي رمادها في المقابر أو بعمق أميالٍ تحت سطح البحر. هنا، في اللَّيالي القديمة، كان الأطفال يركضون بخفةٍ ذهابًا وإيابًا وسط قهقهاتٍ متعاليةٍ. وفي أمسيات الشِّتاء، كان الأصدقاء يجتمعون للتَّسلية والرَّقص على صوت الموسيقى الصَّاخبة. هنا، كان موطنًا لأحلام الشَّباب. وبالنسبة للكابتن جيم هذا المنزل الصَّغير هو مكانٌ لاستحضار الذكريات الجميلة.

"انتهت تجهيزات المنزل في الأوَّل من شهر تمُّوز. وبدأ مدير المدرسة من بعدها في عدِّ الأيام المُتبقِّية، فقد اعتدنا أن نراه يسير على طول الشاطئ غارقًا في بحر خياله، وكنَّا نتهامس فرحين "ستكون معه قريبًا". "

"وكما أخبرتكم أنه كان من المتوقَّع وصولها في منتصف شهر تمُّوز، لكنَّها لم تصل. لم يشعر أحدٌ بالقلق، فغالبًا ما كانت السُّفن تتأخَّر لأيامٍ وأسابيع. تأخرت سفينة رويال ويليام لمدة أسبوعٍ، أسبوعين، ثلاثة.. لذا بدأنا نشعر بالخوف الشَّديد وتفاقم الأمر سوءًا يومًا بعد يوم. لم أستطع تحمّل النّظر في عيون جون سلوين..."

أخفض الكابتن جيم صوته، وأكمل كلامه: "أتعلمين يا آنسة بلايث، لقد كانت نظراته شبيهةً تمامًا لنظرات جدَّته الكبرى عندما كانوا يحرقونها حتَّى الموت. فعلى الرُّغم من أنَّه لم ينطق ببنت شِفَّة، لكن الحزن كان محتقنًا في عينيه. كان يذهب إلى دوامه للتَّدريس كشخصٍ غائبٍ عن الوعي، ثمَّ يسرع -بعد انتهاء دوامه- إلى الشاطئ حيث كان يمشي من النَّجر إلى الفجر وحيدًا. وبدأ النَّاس يقولون بأنه قد فقد صوابه. وفي منتصف شهر أيلول- أي بعد مضي ثمانية أسابيعٍ على اختفاء سفينة رويال ويليام- فقد الجميع الأمل بمجيء عروس مدير المدرسة.

وفي تلك الأيام، هبَّت عاصفة قويَّة استمرت لثلاثة أيامٍ. وفي مساء

اليوم الذي انتهت فيه تلك العاصفة، ذهبت إلى الشاطئ. فوجدت مدير المدرسة هناك، متكئًا بذراعيه على صخرة كبيرة ومحدقًا في البحر بوجهٍ شاحبٍ كالميِّت.

حاولتُ التَّحدث معه، لكنه لم يُجب. وبدا وكأنَّه يُمعن النَّظر في شيء لا أستطيعُ رؤيته.

فناديتُه كطفلٍ خائفٍ: "جون! جون! استيقظ! استيقظ!"

تلاشت تلك النَّظرة الغريبة المروعة من عينيه.

فأدار رأسه ونظر إليَّ. لم أنس وجهه قط، ولن أنساه أبدًا حتى آخر يومٍ في حياتي.

وقال لي: "كل شيء على ما يرام، يا فتى. لقد كنت أُراقب سفينة رويال ويليام وهي تمرُّ من النقطة الشرقية- مُلتقى نهر ديلاوير ومصب نهر موريس. ستصل إلى هنا عند الفجر، وسأجلسُ مع عروستي ليلة الغد بجانب مدفأة النار الخاصة بي.""

سأله الكابتن جيم فجأةً: "هل تعتقد أنه قد رآها حقًّا؟"

قال جيلبرت بهدوءٍ: "الله أعلم. إنَّ مقدار الحبِّ الكبير والألم العظيم قد يفعلا العجائب."

قالت آن بيقينٍ: "أنا متأكدةٌ من أنَّه قد رآها."

قال الطبيب ديف بقناعةٍ أقل من المعتاد: "ما هذا الهُراء!"

قال الكابتن جيم: " أتعلم بأنَّ سفينة رويال ويليام قد أتت في وضح نهار صباح اليوم التَّالي.

بقي مدير المدرسة عند الشَّاطئ طوال الليل يُراقب السَّفينة القادمة. وفي اليوم التَّالي، أتى جميع سكَّان غلين إلى الشَّاطئ واجتمعوا على طول رصيف الميناء القديم لمقابلة العروس أخيرًا. لقد كنَّا سُعداء وهي تُبحر أمامنا في القناة."

كانت عيون الكابتن جيم تتلألأ. كانوا ينظرون إلى ميناء فوروينذز

منذ ستين عامًا، ويُراقبون السفينة القديمة المحطمة تُبحر في روعة منظر شروق الشمس.

سألت آن: "وهل كانت بيرسيس لي على متنها؟"

"نعم، كانت بيرسيس لي وزوجة الكابتن معًا على متنها. لقد كانت رحلتهم شاقَّة، فقد واجهوا الكثير من العواصف ونفدت مؤنهم أيضًا. لكنَّهم نجوا بأُعجوبة، وها هم قد وصلوا أخيرًا. وما إن وطأت قدم برسيس لي على رصيف الميناء القديم، حتَّى أخذها جون سلوين بين أحضانه. وفي تلك اللَّحظة، توقف النَّاس عن الهتاف وبدأوا في البكاء. لقد بكيتُ أنا أيضًا على الرغم من مضي سنوات عدَّة على آخر مرَّة بكيتُ فيها. أليس من المضحك كيف يخجل الأولاد من الدموع؟"

سألت آن: "هل كانت بيرسيس لي جميلة؟"

قال الكابتن جيم ببطء: "حسنًا، لا أعلم إن كنتِ ستعتبرينها جميلةً أم لا. ليس أمرًا مهمًا، إذ أحبَّها الجميع على الفور بسبب لطافتها وجاذبيَّتها. كانت ذات بشرة إنجليزية نضرة، وشعرٍ بنيٍّ لامعٍ، وعيونٍ كبيرةٍ وعسليَّةٍ. وفي تلك الليلة، تزوَّج جون وبيرسيس لي في منزلنا تحت أنوار الشموع. وكان الجميع من بعيدٍ وقريبٍ يراقبونهما متأثِّرين. أشعلت السيدة سلوين النَّار، فقرَّرنا الابتعاد عنهما وتركهما جالسيْن بمفردهما كما رأى جون في تلك الرؤية. إنَّه أمرٌ عجيبٌ، عجيبٌ حقًا! لكنَّني رأيتُ الكثير من العجائب في حياتي."

هزَّ الكابتن جيم رأسه بحكمةٍ.

ثمَّ قالت آن، وهي تشعر أنها قد حصلت على ما يكفي من الرومانسيَّة: "إنها قصة مؤثِّرة، كم من الوقت عاشا هنا؟"

"عاشا هنا قُرابة الخمسة عشر عامًا.

لقد كنت كطفلٍ صغيرٍ مشاغبٍ هربَ إلى البحر بعد فترةٍ وجيزةٍ من زواجهما. وفي كل مرَّة أعود من رحلتي، أتوجَّه إلى هنا- حتى قبل أن

أعود إلى المنزل- وأخبر السيدة سلوين عن آخر الأحداث. خمسة عشر سنةً سعيدةً! كان لديهما نوع من موهبة السَّعادة التي يمتلكها بعض الناس، لو لاحظت. لقد تشاجرا مرَّةً أو مرَّتين وحسب، إذ لا يمكنهما أن يظلّا غير سعيدين لفترةٍ طويلةٍ بغضِّ النَّظر عمَّا يحدث. وذلك لأنهما كانا مفعميْن بالحيويَّة. وذات مرَّة، قالت لي السَّيدة سلوين، وهي تضحك بطريقةٍ جميلةٍ: "لقد شعرت بالفزع عندما تشاجرت أنا وجون؛ ولكن على الرُّغم من ذلك، كنت سعيدةً جدًا لأنني حظيت بزوجٍ لطيفٍ أتشاجر معه وأُصالحه." ثم انتقلا إلى مدينة شارلوت تاون، واشترى نيد راسل هذا المنزل واستقر وزوجه هنا. لقد كانا شابيْن سعيدين، كما أتذكرهم. وقد أتت الآنسة إليزابيث راسل، أخت أليكس، لتعيش معهما بعد عامٍ أو نحو ذلك. كانت إليزابيث فتاةً مرحةً أيضًا. كانت جدران هذا المنزل تقوم على الضَّحك والأوقات السعيدة. سيدة بلايث، أنتِ العروس الثالثة- التي تأتي إلى هنا- والأجمل."

حاول الكابتن جيم مجاملتها، وبدورها تلقَّت آن مدحه بفخرٍ. كانت تبدو في أفضل حالاتها تلك اللَّيلة بخدَّيْها الورديَّيْن ولمعة الحُبِّ في عينيها، حتَّى أن الطبيب ديف العجوز الخشن أعطاها نظرة موافقة. وأخبر زوجته، في أثناء توجُّههما إلى المنزل معًا، أنَّ زوجة الصَّبي ذات الشِّعر الأحمر جميلةٌ جدًا.

قال الكابتن جيم: "لقد استمتعت بهذه الأمسية، لكن حان الأوان للعودة إلى المنارة الآن."

قالت آن: "عليكَ أن تأتي كثيرًا لرؤيتنا."

علَّق الكابتن جيم بشكلٍ غريبٍ قائلًا: "أتساءل عمَّا إذا كنت ستدعيني لو علمت مدى احتمالية قبولها."

ابتسمت آن: "أتتساءل عمَّا إذا كنتُ أعني هذه الدَّعوة، بالطَّبع أعنيها

من صميم قلبي، كما اعتدنا أن نقول في المدرسة."

"حسنًا، سآتي لزيارتكما بين الحين والآخر، وبالطَّبع سأتشرَّف بزيارتكما أيضًا. فليس لدي من أتحدث إليه سوى قطّي المُؤنس. إنه مستمعٌ جيدٌ، لكنَّه قليل الكلام. أنتِ صغيرةٌ، بينما أنا كبيرٌ في السن؛ لكنني أعتقد أنَّ أرواحنا في العمر نفسه تقريبًا. فكلينا ينتمي إلى العرق الذي يعرف جوزيف- كما تقول كورنيليا براينت."

سألت آن بحيرةٍ: "ماذا تقصد بالعرق الذي يعرف جوزيف؟"

"نعم. تقسّم كورنيليا جميع الناس في العالم إلى نوعين. العرق الذي يعرف جوزيف والعرق الذي لا يعرفه. إذا كان الشخص يوافقك إلى حدٍّ كبيرٍ في الرَّأي ويتشابه معك في الفكر والذَّوق، فهو ينتمي إلى العرق الذي يعرف جوزيف."

صاحت آن: "أوه، لقد فهمت. هذا ما اعتدت أن أسميه- وما زلت أسميه -بتوائم الروح."

وافق الكابتن جيم على ذلك بقوله: "نعم نحن كذلك، مهما كانت التَّسمية. عندما أتيتِ اللَّيلة يا سيدة بلايث، قلت في نفسي "نعم، إنها من العرق الذي يعرف جوزيف" وكنت سعيدًا للغاية. فلو لم يكن الأمر كذلك، ما كنَّا ارتحنا لبعضنا بعضًا إلى هذه الدَّرجة. وأعتقد أن الأشخاص الذين ينتمون إلى العرق الذي يعرف جوزيف هم أشخاص طيِّبون وصادقون للغاية."

عندما ذهبت آن وجيلبرت لتوديع ضيوفهما عند الباب، كان القمر قد أشرق للتوِّ وبدأ ميناء فوروينذز- الملاذ السَّاحر- بإظهار مفاتنه. كانت أشجار اللّومباردي أسفل الممر، طويلة القامة وداكنة اللَّون كلباس فرقة ميستيك الممزوجة بالفضَّة.

قال الكابتن جيم وهو يلوح لهم بذراعه الطَّويلة: "لطالما أحببت أشجار اللّومباردي، إنها أشجار الأميرات، لقد عفا عليها الزمن الآن.

إذ يشتكي الناس من أنها تموت في القمة وتصبح سيِّئة المظهر. إنها بالفعل كذلك، وعليك المخاطرة برقبتك كل ربيع لتسلُّق سلمٍ خفيفٍ وقصِّها. ولطالما فعلت ذلك من أجل الآنسة إليزابيث، لذلك لم تذبل أشجارها ولم تتذمَّر منها. كانت مغرمةٌ بها وتحبُ طلَّتها واستقامتها. كما أنَّها تفيد المجتمع من خلال إنتاج القيقب."

قالت السيدة ديف، بينما كانت تركب سيارة الطبيب: "يا لها من ليلة جميلة."

قال الكابتن جيم: "إنَّ معظم اللَّيالي جميلة، لكنَّ يراودني تساؤلٌ غريبٌ أمام هذا المنظر: إن كان ضوء القمر يُشعُّ فوق مدينة فور ويندز بهذا الجمال، فكيف هو الحال في الجنَّة؟ إنَّ القمر صديقٌ عظيمٌ لي يا سيِّدة بلايث، لقد أحببته منذ نعومة أظافري.

عندما كنت في الثَّامنة من عمري، نمت في الحديقة ذات مساء تحت ضوء القمر. وعندما استيقظت في اللَّيل، كنت أرتجف خوفًا، متسائلًا ما كل هذه الظلال والضوضاء الغريبة التي كانت! لم أُحرِّكْ ساكنًا، ولم يكن أحدًا في العالم هناك سوى نفسي. ثم رأيت القمر- كصديقٍ قديمٍ- ينظر إليَّ من خلال أغصان أشجار التُّفاح. فشعرت بالارتياح على الفور، ونهضت وسِرتُ إلى المنزل بشجاعةٍ كالأسد، ناظرًا إليه. كثيرةٌ هي اللَّيالي التي رأيته فيها من على ظهر سفينتي، في البحار بعيدًا من هنا. لماذا لا تطلبوا مني أن أكفّ عن الكلام والعودة إلى المنزل؟"

تلاشت ضحكات هذه اللَّيلة السَّعيدة، وسارت آن وجيلبرت يدًا بيدٍ حول حديقتهما حيث كان الجدول في الزَّاوية يتدفَّق تحت ظلال أشجار البتولا. وكانت أزهار الخشخاش على طول ضفافه كأكوابٍ من ضوء القمر. وكانت الأزهار التي زرعتها يدا عروس مدير المدرسة تنثر حلاوتها في الهواء، كما كانت تفعل دائمًا. توقفت آن في الظلام

لتجمع باقةً من الأزهار.

ثمَّ قالت: "أحبُّ أن أشمَّ رائحةَ الأزهار في الظَّلام، يمكنني الشُّعور بها بشكلٍ أفضل. آهٍ يا جيلبرت، هذا المنزل الصغير هو كلّ ما حلمتُ به. وأنا مسرورةٌ لأنَّنا لسنا أول زوجين يبدءا حياتهما الزَّوجيَّة هنا!"

***

8
زيارة الآنسة كورنيليا براينت



كان شهر أيلول شهرًا خيَّم فيه الضَّباب الأرجوانيُّ على ميناء فوروينذز؛ كان شهرًا مليئًا باللَّيالي المُرصَّعة بالنجوم والمُنيرة بضوء القمر، والأيام المشمسة التي لم تشوِّهها عاصفةٌ ولم تهب فيها رياحٌ عاتية. أنشأت آن وجيلبرت منزل أحلامهما، تجولا على الشواطئ، أبحرا في المرفأ، تنزَّها في مدينتي فور ويندز وغلين وفي الطُّرق السَّرخسية المعزولة المؤدِّية للغابات الواقعة فوق المرفأ؛ باختصار، لقد قضيا شهر عسلٍ يُحسدان عليه.

قالت آن: "لو كانت الحياة ستتوقَّف عند فترةٍ قصيرةٍ الآن، لاخترت الأسابيع الأربعة الماضية. فقد كانت من أجمل أيام حياتنا، أليس كذلك؟ لا أعتقد بأننا سنحظى مجدَّدًا بأربعة أسابيع كالتي قضيناها، لكن الأهم هو أننا لم نفوِّتها. لقد تآمر كلٌّ من الرياح، والطقس، والناس، ومنزلنا لجعل شهر العسل خاصَّتنا ممتعًا. ألم تُلاحظ أننا لم نشهد يومًا ممطرًا منذ أن أتينا إلى هنا."

قال جيلبرت مازحًا: "ولم نتشاجر البتَّة."

فردَّت آن: "حسنًا، هذا من دواعي سروري أن يتم تأجيل الأمر

حاليًا. أنا سعيدةٌ حقًا لأنَّنا قرَّرنا قضاء شهر العسل هنا. ستبقى ذكريات هذا الشهر المُميَّز دائمًا هنا، في منزل أحلامنا، بدلًا من أن تتناثر في أماكن غريبةٍ."

خيَّم جوٌّ من الرومانسية والمغامرة في منزلهما الجديد لم يسبق لآن أن شعرت به في آفونلي. هناك، على الرغم من أنها عاشت على مرأى من البحر، إلا أنها لم تُعره أهميةً. أمَّا هنا، في فوروينذ، فيحيطها البحر من كلِ صوبٍ ويناديها باستمرار. فمن كلِّ نافذةٍ في منزلها الجديد، ترى بعض الجوانب المختلفة منه ويلاحق هديره مسمعها.

يسافر البحَّارة والصيادون بابتهاج عبر طرق المرفأ الحمراء المتعرِّجة. إذ تُبحر السفن عبر المرفأ كل يوم إلى رصيف الميناء في غلين، أو تُبحر مرة أخرى عند غروب الشمس متجهةً إلى الموانئ التي قد تكون في منتصف الطريق حول الكرة الأرضية. أمَّا قوارب الصيد بيضاء الأجنحة فتنطلق أسفل القناة في الصباح وتعود محمَّلةً في المساء.

كان شعور الإثارة بالمغامرات والرحلات يرافقها دائمًا، فطرق فور ويندز أقل رزانةً واستقرارًا من طرق آفونلي. كانت الرِّياح تهبُّ عليهم من كلِّ صوبٍ. وكان البحر ينادي الساكنين على الشاطئ على الدَّوام، وحتى أولئك الذين لا يستجيبون لندائه شعروا بالإثارة والغموض.

قالت آن: "بدأت أفهم الآن لماذا يضطَّر البعض منا إلى الذهاب إلى البحر. تلك الرغبة التي تأتينا جميعًا للإبحار إلى ما بعد غروب الشمس قد ولدت فينا. لقد استنتجت الآن أنَّ الكابتن جيم قد فرَّ إلى البحار بسببها. إذ لم أر قط سفينةً تُبحر في القناة، إلا وقد تمنَّيتُ أن أكون على متنها. ولم أر قط نورسًا يحلِّق فوق الشاطئ الذهبي، إلا وقد تمنَّيت أن أحظى بأجنحةٍ ليس كأجنحة الحمامة التي تطير بعيدًا براحةٍ، ولكن مثل النورس لأكتسح قلب العاصفة."

قال جيلبرت بتكاسلٍ: "ستبقين هنا معي يا فتاة. ولن أسمح لكِ بالابتعاد واكتساح تلك العواصف."

كانا جالسين على عتبة بابهم الحمراء في وقتٍ متأخرٍ من بعد الظهر. كانت السَّكينة تحاوطهما من البرِّ والبحر والسَّماء. وكانت النَّوارس الفضِّيَّة تحلِّق فوقهما في الآفاق حيث الغيوم الهشَّة الورديَّة وسط هواءٍ يهبُّ بين الرِّياح العاتية والأمواج الصَّاخبة. وكانت أزهار النُّجوم الشَّاحبة تتأرجح في المروج الصَّخريَّة الضَّبابية.

قالت آن بتساهلٍ: "أعتقد بأنَّ الأطباء الذين يتعين عليهم الاستيقاظ طوال اللَّيل في انتظار المرضى لا يشعرون بالمغامرة. إذا حظيتَ بنومٍ هانئ اللَّيلة الماضية، فستكون- مثلي- على أتمِّ الاستعداد لرحلةٍ خياليَّةٍ."

قال جيلبرت بهدوءٍ: "لقد قمت بعملٍ جيدٍ اللَّيلة الماضية يا آن. فبعون الله، أنقذت حياة إنسانٍ. هذه هي المرة الأولى التي يمكنني أن أجزم ذلك. ففي الحالات الأخرى، ربما أكون قد ساعدت؛ لكن لو لم أبق في مدينة ألونبي الليلة الماضية وحاربت الموت بيدي، لكانت هذه المرأة قد ماتت قبل طلوع الفجر. لقد قمت بتجربةٍ لم يقم بها أحدٌ قبلي في فوروينذر. وأشك إن تمَّ تجربتها في أي مكان من قبل خارج المستشفى. لقد كانت تجربةً جديدةً في مستشفى كينغزبورت الشتاء الماضي. لم أكن أتجرَّأ على تجربتها هنا، لو لم أكن متأكدًا تمامًا من عدم وجود خيارٍ أخر. خاطرتُ بالأمر، ونجحتُ. ونتيجة لذلك، أُتيحت الفرصة لزوجةٍ وأمٍ صالحةٍ للعيش بسعادةٍ وهناءٍ لسنواتٍ أطول. وفي أثناء عودتي إلى المنزل هذا الصباح، بينما كانت الشمس تشرق فوق المرفأ، شكرت الله على أنني اخترت المهنة التي أمارسها. لقد خضت معركةً قاسيةً وفزتُ بها يا آن، لقد فزت ضد هذا المدمِّر العظيم. هذا ما حلمت بفعله، وقد أخبرتكِ عنه منذ فترةٍ طويلةٍ عندما

تحدثنا معًا عما نريد أن ننجز في مسيرة الحياة. لقد تحقَّق حلمي هذا الصباح."

سألت آن: "هل كان هذا هو الحلم الوحيد الذي تحقق من بين أحلامك؟" كانت تعرف جيدًا ما سيكون جوهر إجابته، لكنَّها أرادت سماعها مجددًا.

قال جيلبرت وهو يبتسم في عينيها: "أنتِ تعرفين يا فتاة." كانا في تلك اللَّحظة، سعيدين تمامًا وهما يجلسان معًا على عتبة منزل أحلامهما الأبيض الصَّغير مقابل شاطئ ميناء فوروينِدز.

قال جيلبرت مع تغييرٍ واضحٍ في نبرته: "هل أرى فعلًا سفينةً كاملة التَّجهيز تُبحر في ممر الميناء أمامنا؟"

نظرت آن بتمعُّنٍ، ثمَّ قفزت من مكانها قائلةً: "قد تكون هذه الآنسة كورنيليا براينت أو السَّيِّدة مور قادمةً لتلبية دعوتنا."

قال جيلبرت: "سأذهب إلى المكتب، وسأتنصَّت إلى المحادثة. فبحسب ما سمعته عن الآنسة كورنيليا، استنتجت أن محادثتها ليست مملَّة. وإذا كانت الآنسة كورنيليا، سأُعطيك البشارة عند الإشارة."

"قد تكون السَّيدة مور."

"لا أعتقد أنها السَّيدة مور. فقد رأيتها تعمل في حديقتها في ذلك اليوم. وعلى الرُّغم من أنني كنت بعيدًا جدًا ولم تكن الرُّؤية واضحة، اعتقدت أنها كانت نحيلةً نوعًا ما. بالإضافة إلى أنها ليست اجتماعيةً جدًا، فهي لم تتَّصل بكِ أبدًا على الرُّغم من أنها أقرب جيرانك."

قالت آن: "لا يمكن أن تكون مثل السيدة ليند، أو كان الفضول سيجلبها. على ما أعتقد أن هذه القادمة هي الآنسة كورنيليا."

كانت بالفعل الآنسة كورنيليا. علاوةً على ذلك، لم تأت الآنسة كورنيليا لزيارتهما وحسب، بل كانت تحمل عملها بين ذراعيها في طردٍ كبيرٍ.

وعندما طلبت منها آن البقاء، خلعت قبعة الشَّمس الواسعة التي كانت مثبَّتةً بإحكامٍ على رأسها- على الرُّغم من نسمات أيلول- بواسطة شريطٍ مطاطيٍّ ضيقٍ تحت ذيل شعرها الفاتح. قبَّعة الآنسة كورنيليا جميلة على الرُّغم من أنَّها لا تستعمل دبابيس للزِّينة! كانت الأربطة المرنة جيدة ومناسبة لها ولأمها.

كان ووجهها مستديرًا، أبيضًا ورديًّا، وعيناها بنيَّتين لامعتين. لم تكن تبدو كالمرأة التَّقليدية، بل على العكس، جذب مظهرها آن على الفور. فمن خلال سرعتها الفطرية في تمييز الأرواح الطَّيِّبة عرفت بأنها ستحبُّ الآنسة كورنيليا، على الرغم من غرابة تفكيرها وملابسها.

لا أحد غير الآنسة كورنيليا كان ليأتي بمئزرٍ مخطَّطٍ باللَّونين الأزرق والأبيض، برسمة شوكولاتة وورودٍ ورديَّةٍ ضخمة. ولم يكن هذا المئزر ليناسب أو يليق سوى الآنسة كورنيليا. فلو دخلت الآنسة كورنيليا القصر لاستدعاء عروس الأمير، ستكون سيِّدة الموقف بوقارها ورزانتها. كانت ستعتمد زيًا مليئًا بالورود وتمشي فوق الأرضيات الرخامية بثقةٍ- غير مباليةٍ، وكانت ستواصل بهدوءٍ تفريغ ذهن الأميرة من فكرة أن امتلاك رجلٍ- سواء كان أميرًا أو فلاحًا- أمرٌ يُفتخر به.

قالت وهي تفتح بعض الأغراض اللَّطيفة: "لقد أحضرتُ عملي يا سيِّدتي العزيزة. أنا في عجلةٍ من أمري لإنجازه، وليس لديَّ وقت لأضيّعه."

نظرت آن باستغرابٍ إلى الثَّوب الأبيض الموضوع على حضن الآنسة كورنيليا. وكان بالتَّأكيد فستانًا للأطفال مصنوعًا بحبٍّ مع زخرفةٍ وثنياتٍ صغيرة. عدَّلت الآنسة كورنيليا نظارتها وبدأت في التَّطريز بغرزاتٍ رائعة.

قالت: "هذا من أجل زوجة فريد بروكتور التي تعيش في غلين. إنها في انتظار طفلها الثامن الذي اقترب موعد ولادته، وليس لديها ما

يناسبه. لقد استنفد السبعة الآخرون كل ما صنعته للطِّفل الأوَّل، ولم يعُد لديها الوقت والقوة والجَلَد لحياكة المزيد. لقد انتهت تلك المرأة، صدقيني يا سيدة بلايث. عندما تزوجت من فريد بروكتور، علمتُ كيف سينتهي بها المطاف. لقد كان أحد الرجال الأشرار الرائعين. وبعد أن تزوَّج، توقف عن كونه رائعًا واستمر في كونه شريرًا فقط. يشرب ويهمل عائلته، أهذا رجل؟ لا أعرف كيف سيكون الوضع لو لم يساعد الجيران السيدة بروكتور لإكساء أطفالها بملابس لائقةً."

وعلمت آن حينها أن الآنسة كورنيليا هي الجارة الوحيدة التي أتعبت نفسها كثيرًا من أجل أطفال السيدة بروكتور.

تابعت الآنسة كورنيليا: "لذا فعندما سمعت أن هذا الطفل الثامن قادم، قررت أن أصنع له بعض الألبسة. هذه هي القطعة الأخيرة وأريدُ أن أنهيها اليوم."

قالت آن: "إنها بالتأكيد جميلةٌ جدًا. سأحضر ماكينة الخياطة الخاصة بي، وسنتعاون ونخيط معًا. أنت خيَّاطةٌ بارعةٌ يا آنسة برااينت."

قالت الآنسة كورنيليا بثقةٍ: "نعم، أنا الأفضل في هذه الأنحاء، ويجب أن أكون كذلك! يا إلهي، لقد قمت بالخياطة أكثر مما لو كان لديَّ مئة طفلٍ، أتصدِّقين! أنا حمقاء لأطرِّز هذا الفستان يدويًا من أجل طفلٍ ثامنٍ، لكن ما ذنب هذا الطِّفل! تمنيت من قلبي أن تحظى بفستان جميل حقيقي تمامًا كما لو أنها أرادت ذلك. لم أُرد أن يبدو الفستان بالٍ أو فقيرٍ، لذا أزيد من التَّفاصيل الصغيرة هنا وهناك لتجميله."

قالت آن، وهي ما تزال تشعر بأنها ستحب الآنسة كورنيليا أكثر: "ستفخر بهذا الفستان أي طفلةٍ قد ترتديه."

استأنفت الآنسة كورنيليا: "أعتقد أنك كنت تفكرين في أنني لن أحضر. لكن هذا هو شهر الحصاد، كما تعلمين، وقد كنت مشغولةً جدًا بالإضافة إلى الكثير من المهام المترتبة عليَّ بسبب أنَّ العاملات لديَّ

تأكلن أكثر ممَّا تعملن كالرجال تمامًا. كنت سأحضر بالأمس، لكنني ذهبت إلى جنازة السيدة رودريك ماكاليستر. في البداية، كان رأسي يؤلمني بشدةٍ لدرجة أنني فكَّرت في عدم الذَّهاب لأنني لن أستطيع التَّحمل. إلا أنها قد بلغت من العمر مئة، وكنت قد وعدت نفسي دائمًا بالذهاب إلى جنازتها."

سألت آن، وقد لاحظت أن باب المكتب كان مفتوحًا: "وكيف كانت الجنازة؟"

"يا إلهي، لقد كانت جنازةً هائلة. فقد كان لديها الكثير من المعارف، وقد حضر قرابة المئة وعشرون عربةً في الموكب. لكن حدث موقفٌ أو موقفين، كدت أموت فيهما من الضحك. لقد رأيت العجوز جو برادشاو، وهو رجلٌ كافرٌ لم تطأ قدماه الكنيسة قط، يغني بحماسةٍ كبيرةٍ "آمن في أحضان يسوع". إنه يحبُّ الغناء، ولهذا السبب لم يفوت جنازةً قط. مسكينةٌ هي السَّيدة برادشاو، لا يبدو عليها أنها تحبُّ الغناء وقد انتهى بها الأمر عبدةً. بدأ العجوز جو- بين الحين والآخر- في شراء الهدايا لها، وإحضار نوعٍ جديدٍ من الآلات الزراعية إلى المنزل. أهذا رجل؟ ولكن ماذا تتوقعين من رجلٍ لا يذهب حتَّى إلى الكنيسة الميثودية؟ لقد سُعدتُ حقًا لرؤيتك أنتِ والطبيب الشاب في الكنيسة المشيخية في أول يوم أحد لك هنا. أعتقد أنَّ جميع الأطباء يذهبون إلى الكنيسة المشيخية."

قالت آن بطريقةٍ شرِّيرةٍ: " كنَّا في الكنيسة الميثودية مساء الأحد الماضي."

"نعم، اعتقدت أن على الطبيب بلايث الذهاب إلى الكنيسة الميثودية من حين لآخر من أجل الممارسة الميثودية."

صرَّحت آن بجرأةٍ: "لقد أحببنا القدَّاس كثيرًا، وقد كانت صلاة الكاهن الميثودي من أجمل ما سمعتُ على الإطلاق."

"حسنًا، لا شك في أنه قادرٌ على الصَّلاة. لم أسمع قط أجمل من صلاة العجوز سيمون بنتلي، الذي كان دائمًا في حالة سكرٍ، أو كان يأمل في أن يكون. وكان كلَّما شرب أكثر، كلَّما ازدادت صلاته جمالًا."

قالت آن من أجل غايةٍ في نفسها: "يبدو الكاهن الميثودي رائعًا للغاية."

ردَّت الآنسة كورنيليا بموافقةٍ: "نعم، إنه مهذبٌ ويهتمُّ بمظهره الخارجيِّ كثيرًا. يظنُّ نفسه قاهر قلوب العذارى وأنَّ كل فتاة تنظر إليه تقع في حبِّه فورًا وكأنه كنزٌ ثمينٌ! لو تأخذين أنت والطبيب الشاب بنصيحتي، فلن يكون لديكما الكثير لتفعلانه مع الميثوديين. شعاري هو، إذا كنت من الكنيسة المشيخية، كن مشيخيًا بجدٍ."

سألت آن: "ألا تعتقدين أن الميثوديين سيذهبون إلى الجنَّة كالمشيخيين؟"

قالت الآنسة كورنيليا بجدِّيَّة: "ليس نحن من يقرِّر هذا، إنّ الله يفعل ما يشاء. لكنَّني لن أشاركهم على الأرض في كل ما قد أفعله في الجنة. هذا الكاهن الميثودي متزوج من أذكى وأقوى النساء التي قابلتها في حياتي. سألته ذات مرة: ألم يكن عليك أن تنتظر حتى تكبر قبل أن تتزوجها. فقال إنه يريد تدريبها كما يحلو له. أهذا رجل؟"

ضحكت آن قائلةً: "لكن من الصَّعب تحديد متى يكبر الناس."

"إنك مُحقَّة يا عزيزتي. يكبر البعض عندما يولد، والبعض الآخر لا يكبر حتى بعدما يبلغ الثمانين عامًا، صدِّقيني. ينطبق الأمر على السَّيدة رودريك، التي كنت أتحدث عنها، فهي لم تكبر قط. لقد كانت تافهةً في سنِّ المئة كما كانت في العاشرة تمامًا."

فقالت آن: "ربما لهذا السَّبب عاشت طويلًا."

"لكنَّني أُفضِّل أن أعيش خمسين عامًا بعقلانيةٍ على أن أعيش مئة عامٍ بتفاهة."

التمست آن عذرًا قائلةً: "لكن ألم تفكِّري في أنَّ العالم سيُصبح مُملًّا جدًا لو كان الجميع عاقلًا."

لم تُرد الآنسة كورنيليا افتعال أي مناوشةٍ بخصوص هذا الموضوع التَّافه.

"كانت السيدة رودريك من عائلة ميلغريف، ولم يكن لعائلة ميلغريف أي أهميَّةٍ تُذكر. لقد ظل ابن أخيها، إبينيزر ميلغريف، مجنونًا لسنواتٍ. إذ كان يعتقد أنه مات، واعتاد الغضب على زوجته لأنها لن تدفنه. لو كنت مكانها، لفعلتها!"

كانت آن تنظر إلى الآنسة كورنيليا عاقدةً عزمها وبيدها شفرة حادَّة...

"ألا تعرفين أيُّ زوجٍ صالحٍ يا آنسة براينت؟"

قالت الآنسة كورنيليا وهي تلوِّح بيدها عبر النافذة المفتوحة باتجاه المقبرة الصغيرة للكنيسة بالقرب من المرفأ: "أوه، نعم، كان هناك الكثير منهم."

واصلت آن: "وماذا عن الأحياء؟"

اعترفت الآنسة كورنيليا: "أوه، بالطبع، لكنَّهم أقليَّة. لا شيء يصعب على الله، وهو قادر على كل شيء. فأنا لا أنكر أنه إن ضُبط الرجل ودُرِّب وتلقى تربيةً صالحةً وصُفع كثيرًا، قد يتحوَّل إلى كائنٍ لائق. بحسب ما سمعتُ، إن زوجك ليس سيئًا للغاية كباقي الرِّجال في هذا الزَّمان."

نظرت الآنسة كورنيليا بحدةٍ إلى آن من فوق نظارتها وأكملت: "وأعتقد أنه لا يوجد أحد مثله في العالم."

قالت آن على الفور: "بالتَّأكيد لا مثيل له."

تنهَّدت الآنسة كورنيليا: "لقد سمعتُ عروسًا أخرى تقول الكلام نفسه ذات مرة. فقد اعتقدت جيني دين، عندما تزوجت، أنه لا شخص

كزوجها في العالم كلّه. وكانت على حق، لم يكن أحدٌ مثله! لقد جعلها تعيش حياة تعيسةً ومروِّعة، وكان يغازل زوجته الثانية بينما كانت جيني تحتضر.

"أهذا رجل؟ ومع ذلك، آمل أن تكون ثقتك في مكانها يا عزيزتي. يبدو الطَّبيب الشاب جيدًا ولبقًا. كنت خائفةً في البداية من أن يكون عكس ذلك، لأن السكَّان هنا كانوا دائمًا ما يعتقدون أن الطبيب العجوز ديف هو الطبيب الوحيد في هذا العالم. لم يكن لدى ذاك الطَّبيب الكثير من اللَّباقة، فقد كان يتحدَّث دائمًا عن الأشخاص الذين لقوا حتفهم شنقًا بحبالٍ في المنازل. وكان يضطرُّ الناس إلى تناسي مشاعرهم المُتأذِّية بمجرَّد أن يشعروا بألمٍ في بطونهم. لو كان كاهنًا بدلًا من طبيبٍ، لما غفروا له أبدًا. بالنِّسبة إلى أولئك الأشخاص، إنَّ آلام المعدة أشدُّ من آلام الروح. ونظرًا لأننا من الطَّائفة المشيخية وليس هناك أناس من الطَّائفة الميثودية بيننا، هل ستخبريني رأيك الصَّريح بكاهننا؟"

ترددت آن: "ل لكن لماذا" هممم حسنًا."

أومأت الآنسة كورنيليا برأسها، ثم قالت: "بالضبط، أنا أتفق معك يا عزيزتي. لقد ارتكبنا خطأ عندما ناديناه هكذا. يشبه وجهه إحدى تلك الحجارة الطويلة الموجودة في المقبرة، لذا يجب أن تكتب عبارة "مقدَّس للذاكرة" على جبهته. أليس كذلك؟ لن أنسى أبدًا الخطبة الأولى التي وعظ بها عند مجيئه. كانت تتمحور حول موضوع أن على كل شخص القيام بما هو أكثر ملاءمةً له. صحيحٌ أنَّه موضوعٌ جيدٌ جدًا، لكنه استخدم تعابير توضيحية سيِّئة للغاية! إذ قال "إذا كان لديك بقرة وشجرة تفاح. وربطت شجرة التفاح في إسطبلك وغرست البقرة- ورجلاها مرفوعتان- في بستانك، فما مقدار الحليب الذي ستحصل عليه من شجرة التفاح أو كم رطل تفاح ستُنتجه البقرة؟" هل سمعت

بمثل هذا منذ ولادتك يا عزيزتي؟ لا أعتقد، وأنا ممتنَّةٌ جدًا أنه لم يكن هناك أناسٌ من الطَّائفة الميثودية لتقول مثل هذه التعابير في ذلك اليوم. لكن أكثر عادةٍ أكرهها فيه هو موافقته للجميع، بغض النَّظر عمَّا يُقال. فإذا قلتِ له "أنتَ وغدٌ"، سيقول بابتسامته الهادئة "نعم، هذا صحيح". لكن يجب على الكاهن أن يكون أكثر قوَّةً ووقارًا. باختصار، أنا أعتبره حمارًا مبجلًا. لكن ليَبقى هذا الكلام بيني وبينك. ففي الحقيقةِ، أمدحه كثيرًا بحضور الأشخاص المنتميين إلى الطَّائفة الميثودية. يعتقد بعض الناس أن زوجته ترتدي ملابس شاذة للغاية، لكنَّني أرى أنَّها ترتدي هذه الملابس لتحسين مزاجها" فليس من السَّهل العيش مع وجه الصخر ذاك. لن تسمعيني أبدًا أدين امرأة بسبب فستانها، أنا مُمتنة فقط لأنَّ زوجها لا يسمح بذلك. وهذا لا يعني أنني أنزعج. إذ تلبس النساء وتتزيَّن فقط لإرضاء الرجال، ولن أنحدر إلى هذا المستوى أبدًا. لقد عشت حياة هادئة ومريحة يا عزيزتي، وهذا فقط لأنني لم أهتم قط بما كان يقوله الرجال."

"لماذا تكرهين الرجال هكذا يا آنسة براينت؟"

"يا إلهي، أنا لا أكرههم يا عزيزي، إنهم لا يستحقون ذلك. أنا فقط أحتقرهم نوعًا ما. أعتقد أنني سأحبُّ زوجك إذا بقي على ما هو عليه حاليًا. لكن، بصرف النظر عنه، إنَّ الرجلان الوحيدان اللذان أحترمهما في العالم هما الطبيب العجوز والكابتن جيم."

وافقت آن بوديةٍ: "إنَّ الكابتن جيم- بلا شك- رجلٌ رائعٌ."

"صحيحٌ أنَّ الكابتن جيم هو رجلٌ طيبٌ، لكنه مُزعجٌ نوعًا ما. إذ لا يمكنك أن تُغضبيه. لقد حاولت أن أغضبه على مدار عشرين عامًا، لكنه في كل مرّة يبقى هادئًا. إنه يُثير غضبي، وأنا أفترض أن المرأة التي كان من المُفترض أن يتزوجها، تزوجت برجلٍ يعاني من نوبات غضب مرتين في اليوم."

"من كانت هذه المرأة؟"

"أوه، لا أعرف يا عزيزتي. لم يسبق لي أن رأيت الكابتن جيم يتودَّد لأحد. إنه يتقدم في السن بقدر تراجع ذاكرتي إلى الوراء. كما تعلمين، إنه في السادسة والسبعين من عمره ولا سبب منطقي لبقائه أعزبًا. لذا لابد أنه قد أحبَّ واحدةً، صدقيني. لقد أبحر طوال حياته حتى الخمس سنوات الماضية، وقد حشر أنفه في كلِّ زاوية على هذه الأرض. كان هو وإليزابيث راسل صديقين رائعين طوال حياتهما، لكنهما لم يتذوَّقا حلاوة الحبِّ. فلم تتزوج إليزابيث على الرُّغم من تقدُّم الكثير من الرِّجال لطلب يدها.

وفي العام الذي جاء فيه أمير دولة ويلز إلى الجزيرة، كانت إليزابيث في زيارةٍ عند بيت عمها في مدينة شارلوت تاون. وبما أنَّ عمَّها كان مسؤولًا حكوميًا، تمَّت دعوتها لحضور حفلةٍ ضخمةٍ. كانت فاتنة الجمال في صباها، لا بل كانت أجمل الفتيات هناك. فقرَّر الأمير أن يرقص معها. غضبت الأُخرياتُ لأن الأمير قد تخطَّاهنَّ ولم يرقص معهنَّ على الرُّغم من أنَّ مكانتهنَّ الاجتماعية أسمى من مكانتها. لطالما كانت إليزابيث فخورةً جدًا بتلك الرَّقصة. وكثُرت الأقاويل حول أنها لم تعُد ترغب برجلٍ عاديٍّ بعد أن رقصت مع أميرٍ، ولهذا السبب لم تتزوج.

إلَّا أنَّ هذا لم يكن السَّبب الفعليّ. فقد اعترفت لي ذات مرَّةٍ أن السَّبب الحقيقيَّ هو مزاجها. إذ كانت تعاني من مزاجٍ فظيعٍ لدرجة أنها كانت تضطرُّ إلى الصعود إلى الطابق العلويِّ وقضم قطعٍ من مكتبها لتهدئة أعصابها. ولهذا السبب، كانت تخشى أنها لن تستطيع العيش بسلامٍ مع أيِّ رجلٍ. لكنني أخبرتها أن هذا ليس سببًا منطقيًّا لعدم الزواج إذا أرادت ذلك. لا يوجد سببٌ يجعلنا نسمح للرجال باحتكار مزاجنا، أليس كذلك يا عزيزتي السيدة بلايث؟"

تنهَّدت آن قائلةً: "في الحقيقة، إنَّ مزاجي سيِّءٌ قليلًا."

"صدقيني، من الجيِّد أنك هكذا يا عزيزتي. فلن تكوني ضعيفةً، وبالتَّالي لن يتجرَّأ أحدٌ على أن يدوسك. إنَّ هذا التَّوهُّج الذَّهبيَّ سيُشرقُ بداخلك! تبدو حديقتك جميلةً، لقد اعتنت بها المسكينة إليزابيث كثيرًا."

قالت آن: "نعم، لقد أحببتها حقًا وأحببت هذه الزُّهور القديمة. وبالحديث عن البستنة، نريد رجلًا يحفر هذه المساحة الصَّغيرة خارج بستان أشجار التنوب ويزرعها بنباتات الفراولة. فجيلبرت مشغولٌ جدًا ولن يتسنى له الوقت للزِّراعة هذا الخريف. هل تعرفين شخصًا ما يمكنه القيام بهذا العمل؟"

"هنري هاموند، من مدينة غلين، يقوم بأعمال من هذا القبيل. ربما يمكنه فعلها. إنه دائمًا ما يهتم بأجره أكثر من عمله، تمامًا كباقي الرجال. وهو بطيء الاستيعاب جدًا لدرجة أنه يقف ساكنًا لمدة خمس دقائق قبل أن يخطر بباله أنه قد توقف، فقد ألقى والده جذع شجرةٍ على رأسه عندما كان صغيرًا. أهذا رجل! لا أعرف كيف أمكنه فعلها. وبالطبع، لم يستطع هذا الصّبي المسكين تخطّي هذه الحادثة. إلا أنه الوحيد الذي يمكنني أن أوصي به. فقد قام بطلاء بيتي الرَّبيع الماضي، ألا يبدو جميلًا؟"

أنقذ رنين الجرس عند الساعة الخامسة آن.

فصاحت الآنسة كورنيليا: "يا إلهي، لقد تأخَّر الوقت. كيف يمر الوقت بهذه السُّرعة عندما تكون مُستمتعًا بوقتك! حسنًا، لا بدَّ لي من العودة إلى المنزل."

قالت آن بلهفةٍ: "لا، بل ستبقين لاحتساء الشاي معنا."

ردَّت الآنسة كورنيليا: "هل تدعيني لأنك تعتقدين أنه من واجب الضِّيافة، أم لأنك تريدين ذلك حقًا؟"

"لأنني أريد ذلك حقًا."

"حسنًا، سأبقى. فأنتِ تنتمين إلى العرق الذي يعرف جوزيف."

قالت آن بابتسامةٍ عريضةٍ: "أعتقد أننا سنصبح صديقتين."

قالت الآنسة كورنيليا بنبرةٍ حزينةٍ: "نعم، نحن كذلك يا عزيزتي. شكرًا لله لأننا يمكننا اختيار أصدقائنا بأنفسنا، على عكس أقاربنا اللذين علينا تقبُّلهم كما هم وحمدًا لله إن لم يكونوا سيِّئين. بالمناسبة، ليس لديَّ أبناء عم كُثُر، إنني روحٌ وحيدةٌ يا سيِّدة بلايث."

صاحت آن باندفاعٍ: "أتمنى أن تناديني بـ "آن"، سيكون مُريحًا ولطيفًا أكثر. فالجميع هنا في فورويندز- باستثناء زوجي- ينادونني بالسيدة بلايث، وهذا يجعلني أشعر بأنَّني غريبة. أتعلمين أنَّ اسمكِ قريبٌ جدًا من الاسم الذي كنت أتوق إليه عندما كنتُ طفلةً! لقد كرهت اسم "آن" وأطلقتُ على نفسي اسم "كورديليا" في الخيال."

"يُعجبني اسم "آن"، فهو اسم والدتي. برأيي، إنَّ الأسماء القديمة هي الأفضل والأجمل. إذا كنت ستذهبين لإعداد الشَّاي؛ نادي الطَّبيب الشَّاب، أُريد أن أتحدَّث إليه. لابدَّ أنه بقي مستلقيًا على الأريكة في مكتبه منذ أن جئت."

صرخت آن مذعورةً، محاولةً تجنُّب الأفكار التي خطرت في بالها، قائلةً: "كيف عرفت ذلك؟"

ردَّت الآنسة كورنيليا: "لقد رأيته جالسًا بجانبكِ عندما سرتُ في الممرِّ، وأعرف حيل الرِّجال... ها قد انتهيتُ من ثوبي الصَّغير يا عزيزتي، ويمكن للطِّفل الثَّامن أن يأتي في أقرب وقتٍ يشاء."

***

9
أمسية في منطقة فوروينذز



تمكَّنت آن وجيلبرت أخيرًا من الإيفاء بوعدهما بزيارة منارة فوروينذز في أواخر شهر أيلول. لقد خطَّطوا مرارًا للذهاب، لكن في كل مرَّة كان يَطرأ عليهم أمرٌ يمنعهم من ذلك. وقد قام الكابتن جيم بزيارتهم عدَّة مراتٍ في منزلهم الصَّغير.

قال لآن: "لن أتعامل معك برسميةٍ يا سيدة بلايث، وسأكون واضحًا وصريحًا. إنه لمن دواعي سروري حقًّا أن آتي إلى هنا؛ لذا لن أمنع نفسي من القدوم فقط لأنك لم تأتِ لزيارتي. لا ينبغي أن يكون بين العرق الذي يعرف جوزيف مساومات ومفاوضات من هذا القبيل. سأحضرُ أنا عندما أستطيع، وستأتين أنتِ متى استطعتِ؛ فلا يهم تحت أي سقفٍ سنجتمع طالما أننا سنحظى بمحادثةٍ صغيرةٍ مُمتعة."

أبدى الكابتن جيم اهتمامًا كبيرًا بالكلبين دوغ وموغ، اللَّذين كانا جالسين عند الموقد في المنزل الصغير بطمأنينةٍ كما كانا في منزل باتي بليس.

كان يقول بسرورٍ، وهو يلقي التَّحية عليهما ويودِّعهما: "أليست هذه هي الحيوانات الصغيرة اللَّطيفة المُزعجة؟" لم يكن الكابتن جيم

يسيء لربَّة المنزل بسبب عدم التقديس وإقامة المناسبات الدِّينيَّة.

ثمَّ توجَّه بالحديث إلى آن قائلًا: "لقد جعلتِ هذا المنزل الصَّغير مثاليًا تمامًا، لم يكن كذلك من قبل. كان لدى السيدة سلوين ذوقٌ رفيعٌ كذوقكِ، وقد فعلت العجائب؛ لكن النَّاس في تلك الأيام لم يكن لديها مثل هذ الستائر الصغيرة الجميلة واللَّوحات والتُّحف المُلفتة التي لديك.

كانت إليزابيث في الماضي، وأنتِ نسخة عنها في المستقبل. سأكون سعيدًا حقًا حتى لو لم نتمكن من التَّحدث على الإطلاق، إذ يكفيني أن آتي إلى هنا وأن أجلس وأُلقي نظرةً عليكِ وأتأمَّل لوحاتكِ وأزهاركِ. إنَّه منزلٌ جميلٌ، جميلٌ للغاية."

كان الكابتن جيم متعطِّشًا للجمال. فكلَّما سمع أو رأى شيئًا جميلًا، تختلجه فرحةٌ عميقةٌ تُنير حياته. لقد كان مدركًا تمامًا بأنَّه ليس حسن المظهر، ولم يكن سعيدًا بذلك.

فقد صرَّح، في إحدى المناسبات، بغرابةٍ قائلًا: "يقول الناس إنني جيِّدٌ للغاية، لكنني تمنَّيتُ في بعض الأحيان لو أنَّ الرَّبَّ قد جعلني جيِّدًا قليلًا واستبدل الباقي بالمظهر. تمنَّيت لو كان خَلْقي كخُلُقي. لكن لا اعتراض على حكم الله، فهو أدرى بخلقه وأحكم. فمنَّا الجميل ومنَّا اللطيف والنقي كالسيدة بلايث."

وفي مساء أحد الأيام، تسنَّتِ الفرصة لآن وجيلبرت أخيرًا للنزول إلى منارة فوروينذز. كان قد بدأ ذاك اليوم بسُحبٍ رماديَّةٍ ضبابيَّة؛ لكن السماء قد احمرَّت وتلبَّدت بالسُّحب الصغيرة عند غروب أشعَّة الشَّمس الذَّهبية التي انعكست على التّلال الغربية خلف الميناء، حيث كانت أعماقٌ كهرمانية وأُخرى ضحلةٌ بلوريَّة. كما انعكست الأشعَّة المُلتهبة على الأشرعة البيضاء لسفينةٍ تمرُّ عبر القناة، متجهةً إلى ميناءٍ جنوبيٍّ في أرض النَّخيل، وانتقلت إلى

مـا خلفهـا حيث تجسَّـدت بالكثبـان الرمليـة- الخالية من الأعشـاب. ومـن ثـمَّ إلـى اليميـن، حيـث سـقطت علـى المنـزل القديـم بيـن الصفصـاف فـي الجـدول، وأعطتـه لفحـةً عابرةً أكثـر روعـةٍ من تلك الموجـودة فـي الكاتدرائيـة القديمـة. لقـد توهَّـج كلُّ شـيءٍ بهـدوءٍ وسكينةٍ، وزاد اللَّون الأحمر الدمويُّ البيئة المُملَّة تلك حيويَّةً.

قالت آن: "يبدو ذاك المنزل القديم الذي يقع فوق النهر وحيدًا جدًا، إنني لا أرى زوارًا يأتون إليه أبدًا. صحيحٌ أن ممرَّه مفتوحٌ على الطريق العلوي، لكنني لا أعتقد أنه شبه مهجورٍ. من الغريب أننا لم نلتق بعائلة موريس حتى الآن على الرُّغم من أنهم يعيشون على بعد خمسة عشر دقيقة سيرًا على الأقدام من منزلنا. ربما أكون قد رأيتهم في الكنيسة، لكن بالطبع لم أكن لأعرفهم. أشعر بالسوء لأن جيراننا القريبين الوحيدين أُناس غير اجتماعيين ولا يحبُّون الاختلاط."

ضحك جيلبرت قائلًا: "يبدو أنهم لا ينتمون إلى العرق الذي يعرف جوزيف. هل تحرَّيتِ عن تلك الفتاة الجميلة التي رأيتها سابقًا؟"

"لا، لقد نسيت أن أسأل عنها. لم أرها في أي مكان، لذا أعتقد أنها غريبة كما توقَّعت أنتَ. يا إلهي، لقد أفلَت الشمس، وها هو الضوء يسطع."

مع حلول الظلام، أضاءت المنارة الضخمة مساحات كبيرة من الحقول والمرفأ والشاطئ الرَّملي والخليج.

قالت آن، حين غمرتهما المنارة بشعاعها: "أشعر كما لو أن النور قد يمسك بي ويقودني إلى البحر." وشعرت بالارتياح عندما دخلا نطاق تلك الومضات المبهرة.

عندما وصلا إلى الممرِّ الصَّغير الذي يقودهما عبر الحقول إلى وجهتهما، التقيا برجلٍ يخرج منه بمظهرٍ غير عاديٍّ لفت انتباههما فحدَّقا به للحظةٍ. لربما كان من سكان فوروينذز أو غلين. كان حسن

المظهر، طويل القامة، عريض المنكبين، جميل الوجه ذو أنفٍ محدبٍ ذو حنيةٍ وعينين رماديتين حادّتين. كان يرتدي أفضل ما يرتديه مزارع في يوم أحد جميلٍ، وقبعةً تُغطّي شعره البني المتموج الكثيف، وكانت لحيته الكثّة بُنيَّةً مجعَّدةً أيضًا تتدفقُ على صدره حتى ركبتيه.

همس جيلبرت، عندما ابتعدا عن ذاك الرَّجل: "آن، لم تُضيفي الكحول أو ما يسميه العم ديف بـ "القليل من قانون سكوت" في عصير اللَّيمون الذي قدمته لي قبل مغادرتنا المنزل، أليس كذلك؟"

خنقت آن ضحكتها خشية أن يسمعها ذلك الرَّجل الغامض، ثمَّ قالت: "لا، لم أفعل. من تُراه يكون؟"

"لا أعرف. لكن إن بقي الكابتن جيم يستقبل النّاس أمثال هذا، فسأضطّر إلى حمل سلاحٍ على خصري عندما آتي إلى هنا. إنه ليس بحارًا، أو شخصًا قد يُغضّ الطرف عن مظهره الغريب؛ من الممكن أنه ينتمي إلى العشائر التي تجاوزت الميناء. يقول العم ديف إن لديهم الكثير من النزوات هناك."

"أعتقد أنَّ العمَّ ديف متحيزٌ قليلًا. أتعلم، يبدو كلّ الأشخاص الذين يحضرون إلى كنيسة غلين لطيفين للغاية. أليس هذا جميلًا يا جيلبرت؟"

بُنيت منارة فورويندز على جرفٍ من الحجر الرَّملي الأحمر البارز في الخليج. وعلى الجانب الأول من القناة امتد الشاطئ الرملي؛ أما على الجانب الأخر، فامتدت، مساحة طويلة، منحدرات شاطئية حمراء ترتفع بشكل حادٍ من الخلجان المرصوفة بالحصى. لقد كان شاطئًا يحتضن سحر وغموض العاصفة والنجم. تُحاوط هذا الشاطئ عزلةٌ كبيرة؛ على عكس الغابة، إذ يعمُّها همسٌ ينبئ بوجود حياةٍ فيها. إن البحر روحٌ جبارةٌ تئنُّ من أسى عظيمٍ محبوسٍ في جوفه، لا يمكن مشاركته. لا يمكننا أبدًا اختراق لغزه اللّامتناهي؛ جلَّ ما يمكننا فعله هو التَّجول بدهشةٍ ورعبٍ على ضفافه. تنادينا الغابة بمئة صوتٍ؛ بينما

للبحر صوتٌ واحدٌ فقط، صوتٌ قويٌّ يُغرقُ نفوسنا في موسيقاه المهيبة.

وجدت آن وجيلبرت العم جيم جالسًا على مقعدٍ خارج المنارة، واضعًا اللَّمسات الأخيرة على مركبةٍ شراعيةٍ رائعةٍ كاملة التَّجهيز. قام من مكانه ورحَّب بهما في منزله بمجاملةٍ لطيفةٍ لاواعيةٍ كعادته.

"لقد كان يومًا لطيفًا منذ الصباح يا سيدة بلايث؛ والآن، في نهايته، أصبح أفضل بزيارتكما. هل ترغبان في الجلوس هنا في الخارج قليلًا إلى حين انخماد الضوء؟ لقد انتهيت للتوِّ من صناعة هذه اللُّعبة لابن أخي الصغير، جو الذي يعيش في غلين. لكن بعد أن وعدتّه بصنع واحدةٍ لأجله، آخذت نفسي. فقد بدت والدته منزعجةً ومستاءةً للغاية، لأنها لم تكن ترغب في أن يتشجع وأن يرغب في الإبحار لاحقًا. لكن ماذا عساي أفعل يا سيدتي؟ لقد وعدته، وأجد أنه من الغدر حقًا أن أخلف بالوعد الذي قطعته لطفل. تعالا واجلسا هنا. لن يستغرق الأمر وقتًا طويلًا."

كانت الرياح تعصف وتتلاعب عند سطح البحر مُولّدةً تموجاتٍ طويلةٍ فضّيةٍ لامعةٍ. بينما أسدل الغسق ستارةً من البنفسج القاتم فوق الكثبان الرملية والصخور حيث تتجمّع النّوارس. وتغطّت السماء بوشاحٍ حريريٍّ، من السُّحب والبخار، مرصّعٍ بالنّجوم.

قال الكابتن جيم بفخرٍ واعتزازٍ: "أليس هذا منظرٌ يُستحقُّ النَّظر إليه؟ جميلٌ وبعيدٌ عن السُّوق، أليس كذلك؟ لا شراء ولا بيع ولا مكاسب. لست مضطرَّةً لدفع فلسٍ واحدٍ، يمكنكِ التَّمتُّع بالبحر والسماء بأكملهما بقدر ما تُريدين مجانًا. سيطلع القمر النَّقيُّ قريبًا أيضًا. لم أتعب ولم أملَّ أبدًا من انتظاره لمعرفة من أيِّ صوبٍ سيطلع، أفوق الصخور، أم البحر، أم الميناء. في كلِّ مرةٍ، مفاجأة."

طلع القمر، وأُلقيت الأنظار على سحره وبريقه في صمتٍ أنساهم

الدُّنيا وما فيها. ثم صعدوا إلى البرج، وأطلعهما الكابتن جيم وشرح لهما آليَّة عمل هذه المنارة الضَّخمة. وأخيرًا، دخلوا غرفة الطَّعام، حيث كانت نيران الأخشاب الطَّافية تنسج ألسنة اللَّهب المتذبذبة والمراوغة في المدفأة المفتوحة.

قال الكابتن جيم: "لقد وضعت هذه المدفأة بنفسي، فالحكومة لا تمنح حُرَّاس المنارة مثل هذه الكماليات. انظري إلى الألوان الدافئة المنُبعثة من المدفأة. إن كنت ترغبين في بعض الأخشاب لمدفأتك يا سيدة بلايث، سأجلب لكِ حمولةً يومًا ما. اجلسي. سأقوم بإعداد كوبٍ من الشاي."

أنزل الكابتن جيم القط الضخم الأشقر والصحيفة من على كرسيٍّ، وناوله لآن.

"انزلي من على الكرسي يا مايت، الأريكة هي مكانك. يجب أن أضع هذه الورقة في مكانٍ آمنٍ حتى يتسنَّى لي الوقت لإنهاء قراءتها. إنها قصة "الحبّ الجنونيّ". ليس نوع الأدب المفضَّل لديَّ، لكنني أقرأها من باب الدُّعابة لنرى كم من الوقت يمكنها المماطلة بالأحداث. لقد وصلت في قراءتي إلى الفصل الثاني والستين، وحتى الآن لم يقترب موعد الزفاف ولن يقترب... عندما يأتي جو الصغير، أقرأ له قصص القراصنة. أليس غريبًا كيف أن المخلوقات الصغيرة البريئة مثل الأطفال تحب القصص المتعطشة للدماء؟"

قالت آن: "إنه كصغيري ديفي، ينجذب إلى القصص التي تفوح منها رائحة الدماء."

كان لشاي الكابتن جيم طعمٌ مميَّزٌ كحلاوة الأحاديث التي تناولاها. كان جيم سعيدًا جدًا- كطفلٍ- بمجاملات آن، لكنه حاول كبت سعادته باللامبالاة.

قال بتنهيدةٍ: "السر هو أنني لا أبخل بالكريمة." لم يسمع الكابتن

جيم من قبل عن الكاتب أوليفر ويندل هولمز، لكنه من الواضح أنه يتفق مع قوله بأن "القلب الكبير لم يحب قط وعاء الكريمة الصغير".

قال جيلبرت وهم يرتشفون الشاي: "لقد التقينا بشخصٍ غريب المظهر يخرج من عندك. من كان هذا؟"

ابتسم الكابتن جيم ابتسامةً عريضةً.

"إنه مارشال إليوت، رجلٌ طيبٌ فيه عرقٌ من الحماقة. أعتقد أنك تتساءل عن هدفه في تحويل نفسه إلى ما يشبه المهووسين بمتحف الدايم."

سألت آن: "هل هو نذيرٌ عِبريٌّ جاء من الأزمنة القديمة؟"

"لا إنه ليس كذلك، بل السياسة هي السبب الأساسي في نزعته هذه. تجري السياسة في عروق سكان فوروينذز- كعائلة إليوت وعائلة كروفورد وعائلة ماكاليستر، لذا يتشبَّثون بآرائهم بقوَّة. فقد ولدوا موالين إمّا للنّظام اللّيبرالي وإمّا للنّظام المعاكس، ويعيشون ويموتون على ما ولدوا عليه. لا أدري ماذا سيفعلون في الحياة الثانية حيث تغيب السّياسة. لقد اخترتُ النّظام اللّيبرالي بنفسي، أما مارشال إليوت هذا وُلد فيه وتشبّث به. فقبل خمسة عشر عامًا، جرت انتخابات عامة قاسية. قاتل مارشال بشراسةٍ من أجل حزبه. كان على يقينٍ تامٍّ من أن اللّيبراليّين سيفوزون لدرجة أنّه تعهّد بأنه لن يحلق وجهه ولن يقصّ شعره حتى يترأّس حزبه السلطة. لم يربحوا أبدًا، وها أنتما اليوم تريان النتيجة بأنفسكما. لقد تمسّك مارشال بكلمته تلك."

سألته آن: "ما رأي زوجته في ذلك؟"

"إنه أعزب. لكن أعتقد أنه حتَّى لو كان متزوِّجًا، لما استطاعت زوجته تغييره. فلطالما كان أفراد عائلة إليوت متصلِّبون ومتشبِّثون بآرائهم. كان ألكسندر، شقيق مارشال، يمتلك كلبًا يحبُّه كثيرًا. وعندما مات الكلب، أراد الرجل دفنه في المقبرة "مع المسيحيين الآخرين".

وبالطبع، لم يُسمح له بذلك. لذا، قام بدفنه خارج سور المقبرة؛ ومنذ ذلك اليوم، لم تطأ قدماه الكنيسة مرةً أخرى. لكنه اعتاد في أيام الأحد بعد أن يوصل عائلته إلى الكنيسة، الذهاب للتلاوة من الكتاب المقدَّس على قبر ذلك الكلب حتى انتهاء فترة القدَّاس. ويقولون أنَّه عندما كان يحتضر طلب من زوجته أن يُدفن بجانب كلبه. على الرغم من أنها زوجةٌ لطيفةٌ، لم تستطع كبت غضبها منه وأخبرته بأنها لم تُرد أن تدفن بجانب كلب، وإن أراد أن يكون مثواه الأخير بجانبه فسيكون قد فضَّل الكلب عليها وخيَّب آمالها. كان ألكسندر إليوت بغلًا عنيدًا، لكنه كان مولعًا بزوجته. لذا استسلم لها، وقال "اللعنةَّ! حسنًا، ادفنيني حيث تريدين. كلُّ ما في الأمر أنني كنت أُفكِّر في أنه عندما يُنفخ في الصُّور، سينهض كلبي معنا لأنه روحٌ مثلنا نحن عائلات إليوت وكروفورد وماكاليستر". كانت هذه كلماته الأخيرة.. أما بالنسبة إلى مارشال، فقد اعتدنا عليه جميعًا. لكنَّه ما زال يبدو غريب الأطوار بالنسبة للغرباء. إنني أحبُّه حقًا. فقد عرفته منذ أن كان في العاشرة من عمره، وهو الآن في الخمسين من عمره. لقد كنَّا معًا اليوم في رحلة صيد سمك. كلُّ ما أبرع به- حاليًا- هو اصطياد سمك السلمون المرقط وسمك القد من حينٍ لآخرٍ. لكنني لا أمارس هذه الهواية دائمًا. فقد اعتدتُّ على فعل مهام أخرى، أظنُّ أنك رأيت كتاب حياتي."

كانت آن على وشك أن تسأله عن كتاب حياته، حين جاء القط وقفز ليجلس على ركبة الكابتن جيم. لقد كان وحشًا رائعًا، بوجهٍ دائريٍّ كالبدر، وعينين خضراوين زاهيتَّين، وكفّين ضخمين أبيضا اللَّون. فقام الكابتن جيم بالمسح على وبره الأسود المُخمليِّ برفق.

ومع خرخرة القطة مايت، قال الكابتن جين: "لم أكن أتوقَّع أنني سأهتم بالقطط إلى هذا الحدِّ حتى التقيت بمايت. لقد أنقذتُ حياته؛ وعندما تنقذ حياة كائنٍ ما، ستحبه حتمًا. فالحبُّ دائمًا ما يأتي بعد

إعطاء الحياة. يوجد في هذا العالم، بعض الأشخاص الطّائشين يا سيدة بلايث. بعضهم من أهل المدينة الذين يقضون الصيف في المنازل فوق المرفأ، هؤلاء أناسٌ قاسيون بقدر ما هم طائشون. والطيش هو أسوأ أنواع القسوة، إذ لا يمكنك التعامل مع ذلك. ففي الصَّيف، يحتفظون بالقطط ويطعمونها ويغذّونها، يتسلون بها كالدّمى ويزينون عنقها بالشرائط والأطواق. ثم في الخريف يهجرونها ويتركونها تتضوَّر جوعًا أو تتجمَّد بردًا. إنَّ مُجرَّد التَّفكير في الأمر يجعل دمي يغلي، يا سيدة بلايث. ذات يوم في الشتاء الماضي، وجدت قطةً مسنّة مسكينةً ميّتة على الشاطئ، ملقاةً على أجسام قططِها الصغيرة الثلاثة. لقد ماتت وهي تحاول إيواء صغارها حاضنةً إياها بكفوفها الصغيرة المُتيبِّسة. لقد أبكاني ذلك المشهد المُروِّع يا سيّدي. ثم أقسمتُ أنني سآخذ القطط الصغيرة المتشردة إلى المنزل وسأطعمها وسأجد منازل مناسبةً لها. كنت أعرف المرأة التي تركت القطة. لذا، عندما عادت هذا الصيف، صعدتُ إليها وأخبرتها بصراحةٍ عن رأيي. صحيحٌ أنه كان تدخلًا، لكن لابدَّ من التَّدخل في أمورٍ كهذه."

سأل جيلبرت: "كيف كانت ردَّة فعلها؟"

"لقد بكت وقالت بأنها "لم تفكِّر في عواقب الأمر". فأجبتها "هل تعتقدين أنه عذرٌ جيّدٌ لتقدِّميه يوم الحساب، حين سيتعيَّن عليك مواجهة تلك الأم المسكينة؟ أعتقد أنَّ الرب سيسألك عن سبب عدم استخدامك لعقلك الذي وهبك إياه". لا أتوقَّع أنها ستترك القطط تحتضر جوعًا مرةً أخرى."

سألت آن: "هل كان القطّ مايت من المتشرّدين؟"

ردَّ الكابتن جيم بلطفٍ: "نعم، لقد وجدته في برد الشتاء القارس وطوقه على أحد أغصان شجرةٍ يتضوّر جوعًا. بقي على قيد الحياة بقدرة الله. آهٍ لو رأيتِ عينيه يا سيِّدة بلايث! لم يكن بهذا الحجم، لقد

كان قطًّا صغيرًا. وعندما أطلقتُ سراحه، لحس يدي بلسانه الأحمر الصّغير. لقد مضى على ذلك تسع سنواتٍ. إنَّ القطّ مايت ليس مجرَّد قطٍّ، بل هو صديقٌ جيّدٌ وقديمٌ."

قال جيلبرت: "لقد توقّعت أن يكون لديك كلب."

هزّ الكابتن جيم رأسه.

"بالفعل، كان لدي كلب. لكن عندما مات، لم أستطع تحمّل فكرة الحصول على كلبٍ آخر مكانه. لقد كان صديقًا وفيًّا، أتفهمين ما أخبرك به يا سيدة بلايث؟ إنني مغرم بكلِّ تفاصيل مايت الشَّقيِّ، لكنه لم يحلَّ مكان ذاك الكلب. فقد أحببت كلبي كثيرًا. ولطالما تعاطفتُ مع ألكسندر إليوت بشأن كلبه. وبرأيي، لا ملامح شيطانية في وجوه الكلاب، وربما لهذا السبب هم محبوبون أكثر من القطط. لا أعلم إن كان هذا أمرٌ مثيرة للاهتمام بالنسبة لكما. أوه، لقد تحدّثت كثيرًا، لم لم تنبِّهاني؟ عندما تسنح لي الفرصة للتحدث إلى أيِّ شخصٍ، أجود في الكلام بطريقةٍ مبالغٍ بها. إن انتهيتما من شرب الشاي، أريدكما أن تُلقيا نظرةً على بعض الأشياء الصغيرة التي أضعها في الزوايا الغريبة التي باتت مُخصَّصةً لها."

اتّضح أن "أشياء الكابتن جيم الصغيرة" قد تحوّلت إلى المجموعة الأكثر إثارة للاهتمام من التُّحف الغريبة والشَّنيعة والجذّابة والجميلة. وكلُّ قطعةٍ لديها قصة مدهشة مرتبطة بها.

لم تنسَ آن أبدًا البهجة التي اختلجتها بعد سماعها تلك الحكايات القديمة عند نار الخشب الطّافية المسحورة في تلك اللّيلة المُقمرة، بينما كانت البحر الفضيّ المُتلألئ يناديهم من خلال النافذة المفتوحة ويبكي على الصخور التي تحتها.

لم يكن الكابتن جيم يتفاخر أبدًا، لكن كان من السهل رؤية ذاك البطل الشجاع، الشّفاف، وواسع الحيلة، وغير الأناني. جلس هناك في

غرفته الصغيرة وجعل مُستمعيه يعيشون تلك الأحداث مرة أخرى. برفع الحاجب، وتحريك الشفة، بلفتةٍ، وكلمة، رسم مشهدًا كاملًا وجسَّد شخصيةً استطاعا رؤيتها كما هي.

كان لبعض مغامرات الكابتن جيم ميزة رائعة لدرجة أن آن وجيلبرت قد تساءلا سرًا عمّا إذا كان يبالغ في سرده للأحداث وقد انطلت عليهم الحيلة بسبب سذاجتهما. لكنهما اكتشفا لاحقًا أنّهما قد ظلماه وبأن جميع حكاياته صحيحة بالمعنى الحرفي للكلمة. كان الكابتن جيم وكأن موهبة الرّاوي قد وُلدت به، فقد كان يحضر "الأشياء البعيدة غير السعيدة" فيزيد الحكاية حيويّةً ليتمتّع بها المستمعون وتُلامس مشاعرهم.

كاد آن وجيلبرت يموتا من فرط الضحك على حكاياته لدرجة أن آن قد وجدت نفسها تبكي. فقام الكابتن جيم بمسح دموعها بسرورٍ يشعّ من وجهه.

ثمَّ قال: "أحب أن أرى الناس يبكون بهذه الطريقة، إنها مجاملة. لكن لا يمكنني أن أنصف الأحداث التي رأيتها أو ساعدت في فعلها. لقد دوَّنتها جميعًا في كتاب حياتي، لكنني لم أمتلك موهبةً لكتابتها بشكلٍ لائقٍ. لو كان بإمكاني انتقاء الكلمات الصّحيحة وترتيبها معًا بجملٍ صحيحةٍ على الورق، لكنت قد صنعت كتابًا رائعًا. لكنت تغلّبت على كاتب رواية "الحب الجنوني،" ولكان جو سيحبها كحبّه لقصص القراصنة. لقد خضت بعض المغامرات في حياتي؛ لكن أتعلمين يا سيدة بلايث، ما زلت أشتهي المزيد. لقد أصبحت عجوزًا عديم الفائدة، وما زال شوقٌ رهيبٌ يكتسحني في بعض الأحيان للإبحار هناك، هناك "إلى المدى البعيد."

قالت آن بشاعريَّة: "مثل يوليسيس، بطل قصيدة الأوديسة، ستُبحر بعد غروب الشمس وانطفاء النجوم الغربية. ستُبحر حتى تموت."

"يوليسيس؟ لقد قرأت عنه. نعم، هذا هو ما أحلم به أنا وجميع البحّارة القدامى. لكن في نهاية المطاف، أعتقد بأنني سأموت على اليابسة. سيحدث ما قُدِّر لنا."

" كان العجوز ويليام فورد من غلين لم يذهب إلى البحر مطلقًا في حياته، لأنه كان خائفًا من الغرق بعد أن أخبره أحد العرّافين بذلك. وفي يوم من الأيام أُغمي عليه وسقط وجهه في حوض الحظيرة وغرق. أتريدان المغادرة الآن؟ حسنًا، تعاليا بين الحين والآخر. على الطبيب أن يتحدث في المرة القادمة، فهو يعرف كومة من الأمور التي أريد اكتشافها. مع مرور الوقت، أشعر بالوحدة هنا. وازداد الوضع سوءًا بعد وفاة إليزابيث راسل. لقد كنّا مقربين من بعضنا بعضًا."

تحدث الكابتن جيم مع شفقة كبار السن الذين يرون أصدقاءهم القدامى يتساقطون منهم واحدًا تلو الآخر، أصدقاءهم الذين لا يمكن لجيل الشباب ملأ مكانهم حتى ولو كان من العرق الذي يعرف جوزيف. وعدته آن وجيلبرت بالمجيء من وقتٍ لآخر لزيارته.

قال جيلبرت، بينما كانا في طريق العودة إلى المنزل: "إنه رجلٌ عجوزٌ نادر، أليس كذلك؟"

قالت آن: "نعم نوعًا ما، إذ لا يمكنني التّوفيق بين شخصيته البسيطة واللّطيفة والحياة البريّة والمغامرة التي عاشها."

"لما كنتِ وجدتِ الأمر صعبًا لو رأيته في ذلك اليوم في قرية الصيد. رمى أحد رجال قارب بيتر غوتييه تعليقًا بغيضًا عن فتاة كانت تسير على طول الشاطئ. فألقى الكابتن جيم نظرة استحقارٍ على زميله البائس والشّرر يتطاير من عينيه. لم يقل الكثير، لكن نظرته كانت كفيلة! فقد بدا وكأنه تحوّل إلى مخلوقٍ شرسٍ سينهش لحم زميله. عرفت حينها بأن الكابتن جيم لا يسمح أبدًا باستحقار المرأة أو الاساءة إليها في حضوره."

قالت آن: "أتساءل لم لم يتزوج بعد. إنه ذلك النوع من الرجال الذي من المفترض أن يكون لديه أبناء يقودون سفنهم في البحر الآن، وأحفاد يتدافعون فوقه لسماع قصصه. لكنه وحيدٌ ليس لديه سوى قط رائع."

لكن آن كانت مخطئة. فلدى الكابتن جيم أكثر من ذلك، كان لديه ذاكرة.

***

10

لقاء السّيّدة ليزلي مور



قالت

آن لـغوغ وموغ مساء يومٍ تشرينيٍّ: "سأخرج لأتمشى على الشاطئ هذه الليلة." لم يكن لديها من تخبره بذلك، لأن جيلبرت قد ذهب إلى الميناء. حظيت آن ببعض الوقت لترتيب البيت وتنظيفه جيدًا من دون ترك أي بقعة تفوتها كأي شخصٍ تربّى على يد ماريلا كوثبرت، فشعرت أن ضميرها قد ارتاح. اعتادت آن على التنزّه على الشاطئ بشكل مستمرٍّ أحيانًا مع جيلبرت، وأحيانًا مع الكابتن جيم، وأحيانًا بمفردها بأفكارها الخاصة وأحلامها الجديدة والرَّائعة التي أضفت رونقًا وحيويَّةً على حياتها. لقد أحبَّت شاطئ المرفأ الضَّبابي اللَّطيف، والشاطئ الرَّملي الفضّي التي تعصف فيه الرِّياح؛ لكن أفضل ما في الأمر أنَّها أحبَّت الشَّاطئ الصَّخري بمنحدراته وكهوفه وأكوام الصخور البالية، وخلجانه حيث تتلألأ الحصى تحت البحر النَّقيِّ. وقد اختارت الأخير للتَّنزّه هذه اللَّيلة.

هبَّت عاصفةٌ خريفيَّةٌ من الرِّياح والأمطار استمرت ثلاثة أيامٍ. كانت السماء ضبابيّةً والبحر مضطّربًا يتخبّط على الصخور. كسرت هذه العاصفة السلام الأزرق السابق لميناء فوروبندز. والآن بعدما انتهت

العاصفة، عاد الشاطئ نظيفًا وهادئًا إلّا من تدفق أمواجٍ رائعةٍ تُلقي بزبدها الأبيض على الرمال والصخور.

صرَّحت آن بسرورٍ، وهي تنظر إلى المياه المتساقطة من أعلى الجرف حيث وقفت: "يا إلهي، تستحق هذه اللَّحظة أن نعيش من أجلها أسابيع من العواصف والمشاعر السّلبية المتبعثرة." ثمَّ سارعت بالنّزول عبر الطريق شديد الانحدار إلى الخليج الصغير أدناه حيث بدت مذهولةً بمنظر الصخور والبحر والسماء.

قالت: "سأرقص وأغني. لا أحد هنا ليراني، ولن توشي طيور النورس بالخبر. سأكون مجنونةً كما أحب أن أكون."

التقطت تنورتها وراحت تتجوَّل على طول الضّفة بعيدًا عن متناول الأمواج التي كادت أن تداعب قدميها بالرَّغوة البيضاء. كانت تدور حول نفسها، وهي تضحك كطفلةٍ. وحين وصلت إلى النقطة التي تصبّ فيها المياه إلى شرق الخليج؛ توقفت فجأةً، واحمرّت خجلًا، إذ انتبهت أنَّ شخصًا ما كان شاهدًا على رقصها وضحكها.

كانت الفتاة، ذات الشّعر الذّهبي والعينين الزّرقاوين كلون البحر، جالسةً على صخرةٍ مخبأةً بعض الشّيء بواسطة صخرةٍ ضخمةٍ بارزة. كانت تنظر مباشرةً إلى آن بتعابير غريبةٍ- فيها حصّةٌ من التَّعجب، والتَّعاطف، وهل يمكن أن يكون فيها حصّةٌ من الحسد أيضًا؟ كانت عارية الرّأس، وشعرها الرّائع ملفوفٌ حول رأسها بشريطٍ قرمزيٍّ كالأفعى. كانت ترتدي فستانًا بسيطًا داكن اللَّون، يحيطُ خصرها زنّارٌ حريريٌّ حيويٌّ أحمر اللَّون يُحدّد منحنياته الدّقيقة. كانت يداها المشبوكتان على ركبتيْها بنيَّتيْن ومجهدتيْن من العمل؛ لكن جلد عنقها ووجنتيها كان أبيضًا كالثّلج. انعكست أشعة غروب الشمس- من خلال سحابةٍ غربيَّة منخفضةٍ- على شعرها، فزادته بريقًا. وبدت للحظةٍ وكأنّها تُجسّد روح البحر بكلّ سرّه، وشغفه، وسحره المراوغ.

لقد وُضِعت آن في موقفٍ محرجٍ للغاية! فقد رأتْ هذه الغريبةُ الفتاةَ الفخمة- زوجة الطبيب بلايث- مُستسلمةً لروح الطّفولة فيها.

تلعثمت آن، وهي تحاول استعادة نفسها: "لابدَّ أنك تعتقدين بأنني مجنونة."

ردّت الفتاة: "لا، لا أفكّر هكذا." ثمَّ صمتت.

كان صوتها خالٍ من التّعابير وكانت طريقتها منفّرةً إلى حدٍّ ما. لكن كانت عيناها تفصح بأنها متحمّسةٌ وخجولةٌ، جريئةٌ ومتوسلةٌ في آنٍ معًا. الأمر الذي أثار فضول آن وجعلها تقطع نزهتها وتجلس على الصخرة بجانب الفتاة.

قالت بابتسامةٍ نجحت من خلالها بكسب الثّقة والودّ: "دعينا نُعرّف عن أنفسنا. أنا السيدة بلايث، وأعيش في ذلك البيت الأبيض الصغير على شاطئ الميناء."

أجابتها الفتاة بصلابةٍ: "نعم، أعرف ذلك. وأنا ليزلي مور زوجة السّيّد ديك مور."

صمتت آن للحظةٍ من فرط ذهولها. لم يخطر ببالها قط أنها قد تكون متزوجةً، إذ لا إشارة فيها تدلُّ على ذلك. ولم يخطر ببالها أيضًا أن تكون هي الجارة التي صورتها بمخيِّلتها على أنها ربة منزل عاديَّةٍ كغيرها في فوروينذز! لم تستطع آن استرجاع تركيزها العقليّ سريعًا بعد سماع هذا الخبر الصّادم.

تلعثمت آن في كلامها: "أ... أتسكنان في ذلك البيت الرّمادي فوق النهر؟"

قالت الأخرى: "نعم، كان عليَّ زيارتكِ منذ فترةٍ طويلةٍ." لكنها لم تقدّم أيّ تفسيرٍ أو عذرٍ لعدم قيامها بذلك.

قالت آن وهي تحاول تدارك الأمر: "أتمنى أن تأتين لزيارتنا. نحن جارتان قريبتان جدًا، لذا علينا أن نكون صديقتين. إن فوروينذز جميلةٌ،

لكن العيب الوحيد فيها هو أن عدد الجيران قليل."

"هل تحبينها؟"

"أحبها! لا بل مُغرمةٌ بها. إنها أجمل منطقةٍ أراها في حياتي."

قالت ليزلي مور ببطءٍ: "لم أقم بزيارة الكثير من الأماكن، لكنني لطالما اعتقدت أنها جميلة. وأنا.. أنا أحبها أيضًا."

تحدثت بخجلٍ، ولكن بشغفٍ.

كان لدى آن انطباعٌ غريبٌ أن هذه "الفتاة" الغريبة يمكنها أن تنطق بكلماتٍ جيدةٍ لو أرادت ذلك.

وأضافت: "كثيرًا ما آتي إلى الشاطئ."

قالت آن: "وأنا كذلك. إنه أمرٌ عجيبٌ أننا لم نلتق هنا من قبل."

"ربما تأتين في وقت أبكر من الذي آتي فيه. فأنا آتي في وقتٍ متأخرٍ، حين يكون قد عمَّ الظلام. وأحبُّ أن آتي مباشرةً بعد عاصفةٍ كهذه، إذ لا أحبُّ البحر وهو هادئ. أحب الهدير، والانهيار، والضوضاء."

صرّحت آن: "أحبّه في جميع حالاته. إن البحر في فوروينذز هو بالنسبة لي كدرب العشاق الذي كان بالقرب من منزلي القديم. لقد شعرت اللّيلة بالحريَّة، فأحببتُ أن أُفرغ الطّاقة التي كانت بداخلي. ولهذا السبب رقصتُ على طول الشاطئ بهذه الطريقة الجامحة. بالطبع لم أكن أتوقَّع أن يكون شخص ما يراقبني. لو رأتني الآنسة كورنيليا برا اينت بهذه الحالة، ما كانت ستجدني مناسبةً للطبيب بلايث."

قالت ليزلي بضحكةٍ طفوليَّةٍ غير متوقَّعةٍ: "هل تعرفين الآنسة كورنيليا؟"

ضحكت آن أيضًا، قائلةً: "نعم، أعرفها. لقد قدمت لزيارتي في منزل أحلامي عدة مرات."

"منزل أحلامك؟"

"أوه، نعم. لقد اخترعتُ أنا وجيلبرت هذا الاسم الصّغير الأحمق وأطلقناه على منزلنا. لقد انزلقت مني الكلمات من دون تفكير."

قالت ليزلي بتساؤلٍ: "إذًا، إن البيت الأبيض الصغير، الذي تعود ملكيّته للسيدة راسل، هو بيت أحلامك." وأضافت بضحكةٍ شابت حلاوتها القليل من السّخرية: "كان لدي بيت أحلامٍ ذات مرةٍ، لقد كان قصرًا."

قالت آن: "أوه، لقد حلمتُ سابقًا بقصرٍ أيضًا. أفترض أننا جميعًا نحلم بقصور، ثم نستقرُّ بالاقتناع في منازل من ثماني غرفٍ يلبي جميع رغبات قلوبنا. ربما وجود أميرنا فيه يجعلنا نكتفي به. كان يجب أن يكون لديك قصر فعلًا، فأنتِ جميلةٌ جدًا. دعيني أخبرك الحقيقة، لقد أُعجبت بك كثيرًا. أنتِ أجمل امرأةٍ رأيتها على الإطلاق يا سيدة مور."

فردَّتْ بشغفٍ غريبٍ: "إذا أردت أن نكون صديقتين، ناديني ليزلي."

"بالطبع، إنه لمن دواعي سروري. يناديني أصدقائي بآن."

تابعت ليزلي وهي تتأمّل البحر: "أعتقد أنني جميلة، لكنني أكره جمالي. كنت أتمنى دائمًا لو كنتُ الفتاة الأكثر سُمرةً وبساطةً في قرية الصيد. حسنًا، ما رأيك بالآنسة كورنيليا؟"

أغلق التّغيير المفاجئ للموضوع الباب أمام المزيد من الأسرار.

قالت آن: "إن الآنسة كورنيليا ودودة، أليس كذلك؟ لقد دعتني أنا وجيلبرت إلى منزلها لاحتساء الشاي الأسبوع الماضي. هل سبق لكِ أن سمعتي عن موائد الطّعام."

قالت ليزلي مبتسمةً: "يبدو أنني أتذكر رؤية هذا التّعبير في تقارير الصحف التي تتناول مواضيع حفلات الزّفاف."

"حسنًا، لقد حضّرت الآنسة كورنيليا واحدةً كتلك التي تُحضّر في المناسبات الضّخمة. أتصدّقي أنها جهّزت مائدةً مليئةً بما لذّ وطاب لشخصين عاديين! لقد حضّرت جميع أنواع الفطائر التي يمكن أن

تخطر على بالك، باستثناء فطيرة اللّيمون. أخبرتني أنها قد حصلت على جائزة أفضل فطائر الليمون في معرض شارلوت تاون قبل عشر سنوات، ولم تصنع من تلك الفطائر منذ ذلك الحين خوفًا من تشويه سمعتها أمامهم."

"وهل استطعتِ أن تأكلي ما يكفي من الفطيرة لإرضائها؟"

"لم أستطع فعلها، على عكس جيلبرت الذي فاز بقلبها بتناوله كمِّيَّاتٍ هائلةٍ لا يمكنك تخيّلها. قالت لي إنها لم تتعرّف أبدًا على رجلٍ لا يحبُّ الفطائر التي تُعدّها أكثر من حبّه لكتابه المقدّس. أتعلمين، لقد أحببت الآنسة كورنيليا حقًا."

قالت ليزلي: "وأنا كذلك. إنها أفضل صديقة لي في هذا العالم."

تساءلت آن سرًا عن سبب عدم ذكر الآنسة كورنيليا اسم السيدة ديك مور أمامها طالما أنهما صديقتان مقرّبتان. على الرّغم من أن الآنسة كورنيليا قد تحدّثت بحريّةٍ عن جميع سكان فوروينذز والسكان القريبين حتى.

بعد صمتٍ قصيرٍ يشير إلى التأثير الرائع لخيطٍ من الضّوء يسقط من خلال شقٍّ في صخرة في قاعدة بركةٍ خضراء داكنة خلفهما، قالت ليزلي: "أليس هذا مدهش؟ لو جئت إلى هنا ولم أر سوى ذلك، كنت سأعود إلى المنزل راضيةً."

بادلتها آن التفكير نفسه قائلةً: "إن تأثيرات الضوء والظلال على طول هذه الشواطئ رائعة. تطل غرفة خياطتي الصّغيرة على المرفأ، لذا أجلس عند نافذتها وأُمتِّع نظري بالألوان والظّلال التي تتغيّر بين اللّحظة والأخرى."

سألت ليزلي فجأةً: "ألا تشعرين بالوحدة عندما تكونين بمفردكِ؟"

أجابت آن: "لا، لا أعتقد أنني شعرت بالوحدة طوال فترة حياتي. حتى عندما أكون بمفردي، تصطحبني أحلامي وتخيّالاتي.

أستمتع بالجلوس بمفردي بين الحين والآخر، للتفكير في أمورٍ عدّةٍ والتّمعّن بها. لكنني أحب أيضًا أن أكوّن صداقاتٍ وأن أُمضي وقتًا ممتعًا مع النّاس. أوه، ألن تأتي لزيارتي؟ آمل أن تأتي. لو كنت تعرفينني مسبقًا، كنت ستحبين المجيء."

قالت ليزلي بجديّةٍ: "أتساءل عمّا إذا كنتِ ستحبّينني." لم تكن تنتظر سماع مجاملة. وجّهت نظرها، وعيناها مليئتان بالظّلال، إلى الأمواج التي بدأت تتزيّن بأزهار من رغوةٍ مقمرةٍ.

قالت آن: "بالتّأكيد سأحبّك. وأرجو ألا تأخذين فكرةً خاطئةً عنّي بأنني غير مسؤولةٍ لأنك رأيتني أرقص على الشاطئ عند غروب الشمس. لا شك في أنه عليَّ أن أكون أكثر اتّزانًا. لكنني تزوّجت منذ فترةٍ قصيرةٍ، وما زلت أشعر بأنني فتاة، وأحيانًا طفلة."

قالت ليزلي: "لقد مرَّ على زواجي اثنا عشر عامًا."

وها هو خبرٌ آخرٌ لا يصدق.

صاحت آن: "كيف، كيف يمكنكِ أن تكوني من جيلي! لابد أنك كنت طفلةً عندما تزوّجت."

قالت ليزلي، وهي تنهض وتلتقط القبعة والسترة الملقاة بجانبها: "كنت في السادسة عشرة من عمري، أنا الآن في الثامنة والعشرين. حسنًا، حان وقت عودتي."

"عليّ العودة أيضًا. من المرجح أن يكون جيلبرت قد وصل إلى المنزل. إنني مُمتنّة للغاية لأنني أتيت إلى الشاطئ هذه الليلة والتقيت بكِ."

لم تنطق ليزلي بكلمةٍ. وكانت آن مرتاحة قليلًا. إذ فعلت ما بوسعها، وعرضت طلب الصداقة بصراحةٍ لكنه لم يُقبل بلطفٍ شديدٍ، ولربما تمَّ صدّها تمامًا. تسلّقتا المنحدرات في صمتٍ ومشتا عبر حقل المراعي حيث كانت الأعشاب البرية المبيضة كالرّيش مثل سجادة مخمليّةٍ

بيضاء تحت ضوء القمر.

وعندما وصلتا إلى ممر الشاطئ، استدارت ليزلي قائلةً: "سأذهب من هذا الطريق يا سيدة بلايث. ستأتين لزيارتي بين الحين والآخر، أليس كذلك؟"

شعرت آن كما لو أن السّيدة ليزلي مور لم تكن ترغب بدعوتها لكنها بادرت بدافع الجيرة وحسب.

قالت ببرودٍ: "سآتي إذا كنت ترغبين في قدومي حقًا."

صاحت ليزلي بحماسةٍ بدت وكأنها انفجرت وتغلبت على ضبط النفس الذي فُرض عليها: "أوه، نعم، بالتأكيد أرغب."

"حسنًا سآتي إذًا تصبحين على خير يا ليزلي."

"تصبحين على خير، سيدة بلايث."

عادت آن إلى المنزل، وهي تحاول ترتيب أفكارها، وتروي الأحداث التي جرت معها لجيلبرت.

قال جيلبرت مازحًا: "إذًا، إن السّيدة ديك مور ليست من العرق الذي يعرف جوزيف؟"

قالت آن بتأملٍ: "لاا، ليست كذلك. ومع ذلك، أعتقد أنها كانت واحدةً منهم ذات مرةٍ، لكنها لم تعد كذلك. إنها بالتأكيد مختلفةٌ تمامًا عن النساء الأخريات هنا، وليست فاحشة الثّراء. لقد تخيّلت أنها ستكون نسخةً عن السيدة ريتشل ليند! هل سبق لك أن رأيت ديك مور يا جيلبرت؟"

"لا، لقد رأيت الكثير من الرّجال يعملون في حقول المزرعة، لكنني لا أعرف من هو مور."

"لم تأتي على ذكره. يبدو أنها ليست سعيدة معه."

"بحسب ما أخبرتني به، أفترض أنها تزوّجت بسنٍ صغير حين لم تكُن مُؤهّلةً لاتّخاذ قرارات مصيريّة كالزّواج. واكتشفت لاحقًا- بعد

فوات الأوان- أنها قد ارتكبت خطأ حين جرت وراء قلبها. إنها مأساة كبيرةٌ بما يكفي يا آن لجعلها تعيسة. كان من الممكن أن تصنع امرأةٌ جميلةٌ مثلها حياةً أفضل بكثيرٍ ممّا هي علية الآن. من الواضح أن السّيدة مور لا تكفّ عن جعل حياتها مفعمة بالمرارة والاستياء."

قالت آن متوسلة: "دعنا لا نحكم عليها حتى نتعرف عليها جيّدًا. لا أعتقد أن قضيتها عادية. ستفهم ما أقوله عندما تقابلها وترى سحرها، ولا أقصد بذلك جمالها. أشعر أن بداخلها طبيعة غنية ساحرة كمملكة؛ لكنها ولسببٍ ما، تُغلق أبوابها بإحكامٍ وتمنع الجميع من الدخول إليها، ولا تسمح لعلاقاتها من التطور والازدهار. منذ أن تركتها، وأنا أحاول أن أفهمها، وهذا هو أقرب ما أمكنني الوصول إليه. سأسأل الآنسة كورنيليا عنها."

***

11

قصة ليزلي مور



قالت الآنسة كورنيليا، بعد ظهر يومٍ تشرينيٍّ باردٍ: "نعم، وُلد الطفل الثامن قبل أسبوعين. إنها فتاة. كان فريد يصرخ بجنونٍ مُتذرّعًا بحجّة أنّه كان يريد صبيًا، بينما الحقيقة هي أنه لم يكن يرد طفلًا ثامنًا على الإطلاق. فلو كان صبيًا لكان صرخ لأنه لم يكن فتاة. ولا أستطيع أن أرى أنه قد أحدث فرقًا كبيرًا في ما كان عليه قبل مجيئه، فلديهما أربع فتيات وثلاثة أولاد. لكن بالطبع يجب أن يكون شريرًا، تمامًا كأيّ رجلٍ. إن الطّفل جميلٌ حقًا، يرتدي ملابسه الصّغيرة اللّطيفة. إنه ذو عينان سوداوان ويدان صغيرتان."

قالت آن وهي تبتسم بحماسٍ لا يمكن وصفه بالكلمات: "يجب أن أذهب لأراه. أنا أحب الأطفال."

اعترفت الآنسة كورنيليا: "أنا لا أقول إن الأطفال ليسوا لطفاء، لكن الحقيقة أن بعض الناس ينجبون أكثر مما يحتاجون إليه حقًا. وعلى سبيل المثال، ابنة عمي المسكينة فلورا في غلين لديها أحد عشر طفلًا، إنها كالعبدة! وقد انتحر زوجها منذ ثلاث سنوات، إنه تمامًا كباقي الرجال!"

سألت آن وهي مصدومة نوعًا ما: "ما الذي جعله ينتحر؟"

"لـم يسـتطع شـق طريقـه، فقفز إلـى البئر. بئـس المصيـر! لقد كان مـن الطّغـاة. بالطبـع أفسـد البئر، ولـم تسـتطع المسـكينة فلـورا تحمّل فكـرة اسـتخدامه مـرةً أخـرى. لقد أمـرتْ بحفر بئـرٍ آخر، لـم يكن من السّـهل الحفـر، لـذا كانـت التّكلفـة باهظـة الثّمن. أتسـاءل لمـا اختار البئـر، ألـم تكن كميّـة المياه فـي الميناء كافيـةٌ لإغراق نفسـه؟ لا أطيق الرجـال أمثالـه! حسـبما أذكـر، لقـد شـهدنا حالتـي انتحـار فقـط فـي فورويـنـدز. الآخـر كان فرانـك ويسـت والـد ليزلي مـور. بالمناسـبة، ألم تأتِ ليزلي لزيارتك حتى الآن؟"

شدّ الموضوع انتباه آن، فقالت: "لا، لكنني قابلتها على الشاطئ قبل بضع ليالٍ، تعارفنا وتبادلنا أطراف الحديث."

أومأت الآنسة كورنيليا برأسها.

"أنا سعيدة يا عزيزتي. كنت أتمنى أن تقابليها. ما كان انطباعك الأوّل عنها؟"

"اعتقدت أنها جميلة جدًا."

حسنًا من الأفضل أن أبدأ سرد القصة لك من بدايتها وأخبرك بما حدث، كي تَتَكون لديك صورةً كاملة. كما سبق وذكرت والد ليزلي هو فرانك ويست. وكان برغم ذكائه الشديد خمولًا جدًا حاله حال أي رجل؛ ولكن ما ميزه عن باقي الرجال هو ذكاءه الشديد. ارتاد الجامعة لسنتين قبل أن تبدأ صحته بالتراجع. يميل سكان منطقة الغرب إلى الإستهلاك، لذا عاد فرانك إلى بلدته وعمل بالزراعة وتزوج من روز إيليوت وهي من بلدة أوفر هاربر. كانت روز فائقة الجمال وأجمل جميلات فورويندز. أخذت ليزلي ملامحها من أمها بل فاقت أمها عشرات الأضعاف بشخصيتها وجمالها. لطالما اعتقدت يا آن بأنه علينا نحن معشر النساء مساندة إحدانا الأخرى. يعلم الله كم نعاني من

سطوة الرجال علينا لذا ترَيني مصرة على أن نساعد بعضنا بعضًا ومن النادر أن أتكلم من وراء ظهر إحداهن، ولكنه ليس الحال مع روز إيليوت المدللة فهي صدقًا لا تستحق أن تكون محط بدايةٍ أو اهتمامٍ؛ لم تكن أكثر من إنسانةٍ كسولةٍ وأنانية ومتأففة. عانوا الفقر بسبب كسل فرانك مع أنه كان من تجار الديك الرومي، لكن صدقيني كانوا فقراء لا يملكون سوى البطاطا ليأكلوها. رُزقا ببنت وولد هما ليزلي وكينيث. أخذت ليزلي من أمها الجمال ومن أبيها الذكاء بل فاقتهما جمالًا وذكاءً. اهتمت بجدتها الجليلة ويست؛ فقد كانت يا آن تضج ذكاءً وطيبةً ومرحًا في طفولتها. أحبها الناس كلهم وكانت ابنة أبيها.

أول خسارة تعرضت لها ليزلي كانت في عمر الاثني عشر سنة؛ فقد خسرت أخيها كينث الغلام المحبوب الذي يصغرها بأربع سنوات؛ مات مقتولًا بعد أن دهست جسده النحيل عربة محملة بحمولة تبن سقطت أرضًا في الحظيرة. والمحزن يا آن أن ليزلي شَهدت الواقعة؛ فقد كانت في المَتبَن حينها. يقول عامل الحظيرة بأنها صرخت صوتًا لم يسمع مثله من قبل، مازال صوتها يطن في أُذني إلى أن أنساني إياه غابريال ترامب؛ ولم تصدر صوتًا أو تبكي بعدها. قفزت من العلية إلى العربة على الأرض أخذت الجثة الصغيرة الهامدة المضرجة بالدماء بين يديها. لقد انتزعوه من بين يديها بصعوبة يا آن وأرسلوا ورائي... إلى الآن استصعبُ الكلام عما جرى.

مسحت الآنسة كورنيليا بلطفٍ الدموع من عينيها البنيتين وخيم الصمت عليهما لبضع دقائق.

انتهى الأمر بلمحة بصر، دفنوا كينيث الصغير في المقبرة التي فوق الميناء وبعد فترة رجعت ليزلي إلى دراستها والمدرسة؛ لم تذكر اسم كينيث البتة بعدها فأنا لم أسمعها تتلفظ باسمه منذ ذلك اليوم إلى يومنا هذا. حسب ظني الجرح يؤلم ويترك ندبة مع مرور الوقت ولكن

الموضع يختلف لدى الأولاد فالوقت ألطف معهم وهي كانت مجرد طفلة. بعد فترة وجيزة عادت لتضحك يا عزيزتي آن، وكانت تمتلك ضحكة فاتنة قلّما تسمعيها اليوم.

ردت آن: سمعتها مرة تضحك تلك الليلة بالفعل ضحكتها جميلة.

بدأت حالة فرانك ويست تتدهور بعد موت كينيث، فهو لم يكن قويًا والحادثة صدمَته وعلى الرُغم من أنَّه فضلَّ ليزلي ولكنه كان متعلقًا بابنه أيضًا مما جعله حزينًا بائسًا لا يستطيع أن يعمل أو بالأحرى لا يريد أن يعمل. ولما بلغت ليزلي سنها الرابع عشرة انتحرَ شنقًا، تخيلي يا آن أنه شنقَ نفسه في غرفة المعيشة واتخذ من الكُلاَّب الذي في السقف مكانًا لفعلتِه؛ تصرفُه لم يكن رجوليًا وبالأخصِّ أنه اختارَ توقيتًا مناسبًا فقد كان في يوم ذكرى زواجه، ومن سوء حظِّ ليزلي أنها هي أول من رأته في هذا المنظر. ففي صباحِ ذاك اليوم كانت ليزلي ذاهبة إلى غُرفةِ المعيشة تُغني ومعها ورودًا قطفتها للتو لتضعها في المَزهرية وإذ بها تتفاجأ برؤيةِ والدها يتدلى من السقف ووجهَهُ أسود كالفحم؛ صدقيني كان منظرًا مُريعًا.

انتفضت آن وقالت: يا للفَظاعة يا لها من بنتٍ مسكينةٍ.

أكملت الآنسة كورنيليا قائلةً: إنَّ ليزلي لم تبكِ أبيها كما بَكت أخيها إلا أنَّ أمها نَحبت ولطَمت كثيرًا بينما كانت ليزلي تحاول أن تُهدئ من روعها، ولا أخفيكِ بأني سَئِمتُ كما والآخرين من روز، بعكسِ ليزلي التي لم تمل من تهدِئة أمها فهي تحبها كثيرًا، ولكنها متماسكة قوية لا تحب أن يُشفقَ عليها. لقد أحرقوا جُثةَ فرانك ولم يدفنوها كما هو الحال مع كينيث وأقامت روز له نُصبًا فخمًا تُضاهي فخامته شخصية فرانك وإمكانية روز المالية فرهنت المزرعة كي تُغطي نفقات النُصب مما تركهما بلا مال. ولكن ما لبثت أن توفت ويست جَدَة ليزلي وكانت قد تركت لها مبلغًا من المال ساعدها بمتابعة دراستها لعام في أكاديمية

كوين، وقد عَقدت ليزلي العزم لتُصبحَ معلمة كي تستطيعَ كسبَ المال وتُكمل تعليمها في جامعة ريموند؛ فهذه كانت أُمنية أبيها، أراد منها أن تُكملَ ما أضاعه هو. كانت ليزلي طموحةً جدًا وتشُّعُ ذكاءً، التحقَت بالأكاديميةِ وأنهَت سنتين دراسيتَين في سنةٍ واحدة لتكون أنجزَت خطوتَها الأولى، ولما عادَت إلى بيتِها والتحقت بمدرسةِ غلين، كانت بمنتهى السعادة مُفعمةً بالأمل والحياة ومليئةً بالحماس؛ وحينما يخطر لي كيف كانت وكيف غَدت ألعنُ الرجالَ وأشتمُهم.

خرجَت كلمات الآنسة كورنيليا دالةً على حقدِها الشديد على أبناءِ آدم ولو استطاعت أن تدقَّ أعناقهم لفعلت.

قالت الآنسة كورنيليا: "تعرفت ليزلي على ديك مور في الصيف بعدَ عودتها من الأكاديمية، وهو ابن أبنر مور الذي يمتلك متجرًا في غلين ولكن ديك يهوى البحر كما تفعل أمُه، فقد كان يُبحرُ في الصيف ويُساعدُ أبيه في الشتاء. كان شابًا وسيمًا عَريضَ المنكبين إلا أنه اتّصفَ بالخُبث أيضًا، لطالما كان يسعى وراءَ ما يريد حتى يحصلَ عليه وما إن يحصلَ على مبتغاه يتركُه. لم يشتكِ البَتة طالما الرياح تجري كما يشتهي، بل كان مثيرًا للإعجاب وراضٍ بالغالب إذا ما مرَّت الأمور على ما يُرام، وكما أي انتهازي كانت له مغامراتٍ مع فتاةٍ من سكان البلدة التي كان يصطادُ منها. لم يكن مناسبًا حتى ليمسحَ حذاء ليزلي لا أكثر ولا أقل وبالإضافةِ إلى تلك الصفات كان ميثوديًا؛ إلا أنه كان متيمًا بها أولًا لجمالها وثانيًا لأنها لم تُعِره أي اهتمام، لكنَّه نذَرَ بأن تكونَ من نصيبه وحصل على نُذرِه.

سألت آن: وكيف نالَ ما أراد؟

الآنسة كورنيليا: لن أسامحَ روز ويست أبدًا فهي من ظلمت ابنتَها، آه يا آن، كانت المزرعة مرهونةً لأبنر مور وكانت الفوائد تراكم لسنوات مما سمح لديك بأن يصطادَ في الماءِ العكر؛ ذهبَ

للسيدة ويست وطلبَ منها أن تزوجَه ليزلي وإذا لم تفعلْ سيُطالبُ بالرهن. ونتيجةً لذلك ساءَت حالُ روز وصارَ يُغمى عليها وتبكي وتترجى ليزلي بألّا تحرمها من بيتها الذي دخلته وهي عروس لأنها إن تركَته سينفطرُ قلبها، أنا لا ألومها لحزنها على ضياعِ بيتها؛ إنما أن تصلَ بها المواصيل بأن تضحي بإبنتها التي هي من دمِها ولحمها كي تحتفِظَ به هذا ما لم يكن بالحسبان.

حبُّ ليزلي لأُمها كان أكبر من أن ترفضَ لها طلب وكي لا تحزَن أمَها تزوجت ديك مور، حينما تزوجَت لم نكن نعلم السبب الحقيقي وراءَ قرارِها ولكن لم يمضِ وقتًا طويلًا حتى لاحظتُ بأنَّ وراءَ القصة مسألة ما وأن أمَها من دفعَها لهذا الزواج؛ كنتُ أعلمُ بوجودِ خَطبٍ ما لأنني كنتُ شاهدةً على تجاهُلِها له في كل مرة، وليست ليزلي من تعود لتعطي ريقًا حلوًا لمن تتجاهله في أول مرة. علاوةً على هذا، فهو لم يكن الرجل الذي تتمناه على رُغم جماله وحِيَلِه. لم يُقيموا حفلَ زفاف إلا أن روز طلبت مني أن أنضم لهم في هذه المناسبة و ليتني لم أفعل، أنا التي رأيت ملامِحَ ليزلي في جنازتَي أخيها وأبيها أحسستُ حينها أنني أرى ملامِحَها كما لو كانت جنازَتها ولا أخفيكِ يا آن بأن روز كانت تضحك وكأن شيئًا لم يكن.

استقرَّ الزوجين في ويست بالاس ولم تستطع روز مُفارقة ابنتها فذهبت لتعيشَ معها في الشتاء، لكنها أُصيبت بالتهاب رؤي في الربيع وماتت بعد سنة بالطبع حَزِنت ليزلي لموتها كثيرًا؛ وقد يخطر ببالكِ كيف لنا أن نحزَن على من لا يستحق في حين أننا من الممكن أن نكون أقل تأثُرًا على من يستحق حزنَنا فعلًا؟ حسنًا لنكمل بالنسبةِ إلى دييك فكانت حياته مستقرة وكما أي رجل له طلعاتِه ونزلاتِه؛ في يومٍ ذهب إلى نوفا سكوشا حيثُ مسقِطَ رأس أبيه ليزورَ أقاربه وكتب إلى ليزلي بأنه ذاهب في رحلة مع ابنَ عمِّه جورج مور إلى هافانا على مَتنِ سفينةٍ

اسمها الأخوات الأربعة وأنه سيغيبُ لتسعِ أسابيع. لا بُدَّ أن ليزلي شعرت براحةٍ كبيرة، إلّا أنها من يومِ زواجها إلى اليوم أصبحت باردة وجافَّة مُبتعِدة عن الجميع باستثنائي، لكن لستُ أنا من يوضَعُ لها حد، فقد بَقيتُ بجانبها رُغمًا عنها لأساندها.

أضافت آن: لقد أخبرَتني بأنكِ صديقتها المقربة الوحيدة.

قالت الآنسة كورنيليا والسعادة تغمرها: هل فعلًا قالت هذا؟ كما أنا مسرورة لسماعِ هذا لأنني لطاما تساءلتُ إذا ما كان وجودي يُزعجُها فهي من البشر الذي يُحتِّم عليكِ عصرهُ لتُخرجي ما بداخله فهي بطبعها سكوتة؛ يا للمسكينة مفطورةِ القلب، كم أتمنى أن أطعن ديك مور في قلبه مع أنني لم أُقابلْه بعد.

مسحَت الآنسة كورنيليا دموعَها وقد أفضَت ما بداخلها من مشاعر مكبوتة في سردها للقصة، وأكملت:

أين كنا! آه تذكَرتُ، تَركَ دييك زوجَتَه لوحدها، وقبلَ رحيلِه زرعَ المحصول مما حتّم على العجوزِ أبنر أن يهتمَّ به. مرَّ الصيفُ والسفينة لم تعدْ أدراجها بَعد؛ وأقامت عائلةُ مور في نوفا سكوشا واتضَحَ بأن السفينة وصلَت إلى هافانا أفرَغَت حمولتها وعادت إلى الوطن مع حمولةٍ جديدةٍ، ولم يعرفوا أي معلوماتٍ أُخرى. بدأ الناس يقولون إن ديك مور قد مات، صدَّق الجميعُ موتَه مع أنهم ليسوا متأكدين إلا أنّه ما من أحدٍ غاب لسنوات عن الميناء وعادَ قَط. بالنسبةِ إلى ليزلي فهي لم تشعُرْ أنه مات وقد صدَقَ حدسُها يا حسرتي عليها، ففي الصيف التالي قصدَ الكابتن جيم هافانا قبلَ تقاعُده كي يَتسكعَ قليلًا ولأنه فضُولي لم يهنأْ له بالًا وجالَ على بيوتِ البحارة كي يأتي بأي معلومةٍ عن طاقمِ سفينةِ الأخوات الأربعة؛ كنتُ أتمنى لو أنهُ لم يتدخل لكنه لم يفعل، وذات مرةٍ خلالَ بحثِه مرَّ في مكانٍ التقى برجلٍ وقد عرَفَه من النظرةِ الأولى: إنه ديك مور لا مَحالة بالرغمِ من اللحيةِ الكبيرة، حلَقَ الكابتن

لحيةَ ديك وها هو ذا بشحمِه ولحمِه كان جسدًا لا عقلَ معه ولا روح والتي برأيي فقدها منذ زمن.

سألت آن: ما الذي حصلَ له؟

ردّت الآنسة كورنيليا: في الواقع لا أحد يعلم حقيقةَ الأمر، فأصحابُ النُزل وجدوه منذُ ما يُقاربُ السنة على عتبَةِ النُزل في حالةٍ يُرثى لها رأسه مُضرجٌ بالدماءِ وكأنه تلّقى ضربةً عليه وهو في حالةِ سُكرٍ، حملوه ليعالجوه وهم مُتَيقنين بأنه لن ينجوَ من الموت إلا أنَّه نجا؛ حينما بدءَ يتماثلُ للشفاءِ بدا كالطفلِ وفقدَ الإدراكَ والذاكرةَ والمنطقَ، حاولوا معرفةَ من يكون وذلك من خلال رسالةٍ كانت بحوذتِه ما سَلِم منها إلا عزيزي ديك والتوقيع باسم ليزلي لم تحوِ عنوانًا والمُغلَف ضائِع لذا لم يفلَحوا وهو لم يقدر على تَذكر اسمه ولا أن ينطق سوى ببعضَ الكلماتِ. أشفقوا على حالتِه وتركوه يمكثُ معهم، تعلمَ بعضَ الأعمالِ ومارسها إلى أن عثرَ عليه الكابتن جيم وأعادَهُ إلى البيت فقد اعتقدَ بأنَّ إعادته إلى موطنه قد تُساعده في استعادةِ ذاكرتِه، ولكنني أعتقد بأن تصرُفَ الكابتن كان خاطئًا وإعادتَه لم تُجدي نفعًا، مكثَ في البيت الذي فوق الجدول ولم يغادره قط فهو كالطفل ولم يتحسن منذُ ذلك الحين، كان ودودًا غيرَ مُؤذي أغلبَ الأوقات إلا أنه كان يُسيءُ التصرفَ أحيانًا ويحاولُ أحيانًا أخرى، لذا كان على ليزلي مراقبَته والعنايةَ به وحدها طِوال إحدى عشرة سنة. مات العجوزُ أبنر بعدَ عودةِ ابنه بفترةٍ وجيزة ولم يرثهما سوى الديون، ولم يبقَ لهما سوى المزرعة الغربية لذا أجرَتها ليزلي ل "جون وارد" ليعتاشا من أجارِها وفي بعضِ الأحيان كانت تُحول منزلها لنُزُلِ في الصيف لتَكسبَ أكثر، إنما يُفضلُ معظم السائحين الجهةَ الأخرى من الميناء وذلك لإحتوائها على الفنادق والأكواخ الصيفية. علاوةً على ذلك فإن البيت بعيدٌ عن شاطئ السباحةِ. ضحت ليزلي بأحلامها وطموحاتها

وكل ما كانت تصبو إليه لتَهتمَّ بذلك المعتوه ولازمَته لإحدى عشرة سنة؛ حبيبتي آن، لكِ أن تتخيلي هكذا حياة لإمرأةٍ بجمالها وروحِها وذكائها وكبريائها كأنما دُفنت وهي على قيدِ الحياة.

"كم هي مسكينة" كررت آن، وكأن السعادة تُعاكسها وتهزَأُ بها، هل لِتسعدَ هي عليها أن تعيشَ على شقاءِ الآخرين؟

سألتها الآنسة كورنيليا: هلّا أخبرتيني بما قالَتْه ليزلي وكيف تصرفت في الليلةِ التي قابلتِها فيها عند الشاطئ؟

ردت آن: لقد كانت كلها آذانٌ صاغية وأبدَت رِضاها.

قالت الآنسة كورنيليا: أظن أنك حَسِبتِهايا عزيزتي آن متكبرة وباردة بلا أي مشاعر، ولكنَّها عكسَ ذلك تمامًا، ومن الواضح أنّها أخذتك لصفِّها ما يُدخِلُ السعادةَ إلى قلبي، فمن الممكن أن تكوني خيرَ عونٍ لها. شكرتُ الله لمّا علمتُ بأنَّ زوجين سيسكنان في هذا البيت لعلَّ ليزلي تكسِبُ بعضَ الأصدقاء وبالأخصّ أنكما تتشابهانِ بالطباع، فهل ستُصادقينها يا عزيزتي آن؟

ردَت آن بعفويتها المُعتادة: بكلِّ سرور إذا ما سمَحَت لي.

ردت الآنسة كورنيليا بحزمٍ: صداقتُكما واجبٌ عليكِ سواء سمَحَت لكِ أم لا، لا تُلقِ بالًا لقسوتِها بعضَ الأحين، وتذكري ما مَرَّت به وما تَمُر وبالأخص مع شخص مثل ديك مور الذي قد يعيشُ أَبَدَ الدهر، لو ترين كم أَصبَحَ سمينًا مُنذ عادَ بعدَ أن كانَ نَحيفًا. كوني لها صديقةً فأنتِ تملكين اللباقة الكافية كي تَجعليها مُقرَّبة منك كل ما عليكِ هو أن تُخففي من حساسيتِك، وألا تبالي إذا لم تُرد منكِ الذهاب إلى بيتها؛ فهي تعلَمُ بأن أغلبَ النِسوة لا يحبون زيارتها بسبب ديك الذي يُخيفُهنَّ، لذا أقنعيها بالمجيءِ إليك كلما سَنحَت لها الفُرصةُ مع العِلم بأنَّها لا تستطيعْ تركَ ديك بمفردِه لأنه قد يُحرُقُ البيت؛ وعندما تَرينَها عندَ الشاطئ ليلًا فذلك لأن ديك يكون نائمًا، فهو ينامُ باكرًا إلى الصباحِ

التالي كالقتيل مما يُتيحُ لها التجوالَ في تلك المنطقة.

أجابَت آن: لا عليكِ سأفعلُ ما بوسعي لأجلِها.

زادَ اهتمامُ آن بِليزلي ألف مرة بعدَ سماعِها القصّة عن لسانِ السيدة كورنيليا والذي كان واضحًا سلفًا منذُ أن رأتها تسوقُ الإوز أسفلَ التلّة. أعطاها جمالُها وبؤسُها ووحدتُها سحرًا خاصًا بها، لم تلتقِ آن بشخصيةٍ مثلها من قبل فجميعُ صديقاتها إلى الآن كُنَّ شبهها هانئات ومرحات لا همَّ لهن سوى مُلاحقة أحلامهن البناتية؛ إنما ليزلي حالةٌ فريدةٌ من نوعها فهي تمثل صورة المرأة المُحبطة اليائسة. صممَت آن على الدخولِ إلى مملكةِ هذه الروح الوحيدة وإيجادِ الصداقة التي ستُعطى بسخاءٍ بعدَ تحريرها من القيودِ التي سَجنَتها رَغمًا عنها.

عادت الآنسة كورنيليا لتقول لِآن التي لم يرتح بالها بالكاملِ بعد: "ولا تفكري يا عزيزتي آن أنها لا تذهب إلى الكنيسة لأنها غير متدينةٌ أو ماثودية، كل ما في الأمر أنها لا تستطيع اصطحاب ديك معها، الذي كان في أفضلِ أيامه لا يذهب إلى الكنيسة، وتذكري يا عزيزتي آن بأنها تملكُ قلبًا مؤمنًا إلى أبعدِ الحدود.

***

12
مجيء ليزلي



ذهبَت ليزلي إلى منزل الأحلام في ليلةٍ باردةٍ من ليالي تشرين الأول، ليلة كانت تنشرُ ضوءَ قمرِها فوق الميناء ليتماوج كشرائطَ فضيةٍ على طولِ الساحلِ وفوقَ الوديان. ترددَت ليزلي بالدخولِ حين فتحَ جيلبرت لها الباب، ولكن آن تداركت الأمر بلحاقها بزوجها واستقبالها وادخالها عنوةً إلى بيتهما.

قالت آن بصوتٍ تملأه السعادة: "كم يسرُني أنكِ لبّيتِ دعوتي هذه الليلة، قد أعدَدتُ الكثيرَ من الحلوى لهذه الأُمسية كي نتناولها أمام موقدِ النار ونحن نتبادلُ أطرافَ الحديث وربما ينضمُّ إلينا الكابتن جيم أيضًا.

ردت ليزلي: "لن يأتيَ الكابتن جيم،"

وأضافت بلهجةٍ شبهَ حادةٍ: "لقد أجبرني على المجيء."

قالت آن وهي تضعُ الكراسي أمامَ الموقد إنها ستشكرُه لتصرفِه عند لقائه.

احتجت ليزلي وقد اعتلى الخجلُ وجهها: 'لم أقصد بأنني لا أريدُ المجيءَ، على العكسِ، لقد وردَت لي فكرةُ الزيارة، ولكن ليس من

السهلِ عليَّ أن أتركَ البيت في أي وقت."

قالت آن بكلِّ إدراك: "طبعًا من الصعبِ تركُ السيدَ مور."

فقد قررت آن ذِكرَ ديك مور بينَ الفينةِ والأُخرى لأنَّهُ واقعٌ مفروضٌ لا يجوزُ تفاديه.

صدَقَ تخمينُها فقد زالَ إحساسُ الإرتباك لدى ليزلي لأنها لطالما تساءَلَت بينها وبينَ نفسها عمّا تعرفه آن عن ظروفِ حياتها والآن أحسَّت بالراحة لأنها ليست مضطرة لإعطاءِ التفسيرات، أعطتها معطفها وقُبعتَها وجلسَت براحةٍ على الأريكة الكبيرة، كانت ملابسُها في غايةِ الحشمةِ والجمال مع وشاحٍ تقليدي بلونٍ قُرمزي تلُّفه على عُنقِها الأبيض، يلمَعُ شعرها الذهبيُّ مع وَهجِ النار، وتشُّعُ عيناها الزرقاوتان بالبَشاشةِ والجاذبيةِ. في تلكَ الأثناء، وفي منزلِ الأحلام عادت لتكون فتاةً بمنأى عن ماضيها المرير؛ كّرسَ هذا البيت الصغير أجواءً مِلؤها الحب لأجلها، لقد شعرَت واستسلمت للسحر الذي لَّفَّها من جراءِ صحبتِها لشابين مُعافَين وسعيدين من عُمرها. أثّرت هذه الأجواء فيها وجعلت السيدة كورنيليا والكابتن جيم وكأنهما يتعرفان عليها للمرةِ الأولى، وتفاجأت آن فهي لم تُصدق أنها هي ليزلي نفسها الباردة المُهملة التي التقَتها على الشاطئ، فهي ترى أمامها فتاة تتكلم وتُصغي بإمعان لتَروي روحها المتعطشة وفي نفسِ الوقت كانت تختلسُ النظرَ بعينيها إلى المكتبة من خلالِ النافذة.

قد لاحظت آن نظرات ليزلي فقالت لها: "مكتبَتُنا متواضعة، إنما كل كتاب فيها عبارةٌ عن صديق فقد اخترنا كُتبَنا بعنايةٍ مع مرور السنين من هُنا وهُناك، لا نشتري كتابًا إلا بعدَ تصفُّحِه والتأكدِ من أنه يناسبُ ميولنا.

ضحِكَت ليزلي ضحكةً تُشبه أصداءَ البهجةِ التي تلفُّ أرجاءَ البيتِ الصغير خلال الأعوام المنصرمة.

قالت ليزلي: "أملكُ بعضَ الكتبِ التي كانت لأبي، قرأتُها حتى

حفظتُها عن ظهرِ قلب؛ ولا أملكُ الكثيرَ من الكتبِ بالرغمِ من أن متجر غلين يحتوي على مكتبةٍ دوّارة ولكنني لا أظنُّ أنَّ اللجنةَ المسؤولة عن اختيارِ الكتب للسيدِ باركر تَعرفُ الكتُبَ الخاصة بطائفتِنا أو أنهم لا يهتمون، لذا كانَ من النادرِ ما أجدُ كتابًا يستحوذ على تفكيري فقررتُ العدول عن البحثِ."

ردَّت آن: " أتمنى منكِ أن تعتبري مكتبتِنا مُلكًا لكِ، ولكِ مُطلقُ الحُريةِ باختيارِ أي كتاب منها."

ردّت عليها ليزلي بخجلٍ: " إنك تُقدمين لي عرضًا لا يُفوَت."

دقَّت الساعةُ مشيرةً إلى العاشرة فوقَفَت مُجبَرَةً وقالت: "عليَّ الذهاب، لم أنتبه لتأَخُرِ الوقت." لطالما قالَ لي الكابتن جيم بأنَّ الساعةَ تمرُّ بلمحِ البصر. وتابعت بعفويةٍ: "ولكن ها قد مضَت ساعتين ولم أشعر بالوقت، وقد استمتَعتُ كثيرًا."

قالت آن وجيلبرت: "زورينا بينَ الحينِ والآخر."

وقفا ليودعاها على وَهجِ النّار، نَظرَت ليزلي إليهما فهما يُمثلان الشبابَ والأملَ والسعادةَ التي ضاعَت منها وفقدَتها للأبد. انطَفأَ بريقُ عَينَيها واختفَت الفتاةُ المرحة، وعادَت إلى سابق عهدِها تلكَ الإمرأةُ الكئيبةُ المخدوعةُ التي قبِلَت الدعوةَ على مضضٍ ذهبَت على استعجالٍ يملؤُها البؤسُ.

ظلَت آن تُراقبُها حتى اختفَت في ضبابِ الليل البارد، وبعدها عادَت على مهلٍ إلى موقدِها الدافئ.

سألت: "أليسَت جميلةً يا جيلبرت؟ جذَبَني شعرُها، تقولُ السيدة كورنيليا أنّه يصلُ إلى قدمَيها، صحيحٌ أنَّ شعرَ روبي جيليس جميلٌ إلا أنَّ شَعْرَ ليزلي يَنبضُ بالحياةِ كُلَّ خصلَةٍ منه تشّعُّ كالذهب.

وافقَها جيلبرت الرأي بمَدحِه لِليزلي إذ وصفَها بالجميلةِ جدًا، مما أثارَ غَيرَةَ آن وتَمنَت لو أنه أظهَرَ حماسًا أقَل.

وسألَته آن بحزن: "هل كنتَ لتُحِبَّ شَعري لو كانَ كَشعرِ ليزلي؟"
أجابها جيلبرت: "لا يُعجبني شعرٌ في العالم مثلما يعجبني شعركِ."
حينها قالَت آن والسعادةُ تغمُرُها: "ما كنت لأكونَ آن لو كان شعري أشقر أو أيَّ لونٍ آخر غيرَ الأحمر."
قالَ جيلبرت وهو يُغازلَها: "نعم أحمر ليُضفي حرارةً على بشرَتكِ البيضاء وعينَيكِ الرماديتَين المائِلتين للخُضرةِ، فالشعرُ الأشقر ما كان ليُناسبكِ أيتها الملكة آن، مَلِكَتي آن مَلِكة بيتي وقلبي وحياتي."
فقالت له آن بثقةٍ عارمةٍ: "إذًا باستطاعتِك أن تُعجبَ بِليزلي قدرَ ما تشاء."

***

13

ليلة الأطياف



بعدَ أسبوعٍ، وفي مساءٍ ضبابيٍ آتٍ من الخليجِ ليكسو المرفأ، ويملأَ الأوهدةَ والأوديةَ، وينتشر في المروج الخريفية، ومن ورائه البحرَ مُتعكرًا وهائجًا؛ قررت آن الذهابَ عبر الحقولِ إلى البيت الذي فوق الضَّفة كي تتصِلَ بأحدِ الأقارب. رأت آن فوروينذز بحلَّةٍ جديدةٍ كلَّها غرابة وغموض وجاذبية، إلّا أنَّ هذه الأجواءَ جَعلَت آن تشعرُ بالقليلِ من الوحدة وبالأخصِّ مع غياب جيلبرت الذي قد يطول إلى اليوم التالي فهو قد ذهب إلى اجتماعٍ طبيٍّ في شارلوت تاون. أمضَت آن ساعةً من الزمنِ مع صديقةٍ لها، إنها تُحبُّ قضاءَ الوقت مع السيدة كورنيليا والكابتن جيم فهما صديقين جيدين ولكلٍّ منهما طريقته، ولكنها تحتاجُ من وقتٍ إلى آخر قضاء بعض الوقتِ مع من هم في عُمرها.

فكرت آن في نفسها كم كان من الممتِعِ لو تستطيعُ فيل أو ديانا أو بريس أو ستيلا المجيء كي تتبادل معهم أطراف الحديث، يا لها من ليلةٍ موحِشَة، بدأَت تُفكرُ آن بأنَّه لا بُدَّ من أنَّ أطياف وطاقمِ السفن، التي أبحَرَت إلى قدرِها، الغَارِقين يطوفُون فوق الميناءِ؛ لو أنَّ هذا الضبابُ

يختفي بلمحِ البصر، قالت آن في قرارةِ نفسها، كم أشعرُ بأنَّ هذا الضباب يُخفي الكثيرَ من الغموضِ كما لو أنني مُحاطةٌ بأشباحٍ من العهدِ القديم لِ"فوروينذز" يُحدقون بي عبر هذا الوشاحِ الرمادي. أخذَتها أفكارُها إلى أبعدِ من هذا، ففكرَت أنَّ السيدات اللواتي تعاقَبْنَ على هذا المنزلِ الصغير وقد وافتْهُنَ المنيَّةَ سيزرنَه في مثلِ هكذا ليلةٍ، وأنها ستراهُنَّ أمامها جالسات على كُرسي جيلبرت فبيتي اليوم ليسَ مريحًا البتة، حتى أن يأجوج ومأجوج يشعران في وخزٍ في آذانِهما بسببِ خطواتِ الضيوفِ غير المرئيين؛ وقالت لنفسها إنه من الأفضلِ لها الذهابِ إلى ليزلي قبلَ أن تُخيفَ نفسها أكثر بتخيلاتِها كما فعلت مُنذ زمنٍ في الغابة المسكونة. أكمَلَتْ: سأُغادرُ منزلَ الأحلامِ ليَستقبِلَ سُكانه القُدامى، ستُرحبُ بهم نارُ الموقدِ وتوصِلُ لهم تحياتي فالليلةُ هي ليلةُ اللقاءِ مع الراحلين وسيكونون قد رحلوا عندَ عودتي."

ضحِكَت آن على تهيئاتِها ومع ذلك ظلَّت المخاوفُ تُساورُها، سلّمَت آن أمرها للرب وانسلَّت عبرَ الضبابِ تَحملُ بين ذراعَيها بعضَ المجلات لِ"ليزلي."

كانَت قد أخبرَتها الآنسةُ كورنيليا بأنَّ ليزلي تتوقُ للكتُبِ والمجلاتِ، وقلَّما كانت تحصلُ عليها، فلم يكن بقدرتِها شراءها أو الإشتراك فيها، فهي تعيشُ حالةَ فقرٍ شديدةٍ، اللهُ وحدَه يعلمُ كيفَ تُدبرُ أمورَها بالمبلغِ الزَّهيدِ الذي تحصَلُ عليه من أجارِ المزرعةِ فهي لم تشتكِ من فقرِها البتة ولكنَني أعلمُ ما تمرُّ بِهِ؛ لم تكترِث يومًا لفقرِها ففي البادئ كانت حُرّةً وطموحة، إلا أنني أبصمُ لكِ بالعشرةِ أنَّ الفقرَ الآن يُثيرُ غضبَها. ولقد سرَّني ارتياحَها وزُهُوَّها أثناءَ زيارتِها لكِ، فقد أخبرني الكابتنُ جيم أنّه دَفعَها إلى خلعِ معطفها والدخولِ لأنَّها كانت مُترددةً لذا لا تُطيلي الغيابَ عنها لأنكِ إن أطلتي الغيابَ ستَحسبُ أن ديك السبب وستعودُ إلى التقوقُعِ مُجددًا. لم يكن ديك أكثر من طفل كبير وضخم لا

يُسببُ أي أذى، إلا أنَّ ضحكتَه الهبلاءَ وابتسامتَه كانتا تثيران أعصابَ البعضِ ولكنني لم أكن أتأثر الحمد لله وإنّي أفضلُ ديك بوضعه الحالي أكثرَ من ذي قبل عندما كان سليمًا مع العلمِ أنه لا فرقَ بين الحالتين؛ في مرةٍ، كنت أساعدُ ليزلي بالتنظيف، وبينما كنتُ أقلي الدونات، وإذ به يقترب على مهلٍ ويأخذُ واحدةً ويأكُلُها وهي ساخنةً من وراءِ ظهري، وضحكَ بشدّةٍ، ودَدتُ أن أرمي عليه المقلاةَ والزيتَ المغلي إلا أنني أمسكتُ أعصابي يا آن.

ضحِكت آن من انفعالِ الآنسة كورنيليا بينما تُسرعُ في خُطاها عبرَ الظلام، زادَ ضحكُها من اضطرابها مع ليلةٍ كهذه واستعادَت رُشدها عندَ وصولها إلى البيت الكائن بين شجرِ الصفصافِ، كان الصمتُ يلفُّ المكانَ، بدا البيتُ من الأمام مظلمًا ومهجورًا لذا اتجهَت آن إلى البابِ الخلفيّ الذي يُوصِلُ من الشُرفةِ حيثُ وقفَت آن بصمتٍ إلى غُرفةِ المعيشةِ.

يَنسلُّ ضوءٌ خافتٌ من البابِ المفتوح، وتظهرُ ليزلي من خلفِ البابِ جالسةً تسنِدُ رأسها بِذراعَيها المُكتفَين على الطاولة، تبكي بِحرقةٍ كَأنَّ ألمها يحاولُ الخروجَ من روحها، يجلسُ بجانبها كلبٌ أسودٌ عجوزٌ تُبدي عيناه الصامِتَتان كلَّ الشفقةِ والتعاطفِ. عادَت آن أدراجها والارتباكُ يتملكُها وأحسَّت بأنها لا تستطيعُ التعاملَ مع كل هذا البؤسِ، اعتصرَت الشفقةُ قلبَها لدرجة أنها لم تستطعْ النطقَ؛ ولكن رحيلها الآن يعني انقطاعَ أي أمل بالصداقة أو المساعدة بينهما، وعلمَت آن بِحدسها أنَّ الفتاةَ ذاتُ الكبرياءِ والألمِ لن تُسامحَ من يفاجِئها بالرحيلِ وهي بهذه الحالة.

انسَلّت آن من الشُرفَةِ عبرَ الساحةِ بهدوءٍ، سمِعت أصواتًا آتيةً من بعيد ورأت بعضُ وهجِ الضوءِ يكسرُ العتمةَ، وفي طريقِها إلى البوابةِ التقَت برجلين أحدهما الكابتن جيم وبيدِه مصباح والآخر كان ديك

مور من دون شك، رجلٌ ضخمٌ شديدُ السُمنةِ وجهُه أحمر اللون دائري مُفلطح وعيناهُ خاويتان. علمَت آن وبالرغمِ من الضوءِ الهافت أنَّ في الأمرِ خطبٌ ما.

قال الكابتن جيم لحظة اللقاءِ: "أهذه أنتِ يا سيدة بِلايث؟ كيفَ لكِ أن تتجولي بمفردكِ في ليلةٍ كهذه؟ قد تتوهين بسهولةٍ في هذا الضبابِ، انتظريني حيثُ أنتِ ريثما أُوصِلُ ديك إلى بيته وأعودُ لأُضيءَ لكِ الطريقَ، لن أسمحَ بأن يعودَ الطبيب بلايث ليَجِدَكِ تائهةً كما حصلَ ذات مرَّةٍ مع إحدى النساءِ من أربعين سنةٍ.

ولدى عودَته إليها قال: "لا بُدَّ أنكِ ذهبتِ لرؤيةِ ليزلي."

ردَت آن: "لم أدخل." وروَت له ما رأته فتنهدَ حينها الكابتن جيم وقال:

"مسكينةٌ هذه الفتاة، وهي قلّما تبكي فهي شُجاعة يا سيدة بلايث وتشعرُ بالفظاعة حينَ تبكي، وأُؤكدُ لك أنَّ ليلةً كهذه صعبةٌ على امرأة تُعاني من الأحزان. ما سرُّ قدومكِ إليها في مثلِ هذه الليلة التي تجعلنا نعاني أو نخافُ."

ردَت آن بصوتٍ مُرتجفٍ بيتي مليءٌ بالأشباحِ، لذا قررتُ أن آتي كي أشعرَ بلمساتٍ بشريةٍ وأسمعَ صوتًا بشريًا."

قال الكابتن جيم: "تزيدُ أجواءَ هذه الليلةِ من حضورِ الأشباحِ، حتى أنها حضَرَت إلى بيتي، وأرغمتني على تركِ البيت لذا أتيتُ إلى هنا كي أكونَ بصُحبةِ أبناء جنسي."

وأكملَ قائلًا: "كنتِ مُحقَّةً يا سيدة بلايث بالرجوعِ أدراجكِ فليزلي لم تكن لتُرحبَ بوجودك، ولن يُعجبها دخولي مع ديك وما منعني من الدخول إلا لقائي بكِ. أمضى ديك اليومَ بطولِه معي، أُبقيه معي على قدر استطاعتي كي أُساعدَ ليزلي قليلًا."

"ما خطبُ عينيه؟" سألت آن.

رد الكابتن جيم: " هل لاحظتِ؟ بالفعل، إحداهما لونها أخضر والثانية لونها عسلي مثلَ عيني أبيه إنها جينات آل موور، هذه هي الميزة التي ساعدتني على معرفتِه لحظةَ رأيتُه في كوبي، ولولا عيناه ما كنتُ لأعرفَه بلحيتِه وسُمنِه، أُعتبرُ أنا من وجَدته وأعدتُه إلى الديارِ. لطالما لامَتني الآنسة كورنيليا لإعادته ولكنني أُعارضُها الرأي، فتصَرُفي هو الصواب ولا شكَّ في رجاحةِ ما فعَلت، ولكن قلبي يعتصرُ على ليزلي فهي بالكادِ تبلغ من العمرِ ثمانيةَ وعشرين ولقُمَتُها مُغمسةٌ بالهمِّ أكثر من العجائزِ.

أكملا سيرَهما صامتين لبعضِ الوقتِ الذي قطَعَته آن بقولها: "هل تعلم أيها الكابتن جيم أنني لا أحبُّ المشيَ على ضوءِ المصباح، وينتابُني شعور أنني مُحاطةٌ بمخلوقاتٍ ماكرةٍ خارجَ نطاقِ الضوءِ في العتمة، أحسُّ أنها تراقبُني بعيونِها الحاقدةِ من بعيد؛ ينتابُني هذا الشعورُ منذُ صغري تُرى ما السبب؟ والغريب أنني لا أشعرُ بهذا الشعورِ حين أكون في الظلامِ الدامس، فحين يحاوطُني من كلِّ جهةٍ لا أخافُ البتة."

اعترفَ الكابتن جيم أنه يشعرُ بنفسِ ما تشعُرُ به آن، وقال: "أعتقِدُ أنَّه حين يحاوطُنا الظلامُ يكون صديقًا لنا ولكن حين نضيءُ لو بالقليل يُحسُّ أننا نتخلى عنه فيُصبِحُ كالعدو، على كلِّ حال، الضبابُ ينحسرُ، وبدأت نسمةٌ غريبَةٌ بالهبوبِ كما تُلاحظين وستَمتَلئُ السماءُ بالنجومِ."

امتلأتِ السماءُ بالنجومِ، وعندَ عودةِ آن إلى بيتِها "بيت الأحلام" كانت بعضُ الجمراتِ لا تزال مشتَعِلةً وكلُّ الأطيافِ قد ذهبَت.

***

14
أيام تشرين الثاني



بدأَت

الألوانُ الزاهيةُ الجميلةُ التي كست شواطئ فورويندز بالتلاشي لتَحِلَّ محلها ألوانُ الخريف في التلالِ، وبين الفَينةِ والأُخرى تهطلُ زخاتٌ من المطرِ على الحقولِ والشواطئ، تُنذرُ بهبوبِ رياح البحر السوداء والعواصف والزوابع، مما كان يدفعُ آن في بعضِ الأحيان للدعاءَ كي لا تصطدمَ أيَّ سفينةٍ بالشاطئ الشمالي أو تغرق وأن تصِلَ كل السفن سالمةً إلى برِّ الأمان.

وفي وسط سرحانها تنهدّت آن مُفكرةً أنه في شهر تشرين الثاني تشعرُ كأن الربيعَ لن يأتيَ حزينةً على أزهارها ونباتاتِها المتجمدة الميتة، ولا بُدَّ من أن حديقة مدرسة إعدادِ الزوجات البهيّة أصبحت الآن بائسةً، وعلى حدِّ قولِ الكابتن جيم، فالحقولُ والبساتين أصبحت جرداءَ أيضًا، ولكن الأمر ليس سيان للغابة التي خلفَ البيوتِ الصغيرة فهي تبقى خضراء. وحتى في أيامِ تشرين الثاني وكانون الأول تمرُّ أيامٌ مشمسةٌ لطيفةٌ زاهية، ترى فيها الشواطئَ وكأنها ترقصُ وتزهو كما لو كانت في أيامِ الصيف ويغدو الخليجُ أزرق هادئًا وكأنَّ العواصفَ والرياحَ العاتيةَ مجرد كابوسٍ مضى.

كان جيلبرت وآن يقضيان ليالي الخريف في المنارة فهي تبعثُ بالبهجةِ حتى لو غرِقت رياحُ الشرق بطفافةٍ وكان البحرُ رماديًا كالميت، وبدَت أشعةُ الشمسِ تُلَمحُ في كل مكان؛ ربما عادَ تفضيلهم للمكان بسببِ الوكيلِ الأولِ الذي عرضها في لوحةٍ من ذهب. كان الوكيلُ عظيمًا ومتألقًا تألُقَ الشمسِ، شَكلَت قرقراته الطنانة رِفقة ممتعة للمُحادثة والضحك، كانت تقام حولَ موقِد الكابتن جيم. لطالما دارَت أحاديثٌ طويلةٌ وشيِقة بين الكابتن جيم وجيلبرت، ما عدا أحاديث عن القطِّ كين أو الملك.

قالَ الكابتن جيم: "أحبُّ الحديثَ عن جميع المواضيع الشائكة وغيرها حتى لو أنني لا أعرفُ حلَّها؛ بالرغم من تحفّظِ أبي، فهو لا يحب أن نتكلمَ في الأمور التي لا نفقهُها، ولكن إن لم نفعل يا طبيب ستكون أحاديثنا قليلة. أعتقدُ أنَّ الآلهةَ تضحكُ لدى سماعِها لنا، ولكن ما يهم أن نتذكرَ دائمًا بأننا بشر وألا نتعدى حدودنا وننصبَ أنفسنا آلهةً لمُجردِ معرفتنا للخيرِ والشر. وأعلمُ تمامًا أن اجتماعتنا لن تضرُّنا أو تضرُّ أحد لذا لنأخذَ دفعةً أخرى الآن وفي هذا المساءِ يا طبيب."

تُنصِت لهما آن أو تحلم بينما يتبادلان أطراف الحديث، وفي بعضِ الأحيان تذهبُ ليزلي معهم إلى المنارة، فتتجولُ مع آن على طولِ الشاطئ في الظُلمة أو تجلسان على الصخور التي أسفل المنارة إلى أن يسأما من الظلامِ الدامسِ فتعودان إلى حُضن النور عندها يستقبلهما الكابتن جيم مع كوبين من الشاي ويقولُ لهما:

"كان يا ما كان سالف العصر والأوان لحتى كان."

لطالما أحبت ليزلي جو السهر واللهو في المنارة فتراها تتفتحُ كالبراعمِ وتكون بمنتهى خِفةِ الدم، لا تُفارقها الضحكة وتشع عيناها فرح. لحضورها طعمٌ آخر وعندَ غيابها تكون الأجواء مُختلفة، حتى صمتها يُضفي رونقًا مُميزًا؛ الكل يظهر بحُلّة مختلفة فترى الكابتن جيم

يكي قصصَه بحماسٍ والطبيب جيلبرت يُناقشُ بحفاوةٍ أكبر وآن تشعرُ أنها تتكلمُ بطلاقةٍ والكلمات تنسابُ إلى شفتيها بكلِّ فخامةٍ كما الخيالِ مُتأثرةً بشخصيةِ ليزلي.

وفي ليلةٍ في طريقِ العودةِ إلى البيت قالت آن لِجلبيرت: "وِلدَت ليزلي لتكونَ قائدة ومُؤثرة في مجتمعٍ مخمليٍّ بعيدًا عن فوروويندز، وحقُّها مهدورٌ هنا."

جيلبرت: "ألم تسمعي ما قاله الكابتن جيم عندما ناقشنا هذا الموضوع بشكلٍ عام في إحدى سهراتنا؟ توصلنا إلى نتيجةٍ مفادها أن الرب يعلم تمامًا كيف يُديرُنا ويُدير هذا الكون، ولا وجود إلى ما يُسمى حياة ضائعة باستثناء ذاك المتعمد الذي يهدر ويُضيعُ حياته أو حياتها، وبالطبع ليزلي موور لم تفعل، كما الحال تمامًا بمن يظن أن ردموند أ.ب. الذي كرَّمه المحررون قد أضاعَ حياته كما فعلتِ أنتِ كي ترتبطي بطبيب يجولُ في مجتمع ريفي مثل- فوروويندز."

قالت آن ممتعضة: "جيلبرت!"

تابعَ جيلبرت كلامه بقسوة: "لو كنتِ تزوجتِ روي غاردنر لكنتِ سيدة في المجتمع الأرستقراطي الآن بعيدًا عن فوروويندز.'

صاحت آن بإنزعاج: "جيلبرت بلايث."

أكملَ جيلبرت ببرود: " تعلمين أنكِ كنت واقعةً في حبه حينها يا آن."

قالت آن: "هذا بمنتهى الأنانية والقسوة يا جيلبرت، حالُك حال أي رجل تمامًا كما وصفتكم الآنسة كورنيليا، لم أُحبه قَط تهيأَ لي أنني أُحبه وأنت تعلمُ هذا كما تعلم أنني أفضلُ أن أكونَ زوجتك المقدّرة في منزلِ الأحلامِ على أن أكون سيدةُ قصر."

لم تأتِ إجابةُ جيلبرت على هيئةِ كلمات، بل على هيئةِ حبٍ أنساهُما تلك المسكينةَ ليزلي التي تعبرُ الحقولَ وحدها إلى بيتٍ لا هو بقصرٍ

ولا يملأهُ التقديرُ.

ارتفعَ القمرُ فوق البحرِ الأسودِ الحزينِ خلفَهم ليُغيِّرَ من شكله، لم يصل ضوءُه إلى المرفأِ بعد وكانَ جانبُه الآخر مُظللًا يملأُه الغموضَ بوجود الفجواتِ القاتمةِ والألوانِ الزاهيةِ والأضواءِ اللامعة.

قالت آن: "كيف لأضواءِ البيت أن تلمع بهذه الروعةِ في هذا الظلام، انظر إلى تلك السلسة التي في السماءِ، كأنها عقدٌ يتلألأ فوقَ المرفأ مما يُضفي رونقًا خاصًا لِـ"غلين"، انظر يا جيلبرت إلى بيتِنا من الجيدِ أننا أبقينا فيه ضوءًا شاعِلًا فأنا أكرهُ الرجوعَ إلى بيتٍ مُظلم؛ كم هو جميلٌ يا جيلبرت رؤية ضوء منزلنا من بعيد."

رد جيلبرت: "إنه بيتٌ من بين ملايين البيوت التي على وجه الأرض، ولكن يا صغيرتي آن ما يميزه أنه لنا وأنه كالمنارة في هذا العالم البائس؛ ما الذي يريده الرجل من هذه الحياة أكثر حين يحظى بزوجةٍ جميلةٍ رقيقةٍ ذات شعرٍ أحمرٍ مثلك؟"

همست آن بسعادةٍ: "قد يطلب أمرًا بعد."

وأكملت بصوتٍ مسموع: "كم أتوقُ لفصلِ الربيع."

***

15

عيدُ الميلاد في فوروينِدز



في بادئِ الأمر قرر جيلبرت وآن الذهابَ إلى مدينتهما آفونلي لقضاءِ عيدِ الميلاد، إلا أنهما قررا لاحقًا البقاءَ في فوروينِدز؛ طلبت آن أن يبقيا في بيتهما الخاص ليقضيا أول عيد ميلادٍ لهما فيه مع بعضهما.

فكان من الواضحِ أنَّ ماريلّا والسيدة ريتشل ليند والتوأم سيأتون إلى فوروينِدز لتمضيةِ العيد. يوحي وجهُ ماريلّا كأنها تجولت حول العالم في حين أنها لم تبتعد عن منزلها هذه المسافةَ من قبل. ولم تتناول عشاء الميلاد خارِجَ بيتِها في المرتفعات الخضراء باستثناء مرةً.

أعدّت السيدة ريتشل حلوى الإجاص لأنها تعتقد أنّه ليس بإمكان فتاةٍ من هذا الجيلِ متخرجةً من الجامعة أن تُعِدَّ حلوى الإجاص كما يجب، في حينِ أنَّ منزلَ آن قد نالَ إستحسانها.

قالت السيدة ريتشل لِ"ماريلّا" ليلةَ وصولهما إلى البيتِ وبينما كانتا في غُرفتهما إنَّ آن ربة منزلٍ ناجحة وأنها حكمت عليها من خلالِ صندوقِ الخبزِ ومستوعبِ النفايات فهي تحكمُ على ربةِ المنزل بالنظرِ إلى هذين الغرضَين؛ فليس في مستوعبِ النفايات ما لا يجبُ رميَه ولا يحتوي صندوق الخبز على فُتات، طبعًا فهي تعلمت الترتيب منك يا

ماريلّا ولكنها قصدت الجامعة بعدَ ذلك. كما لاحظَت السيدة أنَّ آن وضعَت لِحافَ شريطِ التبغِ خاصتها على السرير، ووضعَت السجادةَ المضفّرةَ المستديرةَ الكبيرةَ التي أعطَتها إياها ماريلّا أمامَ الموقد في غرفةِ المعيشة ما جعلها تشعرُ وكأنها في منزلها.

مرَّ أولُ عيد ميلاد في بيت آن الخاص بسلاسةٍ كما تمنَت بالضبط، كان اليومُ جميلًا ورائعًا تساقطَت أولُ حفنةٍ من الثلجِ ليلة الميلادِ فأضفت على عالمِ جمالًا إضافيًا وظلَ المرفأُ مفتوحًا يشعُّ لمعانًا.

قاموا بدعوة كل من الكابتن جيم والآنسة كورنيليا وليزلي وديك إلى العشاءِ، لبّى الكابتن والآنسة كورنيليا الدعوةَ إلا أنَّ ليزلي اعتذرت بحجةِ ذهابِها إلى عمِها إسحاق ويست لقضاءِ عيد الميلاد.

قالت الآنسة كورنيليا لِ"آن": "تمَنَت ليزلي تلبيةَ الدعوةِ إلا أنها لا تجرؤُ على اصطحابِ ديك معها أمامَ الغرباءِ. ولطالما شكَّلَ عيدُ الميلادِ وقتًا عصيبًا لها ولأبيها الحصَّةَ الأكبر من هذا الشعورِ."

لم تتواجه الآنسة كورنيليا والسيدة ريتشل كثيرًا، "لا تسطع شمسان في سماءٍ واحدة" فكلُّ واحدةً منهما كانت منشغلةً لذلك لم تتصادما؛ فالسيدة ريتشل كانت تساعدُ آن وماريلّا بإعدادِ الطعامِ في المطبخ، وكان على جيلبرت مهمةَ تسليةِ الكابتن جيم والآنسة كورنيليا أو يستمتعُ هو بالحوارِ الشَّيق واختلافات الرأي التي تدورُ بين هذين الصديقين اللذين تربطُهما صداقةً منذُ زمنٍ.

قالَ الكابتن جيم: "لقد مرَّ زمنٌ طويلٌ منذُ أن أُقيمَ عشاءُ الميلادِ في هذا البيت يا سيدة بلايث، كانت الآنسة راسيل تذهبُ إلى أصدقائها في المدينةِ لقضاءِ الميلاد؛ ولكنني حضرتُ أولَ عشاءٍ أُقيمَ في هذا المنزلِ وقد حضّرت العشاءَ مديرة مدرسةِ إعدادِ الزوجات كان هذا الحدث منذ ستين سنةٍ تقريبًا وكانَ يومًا كهذا اليوم يا سيدة بلايث تساقطَ الثلج إلى أن أصبحت التلالُ بيضاءَ والميناءُ كئيب كشهرِ حزيران، كنتُ

الشابَ الوحيد آنذاك ولم أُدعَ إلى عشاءٍ من قبل فكنت أشعر بالخجل الشديد ولم آكل كفايتي إلا أنني تخطيتُ الأمر بسرعةٍ.

فقالت الآنسة كورنيليا بحدةٍ بينما كانت تحيكُ: "معظمُ الرجالِ يعتادون الأمر." لم يردع الآنسة كورنيليا عن الحياكةِ أيةُ مناسبةٍ حتى ليلةُ الميلادِ.

يُولدُ الأطفالُ في الأعيادِ من دونِ سابقِ إنذار، وكان من المتوقعِ قدومِ مولودٍ لعائلةٍ فقيرةٍ في غلين سانت ماري، لذا تبرَعت الآنسة كورنيليا بالعشاءِ لهذه العائلةِ الفقيرةِ إحتفاءً بالمولودِ الجديد كي تحظى بعشائها وهي مرتاحةُ الضمير.

قال الكابتن جيم شارحًا: "كما تعلمين يا كورنيليا، إن الطريقِ إلى قلبِ الرجلِ هو معدتَه."

فردَت عليه الآنسة كورنيليا: "كنتُ لأُصدقُك لو كان للرجلِ قلب، تُمضي النساءُ عمرها وهي تطبخُ تمامًا كما حدثَ مع المسكينة أميليا باكستر، ماتت صباحَ الميلادِ الفائت وقبلَ موتِها قالت هذا أولُ عيدِ ميلادِ يمرُّعليَّ من دونِ طبخِ وليمة، في كلِّ وليمةٍ أطبخُ عشرين طبقًا لا بدَّ من أنها سُرَّت من هذا التغيير. ها قد مرَّت سنة على موتها وستسمعُ قريبًا أنَّ هورايس بدأ البحثَ عن زوجةٍ له."

قالَ الكابتن جيم وهو يغمزُ جيلبرت: "سمعتُ أنَّه بدأ بالبحثِ، ألم يزورك الأحد الماضي بالعلامةِ كان يرتدي بذلته السوداء."

كورنيليا: "لم يأتِ ولا حاجةَ لقدومِه، وكان باستطاعي الزواجَ منه قبلَ أن يرتبِطَ بأحد، أما الآن فلا حاجةَ لي بأن أكون بديلًا لأحد صدقني. ولكن ما أعلمه أن هوراس باكستر وقعَ الصيف الماضي في ضائقةٍ ماديةٍ ودعا الله أن يُخلصَه منها، ولما ماتت زوجتُه وحصلَ على مبلغِ التأمين اعتبر موتها استجابةً لدُعائه، أهذا رجل؟!"

رد الكابتن جيم: "هل لديك دليل على ما تقولين يا كورنيليا؟"

ليشهَد رجل الدين الماثودي على ما أقول؛ وإن كنت تريدُ إثبات الأمر، روبرت باكستر هو من قال لي هذا الكلام، ولكن أعترفُ بأنه ليس بالدليلِ الكافي لأن روبرت معروفٌ بزيفِ كلامه."

قال الكابتن جيم: "مهلًا، مهلًا كورنيليا، أعتقدُ أنَّ روبرت يقولُ الصدقَّ إلا أنَّه يغيرُ رأيَه في بعضِ الأحيان مما يجعلُه يظهرُ كالكاذب."

ردت كورنيليا: "إنَّه يكذبُ في أغلبِ الأحيان، صدقني كمن يثقُ برجلٍ كي يبررَ للآخر، لا حاجةَ لي بِ"روبرت باكستر" فهو أصبحَ ميثودي لمجرد أنَّ الجَوقة غنَّت، هو ذا العريس قادمٌ اكتملت اللوحة عندما كان يمشي هو ومارغريت عبر الممشى في الأحد الذي بعد يومِ زفافهما، لقد استحق هذا الاستقبالِ لتأخره. فهو من حثَّ الجوقة على إهانتِه لأنه يتصرفُ دائمًا كما لو كان ذا أهميةٍ كبيرة؛ العائلة كلها تضربُ نفسها بحجرٍ كبير وهو من فلّين، لدرجة أنَّ أخيه إليفاليت يقولُ بأنَّ الشيطانَ يترصدُ به ولكنني لا أعتقدُ أنَّ الشيطان قد يُضيعُ وقتَه به."

قالَ الكابتن جيم بتفكرٍ: "لا أعلمُ صراحةً ولكن إليفاليت عاشَ بمفردِه لوقتٍ طويلٍ حتى أنَّه لم يمتلك قطةً أو كلبًا كي يحافظَ على إنسانيتِه، وحينَ يعيشُ المرءُ لوحدِه سيُسيطِرُ عليه الشيطان إن لم يكن مع الله، عليه أن يختارَ الجهةَ التي يريدُ أن يكونَ معها، وعلى ما أعتقد إذا كان الشيطانُ مترصدًا بـ "إليفاليت" ذلكَ لأنَّ الأخير اختارَ أن يكونَ مع الشيطان."

ردَت الآنسة كورنيليا: "حالُ الرجالِ" ودخلَت في صمتٍ يُخفي في ثناياه ترتيباتٍ معقدةٍ إلى أن قطَعه الكابتن جيم معتمدًا إغاظتها بطرافةٍ قائلًا:

"لقد توجهتُ إلى الكنيسة الماثودية صباح الأحد الماضي."

ردَّت الآنسة كورنيليا: "لا بُدَّ أنك عُدت إلى بيتك وختَمت الإنجيل."

الكابتن جيم: "حسنًا يا كورنيليا، أنا لا أرى أي ضررٍ في الذهابِ إلى الكنيسةِ الماثوديةِ حين يستصعبُ عليك وعظَ نفسك، لطالما كنت مَشيخي طوال أربع وستين سنةٍ ولن ترفعَ دیانتي المرساةَ في وجهي بعدَ هذا العمر."

أجابت الآنسة كورنيليا بتجهمٍ: "يا له من مثلٍ سيءٍ."

أكملَ الكابتن جيم وهو يغمز: "علاوةً على هذا، أريدُ الاستماعِ إلى الغناءِ الجيد والماثودية تملك جوقةً ممتازة ولا تستطعين الإنكار يا كورنيليا، فالغناء في كنيستنا أضحى فظيعًا بعد انقسام الجوقة."

كورنيليا: "أن تتحججَ بالغناءِ السيءِ سببًا واهيًا، فهم يفعلون ما بوسعهم والرب لا يُفرق بين صوت الغُراب وصوتِ العندليب."

قالَ الكابتن جيم برصانةٍ: "هيا يا كورنيليا، أنا أرى أنَّ الرب يهمُه سماعَ موسيقى أفضل بكثير من هذه."

سألَ جيلبرت في نوبةِ ضحكٍ: "ما الذي سبب هذه الفوضى في جوقتنا؟"

أجابَ الكابتن جيم: "يعودُ تاريخُ الخلاف إلى ثلاث سنوات منذُ تأسيس الكنيسة الجديدة، لقد مررنا بوقتٍ عصيبٍ حينها لأنه وقع خلافٌ حولَ موقعِ البناءِ الجديد، لم يكن الموقعان المُختلفِ عليهما بعيدين عن بعضهما كثيرًا إلا أنَّ شدّة الخلافِ تجعلُك تظُن أن المسافةَ المُختلفِ عليها تبعد آلاف الأمتار؛ انقسمنا إلى ثلاثِ مجموعات الأولى أيدت إنشاءَ الكنيسة إلى جهةِ الشرق، والثانية تريدُها إلى جهةِ الجنوب، أما الثالثة كانت مع إبقاءِها في مكانها. دارَ الخلافُ في كلِّ مكان، في الفراشِ، وعلى متنِ السفينةِ، وفي السوقِ، وفي الكنيسةِ؛ نبشوا الأموات حتى ثالث جد من قبورهم بسببِ هذا الخلاف، وقُطعت ثلاثُ مباريات بسببه، وأقمنا الإجتماعات في محاولةٍ لتسوية المسألة. وهل ستنسين يا كورنيليا عندما ألقى العجوزُ لوثر بورنز خطابًا مُعلنًا

عن رأيه شاءَ من شاء وأبى من أبى؟"

كورنيليا: "لتُسمي الأشياءَ بمسمياتها أيها الكابتن، فأنت تعني أنَّه أصابه الجنون وحرَّكهم كيف يشاءُ كالدُمى المُتحركة يستحقون ما أصابهم فهم ليسوا سوى حزمةً من العاجزين. ولكن ما الذي تتوقَعه من لجنةٍ مؤلفةٍ من الرجال؟ عقدَت لجنةُ البناءِ تلك سبع وعشرين اجتماعًا، وفي نهاية الاجتماعِ السابع والعشرين لم يصلوا إلى حلٍ بشأن بناءِ الكنيسةِ وظلّوا على ما بدأوا به. وفي الحقيقةِ، لم يُنجزوا أي إنجازٍ سوى التسريعِ بعمليةِ الهدم وها نحنُ ذا بقينا بدون كنيسةٍ ولا مكانٍ للعبادةِ سوى القاعة."

الكابتن جيم: "عرضَ علينا الماثوديون كنيستهم يا كورنيليا."

تابعَت الآنسة كورنيليا كلامها مُتجاهلةً الكابتن جيم: "لم تكن لتُبنى كنيسة القديسة ماري غلين إلى اليوم لولا جهودنا نحن النساء، قُلنا وفعلنا وبنينا كنيسةً، فنحن تعبنا من كوننا أضحوكةً للماثوديين، إذ أرادَ الرجالُ الشجارَ إلى يوم القيامةِ. أقمنا اجتماعًا واحدًا وانتخبنا لجنةً وطرحنا الإشتركات وأخذناها وعندما حاولُ أحدُ الرجالِ التدخُلَ بعملنا كنا نقولُ له أنكم حاولتم على مدارِ سنتين ولم تُفلحوا والآن دورُنا، صدقني كُنا نُخرسُهم جميعًا وفي خلالِ ستة أشهرٍ بات لدينا كنيسةٍ. طبعًا وكعادتهم بدأ الرجالِ بالعملِ وتوقفوا عن الشجارِ بعدما أحسَوا أنّهم مُجبرين أو مستبعدين من السُلطة وذلك بعدَ أن أوشكنا على الإنتهاءِ، أوه لا تستطيعُ النساءُ أن تعظ أو أن تُصبحَ قسيسًا ولكنهن يستطعن بناءِ الكنائس وجمعِ التبرعاتِ لها."

قالَ الكابتن جيم: "سمحَ الماثوديون للنساءِ بأن تعظ."

حملقَت به الآنسة كورنيليا وقالت:

"لم أقلْ يومًا أنَّ الماثوديين لا يملكون الفطرةَ السليمةَ يا كابتن، ما قُلته أنني أشكُّ بأنهم ليسوا على قدرٍ عالٍ من الدين."

جيلبرت قائلًا: "أعتقدُ أنكِ تُفضلين التصويت للنساءِ يا آنسة كورنيليا."

قالت الآنسة كورنيليا باحتقار: "صدقني لا أسعى إلى التصويت، أعلمُ جيدًا ما يعني إصلاحُ ما يُفسِده الرجال، ولكن في مثلِ هذه الأيام حينما يُدركُ الرجالُ أنهم أخفقوا ولن يستطيعوا إصلاحَ هذا الإخفاقَ، يُسلمونا حقَّ التصويتِ بكلِّ سرورٍ ويرمون مشاكلهم على أعتاقنا وهذا عيبهم وصدقوني كم من الجيدِ أنَّ النساءَ صابراتٌ."

أوعَز الكابتن جيم قائلًا: "وماذا عن جايكوب؟"

ردت الآنسة كورنيليا بنصرٍ: "جايكوب! من النادر أن تجدَ رجلًا صبورًا وإن حدثَ ووُجِدَ فعليهم تخليدُ ذكراه؛ على أي حال، لا تليقُ هذه الفضيلةُ بالاسم فلم يشهد الميناء على ولادةِ شخصٍ قليل الصبرِ كالعجوزِ جايكوب تايلور."

قال الكابتن جيم: "كان من الجيدِ أن يُجرّبوا التعامُلَ معه يا كورنيليا، وحتى أنك لا تستطعين الدِفاعَ عن زوجته. دائمًا ما أتذكر ما قاله العجوز ويليام ماك أليستر في جنازتِها إذ قالَ لا شكَّ أنها كانت امرأةً مؤمنة إلا أنّها كانت تملكُ طبعَ الشيطان."

اعترفت الآنسة كورنيليا قسرًا: "أعتقدُ أنّها حاولت، ولكن هذا لا يُبررُ ما قالَه جايكوب عنها عندَ موتها، وفي طريق عودتِه إلى البيت مع أبي يومَ الجنازة لم ينبس ببنت شفة حتى اقتربا من البيتِ حينها تنهدَ تنهيدةً عميقةً وقال: "قد لا تُصدقني يا ستيفن ولكنه أسعدُ يومٍ في حياتي" أليسَ هذا تصرُفًا ذكوريًا؟"

أجابَ الكابتن جيم بلهجةٍ تعكسُ التعاطف: "أعتقدُ أنَّ زوجة جايكوب العجوز المسكين حولَت حياته إلى مُعاناةٍ."

كورنيليا: "حسنًا، اللباقة مطلوبة أليس كذلك، حتى لو كان الرجلُ يرقصُ فرحًا في سرِّه لأنَّ زوجتَه ماتت لا ينبغي عليه أن يبوحَ بما يشعرُ

للعنان ويقولُ أنه يوم سعدِه، ولا بُدَّ لك أن تكون لاحَظتَ أنه ما لبثَ أن تزوجَ مرةً أُخرى؛ استطاعت زوجتُه الثانية التحكُمَ به وجعلَته يمشي على العجين بدونِ أن يُلخبِطَه، صدقني، أجبَرَته على وضعِ شاهدٍ على قبرِ زوجتِه الأولى وكِتابَةِ اسمها عليه، ووضعا شاهدًا آخرَ بجانبِ الأول عليه اسمها هي وقالت إنها تصرفَت هكذا لأنها في حال ماتت هي لن يتذكر جايكوب وضعَه ولن يكون هناك من يُذَكِرَه."

سأل الكابتن جيم: "بالحديثِ عن آل تايلور كيف حالُ السيدة لويس تايلور التي تعيش في غلين يا طبيب؟"

ردَّ جيلبرت: "إنَّها تتحسنُ ببطء ولكنها تبذل جهدًا كبيرًا."

قالت الآنسة كورنيليا: "يعمَلُ زوجُها بجدٍ أيضًا في تربيةِ الخنازير، إنه معروفٌ بامتلاكه خنازيرًا جميلةً، وهو يتفاخرُ بها أكثر من تفاخره بأولاده. ولكن واضحين إنَّ خنازيرَه أفضل الخنازير على الإطلاق، في حين لا يُعيرُ أي اهتمامٍ لأولادِه، اختارَ لأولادِه أمًا مسكينةً عيشها بجوعٍ طوالَ فترَةِ حملها بهم وتربيتِهم، إلا أنَّه قدَّمَ لخنازيرِه أجود الطعام وتركَ أولادَه يتضوَرون جوعًا."

قالَ الكابتن جيم: "تمرُّ بعضُ الأحيان التي أُوافقُكِ فيها الرأي يا كورنيليا مع أنني لا أُسَر. كل ما ذكرته عن لويس تايلر صحيح، وعندما أرى أولادَه البؤساءَ المساكين وقد سُرِقَ حقهم من بين سائرِ الأولاد أشعرُ بغُصَّةٍ تُلازمني لأيامٍ بعدها."

ذهبَ جيلبرت إلى المطبخِ بعدما نادته آن، أطبقَت آن البابَ وأعطتَه مُحاضرةً تأديبيةً.

آن: "عليك يا جيلبرت أنت والكابتن جيم التوقفَ عن مُضايقةِ الآنسة كورنيليا، أوه كنت أستمعُ لكم ولن أسمحَ لهذا النقاشَ بالإستمرارِ."

جيلبرت: "لكن يا آن، إنَّ الآنسة كورنيليا مستمتعةً كثيرًا بهذا الحوارِ

وأنت تعلمين هذا."

آن: "حسنًا، إنسى الموضوع، لكن لا تنقضّا عليها بهذا الشكل، جَهُزَ العشاء، وجيلبرت لا تدع السيدة ريتشل تُقطع الإوز، أعلم أنها ستطلبُ تَقطيعَها لأنها تعتقد أنك لا تجيدُ التقطيع لذا أرها أنك تستطيع."

"لا شكَّ أنني قادرٌ على تقطيعها، لقد درست مخططات النحت بتسلسُلٍ طوالَ الشهر الماضي، يكفي ألّا تُكلميني يا آن وقتَها فحينها سأنسى التسلسلَ وأكونُ بمأزقٍ أكبرَ من الذي وقعتي فيه حينما غيَّر الأستاذ قواعدَ الهندسة." مكتبة سُر مَن قرأ

قطعَ جيلبرت الإوز بحرفيةٍ حتى السيدة ريتشل اعترفت بهذا، وأكلَ الجميع منها واستمتعَ بها. حازَ عشاءُ الميلادِ الأولِ لِ"آن" على نجاحٍ كبيرٍ، كان عيدُ ميلادٍ سعيدًا وطويلًا، وعند انتهائهم من تناولِ طعامَ العشاءِ تجمعوا حولَ النار الملتهِبة يُنصتون إلى قصصِ الكابتن جيم حتى بزوغِ الفجر حين بدأت خيوطُ الشمسِ الأولى تمتدُ إلى ميناء فوروindز، ونزَلَت ظلالُ لومبارديين الزرقاءُ الطويلة عبرَ الثلجِ في الحي.

واختتمَ الكابتن جيم قائلًا: "عليَّ العودةُ إلى المنارةِ، بالكادِ لديَّ بعضُ الوقت إن مشَيْتُ لأصلَ إلى البيتِ قبلَ غروبِ الشمس: أشكرُكِ سيدة بلايث على عيدِ الميلاد الجميل، وأحضري السيد ديفي إلى المنارة في سهرةٍ قبلَ عودتِه إلى بيتِه."

قالَ السيدُ ديفي باستمتاعٍ: "أريدُ الذهاب لِأرى تلك الصخور العظيمة."

16
رأسُ السنةِ في المنارةِ.



غادَر أهلُ المرتفعات الخضراء إلى مدينتهم بعدَ عيدِ الميلاد، وتعهدَت ماريّلا بالعودةِ مُجددًا لمُدة شهرٍ في الربيع. تساقطَ الثلجُ بكثرةٍ في فترةٍ ما قبلِ رأس السنة، تجمَّدت مياهُ الميناءِ بينما ظلّت مياهُ الخليجِ التي خلفَ الحقولِ البيضاءَ السجينة حرة؛ كان اليومُ الأخيرُ من السنةِ من أشدِّ أيامِ الشتاءِ برودةً وبياضًا ولمعانًا، يومٌ يُبهرُنا بجاذبِيتِه وينالُ استحسانَنا وليس حبُّنا، تلبّدت السماءُ بالغيومِ السوداءَ والحادّةِ وتألقت حباتُ الثلجِ، أما الأشجارُ المُقفرةُ فكانت عاريةً دونما خجل بجمالٍ سافر، وتتعرضُ التلالُ لهجماتٍ من حباتِ الثلجِ الكريستالية، حتى الظلال كانت حادة وقوية وواضحة كما لو أنه لا ينبغي أن تكون هذه الظِلال. كل ما كان جميلًا ازدادَ جمالًا عشرَ مرات ولكن أقلَّ جاذبيةً في الروعةِ والتألق، وكل ما هو قبيحٌ ازدادَ قباحةً عشرَ مراتٍ، فتفاوتَ المنظرُ بينَ جمالٍ وقُبح، لم يكن في البحثِ عن البريق أيُّ تناغمٍ ناعمٍ أو اختلاطٍ لطيفٍ أو ضبابٍ مربك؛ استفردَت شجرةُ التنوبِ وحدها بالفرادةِ فهي شجرةُ الغموضِ والظلّ ولا تجلبُ أيَّ انتهاكاتٍ للبريق الخفيف.

وأخيرًا لوحظَ في آخرِ يوم أنها تكبرُ، وبعدها نزلَ على جمالِها بعضُ الغموض الذي أغبشها ولكن قَوّاها. تذوبُ الزوايا الحادةِ والنقاطُ المتلألئةِ في منحنياتٍ وبرقٍ جذّابٍ، لبِسَ المرفأُ حِلّته الرماديَةِ والزهريةِ الناعمة وتلوّنت التلالُ البعيدةُ باللونِ البنفسجي.

قالت آن: "إن السنة الماضية تودعنا بهدوءٍ."

كانت هي وليزلي وجيلبرت متجهون إلى مستديرة فوروينذز متفقين مع الكابتن جيم للذهابِ إلى المنارةِ لحضورِ بدايةِ السنةِ الجديدة. غابت الشمسُ وفي الجنوب الغربي للسماء ظهرَ كوكبُ الزُّهرةِ الذهبي اللامع يقتربُ من أختِه الأرض قدر المُستطاع. شهد جيلبرت وآن للمرةِ الأولى هذا الظل المُنعكسِ من نجمِ السماءِ اللامع، لا يُرى هذا الظلُّ الخافتُ الغامضُ إلا عندَ تساقطِ الثلجِ فيكشفُ عنه، ومع إشاحةِ بصرٍ صغيرةٍ يتلاشى حين تُعيدُ النظرَ إليه مباشرةً.

هَمست آن: "يُمثلُ الظلَّ الروح أليسَ كذلك؟ ترى وكأنه يطاردُك إذا نظرتَ إليه مباشرةً، وما أن تُشيح بنظرَك عنه وتعودُ لتنظُرَ إليه يختفي."

قالت ليزلي: "سمعتُ أننا لا نستطيعُ رؤيةَ ظلِّ الزُّهرة إلا مرةً في العمر، وفي السنةِ التي تراه فيها ستحصلُ على أكبرِ هديةٍ رائعةٍ في حياتك." إلا أنها تكلّمَت بصعوبةٍ وكأن الكلمات تخنُقها، رُبما لأنها ظنَّت أنّه حتى ظلُّ الزُهرة لن يُغيرَ من حياتِها. ابتسمَت آن للشفَقِ الناعم، وكانت شُبه متأكدةً مما وعدها به الظلُّ المُبهم.

التقوا بِمارشال إليوت في المنارة، أحسَّت آن بالإستياءِ في بادئ الأمر لإقتحام غريب الأطوارِ هذا صاحب الشعر والذقن الطويلَين دائرتهم الصغيرة؛ إلا أنَّ المارشال إليوت سرعان ما أثبَت جدارته بالحصولِ على عضوية في نادي جوزيف. كان بارعًا، وذكيًا، ومُثقفًا، يُنافسُ الكابتن جيم في قُدرتِه على سردِ القصص الجيدة، وقد سُرَّ جميعُ من حضروا حينما قبل الإنضمامَ لهم

لحضورِ احتفالِ رأسِ السنةِ.

جاءَ ابن أخ الكابتن جيم الصغيرُ جو كي يُمضي ليلةَ رأسَ السنةِ مع عمه ونامَ على الأريكةِ مع أول قصصة.

قال الكابتن جيم بسُخريَةٍ: "أليس كالرجُلِ الصغيرِ العزيز؟"

وأكملَ: "أحبُّ أن أُراقبُ ولدًا صغيرًا وهو ينامُ يا سيدة بلايث، إنه أجملَ مشهدٌ في العالمِ على ما أعتقد، يحبُّ جو القدومَ إليَّ لقضاء الليلةِ لأنني أسمَحُ له النومَ بجانبي أما في البيت فعليه أن ينامَ مع أخويَه وهو يُفضّل النومَ بجانبِ والدَيه، ويسألني لماذا لا يستطيعُ النومَ إلى جانبِ والدَيه وكل من في الإنجيل نام إلى جانبِ أبيه، يسألُ أسئلةً تُعجزُ حتى القس عن إجابتها، أسئلةً تستنزفني بعدلٍ، فتارةً يسألني عمي إن لم أكن أنا من سأكون؟ عمي ما الذي سيحدث إن مات الرب؟ هذان السؤلان فجَّرهما في وجهي الليلة وبعدها ذهب للنوم. أما بالنسبةِ لمُخيلتِه فهي تسبحُ في عالمٍ آخر، ويصنعُ حكاياه المميزةِ ولكن تأتي أمُه لتسكتَه وتزرُبه في الخزانة لأنه يقصُّ الحكايا؛ وبينما هو معاقبٌ ينسجُ حكايةً جديدةً كي يحكيها لأمه عند تُخرِجُه. قصَّ لي واحدةً عند وصوله هذه الليلة، إذ قال بثباتٍ كشاهدِ قبر: "عمي جيم، لقد خُضْتُ مغامرةً في غلين اليوم؛ فجاوبْتُه "حقًا! وما هي هذه المغامرة؟ وكنتُ أتوقعُ قصةً مُذهِلةً، ولكن لم أكن مُستعدًا البتة لما سمعتُه." إذ قالَ إنّه قابلَ ذئبًا كبيرًا فَمَه أحمر وأسنانَه طويلةً وفظيعةً يا عم جيم. فقلْتُ له لم أعلمْ أنَّ في غلين ذئاب، فأردَفَ جو قائلًا إنه أتى من مكانٍ بعيدٍ عن غلين وقد قاتلْتُه وكان على وشكِ أن يأكلَني يا عم جيم. فسألْتُه: "ألم تَخَف؟" فأجابَ بأنّه لم يَخَفْ لأنه يحملُ مُسدسًا كبيرًا وقد أرداه قتيلًا ومات الذئبُ، أصبحَ جيفةً هامدةً وخَتمَ قصتَه بأنَّ الذئبَ صعدَ إلى السماءِ كي يغلِبَ الرب." لقد أدهشني بالفعل يا سيدة بلايث.

مـرَّت السـاعات بزَهوٍ وابتهـاجٍ وهم مجتمعون حـول نار الحطب،

يسرُدُ الكابتن جيم القصص والمارشال إليوت يُغني أغاني أسكتلندية قديمة بصوتٍ عذبٍ جميلٍ، وختامًا تناول الكابتن جيم كمانَه البني القديم عن الحائط وبدأ بالعزفِ؛ عزفٌ مقبولٌ استساغه جميعُ من حضر باستثناءِ الوكيل الأول الذي هبَّ عن الأريكة كمن تلّقى رصاصةً، وترَكَ المكان تاركًا وراءَه كمًّا هائلًا من الإحتجاجات وهربَ باتجاه الدرج.

قال الكابتن جيم: "لا نستطيع أن نزرَعَ أُذُنًا موسيقيةً لهذا البَريّ مهما كان، لن يبقى الوقتَ الكافي كي يستمتِعَ بسماعها؛ عندما جلبنا الأرغن إلى كنيسة غلين نهضَ العجوز إلدر ريتشاردز من مقعده فور مُباشرةِ العازِف بالعزف وهرعَ عبر المَمرِ إلى خارجِ الكنيسةِ لدرجة لم يَلحظه أحد، تَصرُفَ الوكيل الأول عندما بدأتُ العزفَ ذكرني به وكيف كنتُ سأنفجرُ ضحكًا داخلَ الكنيسةِ كما لم أفعل من قبل."

كانت الموسيقى التي يعزفها الكابتن جيم تسري في جسد المارشال إليوت كالعدوى، فكانت قدمّيه ترتعشان تلقائيًا من مُجرد البِدء بالعزف، كان راقصًا باهرًا في شبابه، وفي يومنا الحاضرِ كان يتقدمُ بطلبِ الرقصِ من ليزلي وهي تقبلُ فورًا، فأشعلا الحلبةَ المُضاءةَ بالحماسِ مع أنغامٍ متناسقةٍ كانا بمنتهى الروعة. رقصَت ليزلي بكلِّ إلهامٍ، فكأنما الموسيقى الصاخبة والحماسية الحلوة تَغلغلَت فيها وتملكَتها، لفتَ رقصُها انتباه آن فنظرَت إليها بعين الإعجابِ والإستحسانِ فهي لم تراها بهذه الحِّلة من قبل؛ تلاشت رصانتُها وفخامتُها وسِحرُها وشخصيتُها المُعتادين أمامَ زهوةِ الموسيقى التي حولت خدودها إلى لونٍ قُرمزيٍّ وأعطَت عينيها بريقًا لا مثيلَ له؛ حتى مظهَرُ المارشال إليوت بذقنِه الطويلةِ وشعرِه الطويل لم يُفسدِ المشهد، بل بالعكس أضافَ رونقًا خاصًا إليه، بدا المارشال إليوت كمُحارب الفايكينغ الذي يرقصُ مع فتاةٍ إيرلنديةٍ ذات عينين زرقاوين وشعرٍ أشقرٍ.

قال الكابتن جيم: "إنها أجملُ رقصةٍ أراها في حياتي." قال ذلك عندما سقطَ الراقصان من التعبِ ورَمت ليزلي نفسها على الكرسي تضحكُ لاهِثة.

أخبرَت ليزلي آن: "أحبُّ الرقصَ، رغمَ أنني لم أرقص منذُ كنتُ في السادسة عشر من عُمري ولكنني أهواه، تسري الموسيقى في عروقي كسريان الدم لدرجةِ أنني أنسى كلَّ ما حولي عدا البهجة التي تبعثها الموسيقى فيَّ، فتجعلني أشعرُ بأنني أطير لأطفو مع النجمات، وكأن لا أرضَ تحتها ولا جُدران حولها ولا سقفًا فوقها."

أعـادَ الكابتـن جيـم كمانـه إلـى مكانـه بجانـبِ إطـارٍ كبيـرٍ ملـيءٍ بالعملاتِ النقديةِ.

وسأَل: "هل هناك أحد من معارفِكم يعلِّقُ العملاتِ النقديةَ على الحائطِ سواي؟ في هذا الإطار عشر ورقات من فئةِ العشرِ دولارات وهي لا تساوي حتى قيمة زجاج الإطار، إنها من المصرف القديم "بي إي آيلاند" كانت في حوزتي عندما أفلسَ المصرف فوضعتها في الإطارِ وعلّقْتُها على الحائط من ناحيةٍ كي أتذكر ألاّ أضعَ ثقتي في مصرفٍ والناحيةِ الأُخرى كي تُعطيني شعورًا بالترف والثراء. مرحبًا ماتي تعال لا تَخف لا مزيدَ من الموسيقى واللهو لهذه الليلة لم يبقَ سوى ساعةً وتنتهي هذه السنة لتلحقَ سابِقاتها؛ مرَّت عليَّ ستةٌ وسبعين سنةً على مرأى من هذا الخليج يا سيدة بلايث."

قال مارشال إليوت: "ستعيشُ للمئة."

هزَّ رأسه الكابتن جيم رافضًا.

قال الكابتن جيم: "لا، لا أريد العيشَ لهذا العُمر على ما أظن. يقتربُ منّا الموت أكثرَ كلما كبرنا في العمرِ، مع العلمِ أنَّ لا أحد يُفضلُّ أن يموتَ يا مارشال، لقد قال تينيسون الحقيقة حينها. أعرفُ عجوزًا هي السيدةَ والاس فوق في غلين، لقد عانت من المشاكلِ طوالَ حياتها

وعانت من الوحدةِ وافتقار الروح وفقدَت تقريبًا كل من تهتم لأمرهم، وتقولُ دائمًا أنها ستَسعَدُ عندما تحين لحظةُ موتِها وأنها لا تُريد أن تبقى أسيرة الأحزان بعدَ الآن، ولكن وبمجرد تعرُضها لوعكةٍ صحيةٍ طفيفةٍ تراها تستدعي الأطباءَ من المدينة وممرضةً مُدرَّبةً وتأخذُ أدويةً كافيةً لقتلِ كلب وليس مُجرد مرض. صحيحٌ أنَّ الحياة مليئةٌ بالأحزان إلا أنني أعتقدُ أنَّ ثمةَ أشخاصٌ يحبونها ويحبون نحيبها."

أمضوا الساعة الأخيرة من السنة الراحلةِ بهدوءٍ حولَ النار، وقبل الثانيةَ عشرةَ بدقائقٍ وقف الكابتن جيم وفتح الباب وقال: "علينا السماحَ للسنةِ الجديدةِ بالدخول."

كانت ليلةً ظلماءَ في الخارج، يكَلّلُ الخليجُ ضوءُ القمرِ المُتلألئ، ويشِعُّ الميناءُ داخل الخليج كرصيفٍ من اللؤلؤ؛ وقفوا أمامَ البابِ منتظرين: الكابتن جيم بخبرته ونضوجه، مارشال إليوت وعمره المتوسط النشيط إلا أنَّ حياتَه فارغة، جيلبرت وآن مع ذكرياتِهما العزيزةِ وأمانيهما الباهرةِ، وليزلي وسجلِّها من السنوات الخاويةِ والمليئة بالجوعِ ومستقبلها البائس؛ دقت الساعةُ التي على الرفِّ الصغيرِ فوقَ الموقَدة مُشيرةً إلى الساعةِ الثانيةِ عشرةِ.

قالَ الكابتن جيم ورأسَه منحني كما لو ماتت آخرَ دقّة: "أهلًا بالسنةِ الجديدةِ، أتمنى أن تكون هذه السنة هي الأفضل لكم جميعًا يا أصدقائي، وأعتقدُ أنه مهما جلبت لنا السنةُ الجديدةُ سيكون أفضلُ ما يُقدمه لنا الله، وبطريقةٍ ما أو بأخرى سنصِلُ كُلنا إلى برِّ الأمان."

***

17
شتاءُ فوروينذز



حطّ

الشتاءُ رِحاله في فوروينذز بعدَ رأسِ السنة، وحاصرت الثلوج المنزل الصغير وغطّى الجليد نوافِذه، ازدادَ جليدُ الميناءِ سماكةً وصلابةً حتى بدأ سكانُ فوروينذز استخدامِه في تنقُّلاتِهم، جاءَت هذه الممرات هبةً من الحكومة ليلًا ونهارًا تُسمعُ أصوات الأجراس المُبهجة عليه. وفي ليلةٍ مُقمرةٍ سمعت آن أصوات الأجراس من منزلها منزل الأحلام كأجراس الجنيات، تجمّدَ الخليجُ وبهُتَ لونُ فوروينذز وخلال أشهر إغلاقِ الملاحةِ أضحى العملُ في مكتبِ الكابتن جيم أسهل.

قال الكابتن جيم: "يتوقفُ عملنا أنا والوكيلُ الأول حتى الربيع، وما علينا سوى البقاءُ دافئَين والإستمتاعِ بوقتنا. اعتادَ حارسُ المنارة الانتقالِ إلى غلين في الشتاءِ ولكنني أفضلُ البقاء هنا، لأن الوكيل الأول قد يتعرضُ إلى التسممِ أو يعضُّه الكلب في غلين، إنّه كالبرغوث يحبُّ الوحدة وكما البرغوث لا يحِبُّ الماءَ والضوءَ هو لا يحبُّ الاختلاطَ كثيرًا، ولكن إن جاءَ أحدُ أصدقائنا لرؤيتنا نحاولُ أن نضبطَ الوضعَ طوالَ زيارتهم."

أقامَ الكابتن جيم رحلاتٍ رائعةٍ وبهيةٍ على متنِ قاربه الجليدي مع جيلبرت وآن وليزلي وطافوا فوق الجليد الذي يلفُّ المرفأ، وتجولت آن وليزلي مرتديات أحذية الثلج عبر حقول الميناء بعد العاصفة أو في الغابة فوق نهر غلين؛ كانوا لا يفارقون أحدهم الآخر في نُزَهِهم وجمعتهم حول النار كأعزِّ الأصحاب، كلٌ لديه ما يقدمه للآخر وكلٌ يشعرُ بالغنى في حياتِه لما تُقدمه هذه الصداقةِ، كلٌ يعلمُ أنّ وراءَ الحقولِ البيضاءَ التي بين بيوتهم يقطنُ صديقٌ عزيزٌ. ولكن وبالرغم من كلِّ هذا ما زالت آن تشعرُ بحاجزٍ بينها وبين ليزلي وبغمامةٍ لا تزول.

وفي مساءٍ قالت آن للكابتن جيم: "لا أعلمُ لم لا أستطيعُ التقرُّبَ منها أكثر، أحبُّها كثيرًا وأُعِزُّها أريدُ أن أُدخِلها إلى قلبي وأن أُجاورَ قلبها إلا أنني لن أستطيعَ كسرَ هذا الحاجز."

ردَّ عليها الكابتن جيم بتعقلٍ: "لقد عشتِ سعيدةً طوالَ حياتك يا سيدة بلايث، لهذا أعتقد أن التناغم الروحي بينكما لن يَتِم والحاجز بينكما ما هو إلا خبرتها في الألم والمشاكل اللذين لم تكن مسؤولة عنهما ولا أنتِ أيضًا ولكنهما موجودان ولا يمكنكما تجاوزهما."

قالت آن وهي تنظرُ بجديةٍ من خلالِ النافِذة إلى الجمالِ الباهت الحزين الخالي من الروحِ لظلالِ الأشجارِ العاريةِ التي يعكسها ضوءُ القمرِ على الثلجِ: "لم أعش طفولةً سعيدةً قبلَ مجيئي إلى المرتفعات الخضراء."

الكابتن جيم: "قد لا تكون طفولتُك سعيدةً إنما هي تعاسة مُعتادة لطفلٍ لم يلقَ الإهتمام اللازم، إلا أنك لم تتعرضين لمأساة في حياتِك يا سيدة بلايث، بخلافِ ليزلي التي قامَت حياتُها على المآسي. فهي تشعرُ على ما أظن أو أنها بالكادِ تشعرُ بأن لديها فسحةً واسعةً في حياتِها لا تستطيعين الاقترابَ منها أو فهمها وعليها إبقائِك بعيدة، وإيقافكِ عندَ مسافةٍ معينةٍ حتى تتفادى أي أذى لها. وكما تعلمين عند وجودِ ما

يجرحنا لا نسمحُ لأحدٍ أن يلمسَه أو يقتربَ منه، ويصبحُ هذا الجرح قطعةٍ من روحنا وأجسامنا؛ وأظنُّ أنَّ روحَ ليزلي صارت أقربُ للقساوةِ فلا عجبَ إن كانت تخفي ما تشعرُ به."

ردَّت آن: "لو كان الأمرُ كما تصِفُه يا كابتنُ جيم لكنتُ تفهمته، ولكن تمرُّ لحظاتٌ عليَّ كالآن مثلًا ومرةً جديدةً أكادُ أجزمُ أنَّ ليزلي لا تحبُني، في بعضِ الأحيان أتفاجأُ بنظرةٍ خاطفةٍ منها تُظهرُ استياءً وكراهية، إلا أنني رأيتُ هذه النظرةَ وأنا متأكدة مما رأيتُ، وهذا يؤلِمُني أيها الكابتن جيم. فأنا لستُ معتادةً على أن أكونَ مكروهةً وفعلتُ ما بوسعي كي أكسبَ صداقةَ ليزلي ولم أفلَحْ."

الكابتن جيم: "لقد كسبتِ ودّها يا سيدة بلايث ولا تنجرّي وراءَ أوهامك وتُفكري بأنَّ ليزلي لا تُحبك، ولو أنها لم تُحبُكِ لما كانت تُمضي وقتها معكِ وتُصاحبُكِ؛ أنا أعرفُ ليزلي موور حقَّ المعرفة لذلك أنا متأكدٌ مما أقوله لكِ."

أكملت آن بكل إصرار: "ليزلي رمقتني بنفسِ النظرة حينما كانت تسوقُ إوزاتها باتجاه التلةِ يومَ وصلْتُ إلى فوروينذز، شعرتُ بنظرَتِها وأنا مأخوذة بجمالها نظرَت إليَّ بامتعاضٍ يا كابتن جيم أنا متأكدة."

رد الكابتن جيم: "لإستيائِها سببٌ آخرٌ يا سيدة بلايث وصدفَ أنكِ مررتِ يومَ وصولكِ بها ونالكِ نصيبٌ من هذا الإستياءِ، تتكرر لدى ليزلي نوباتُ الكآبةِ الآن مرارًا وتكرارًا يا لها من مسكينةٍ ولا أستطيعُ لومها حين أعلمُ ما تواجَهُهُ وكيفَ يمكنُ لهذا الكم الهائل من الحُزن أن يكون مسموحًا به، لطالما تكلّمتُ مع الطبيبِ عن أصلِ الشر ولكن لم نصل إلى جوابٍ نهائي. تحمِلُ هذه الحياةُ الكثير من علاماتِ الاستفهام أليس كذلك يا سيدة بلايث؟

مثلًا تبدو الأمور طبيعية وتمشي بسلاسةٍ كما هو الحال معكِ ومع الطبيب وفي مواضِعَ أخرى تقلبُ الحياةُ إلى وحشٍ كاسرٍ؛ على سبيلِ

المثال ليزلي فتاةٌ جميلةٌ وذكيةٌ ويخطرُ ببالكِ أن عليها أن تكون كالملكاتِ ولكن انتهى بها المطافُ هنا وسُلِبَ منها كل ما تحلمُ به امرأة وفوقَ كلِّ هذا كُتبَ عليها الإعتناءَ بِ"دييك مور" طوالَ حياتِها ومع ذلك يا سيدة بلايث أتجرَأُ بالقولِ- مع أنَّه لا يحقُّ لي أنا الكابتن العجوز الأخرق التفوهَ به- إنَّها تُفضلُ حياتها الحالية على حياتِها السابقةِ قبلَ رحيلِ دييك مور،

ولِتَعلمي أنك ساعدت ليزلي كثيرًا وأصبحت إنسانًا آخر وقد لاحظْنا هذا التغيُر الذي لم تلحظيه أنتِ نحن أصدِقائها القُدامى وكنتُ أتكلم مع الآنسة كورنيليا اليومَ الفائت عما لاحظناه، وهي من الآثارِ العظيمةِ القليلةِ التي تظهرُ أمامَ أعيِننا وتقولين ببساطةٍ أنها لا تُحبك. "

لم تستطع آن تجاهُلَ شعورها، وذلك بسبب الأوقات التي أحسّت من دون أي شك بهذا النفور كان شعورًا غريزيًا لا يُكافح بالمنطق بأنَّ ليزلي تُخفي استياءً مريبًا وغامضًا اتجاهها. خرَّبَ هذا الإحساسُ الخفيُّ في بعضِ الأوقات انسجام صداقتهما وفي أحيانٍ اخرى كان منسيًا إلا أنَّ آن لطالما أحسَّت بوجود شوكة في الحلق وقد تنغرز في أي وقت، أحسَّت بألمِ الوخزةِ حين رمَقَتها ليزلي بتلك النظرةِ القاسيةِ العدوانيةِ المريرةِ في اليوم الذي أخبرتها فيه ماذا تتمنى أن يجلبَ الربيعُ معه من أمنياتٍ جميلةٍ لبيتِ الأحلام.

قالت آن بصوتٍ تملأه الغصَّة: "إذًا عليك أن تشعُرَ بما أشعرُ به أيضًا." اكتفت بهذه الكلمات وعادت أدراجها إلى البيتِ عبرَ الحقول؛ جُرحُ آن كان عميقًا لدرجة شعرَت أنَّها لن تستطيعَ مسامحةَ ليزلي، ولكن ليزلي زارتها بعد ذلك وكانت مُفعمةً بالحياةِ ودودةً، وصريحةً، وظريفةً، وجذابةً لدرجةٍ سحرَت آن وسامحتها إلا أنها لم تتَطَرَق مع ليزلي إلى الكلام عن أمنيتها العزيزة وليزلي لم تذكرها قط. وذات أمسيةٍ، في أواخِرَ الشتاءِ وبدايةَ الربيع، قصدَت ليزلي البيت الصغير

وسهرَت معهم وتبادلوا أطرافَ الحديث وعندَ مُغادرتِها تركَت صندوقًا أبيض صغير على الطاولة لم تلحَظْهُ آن إلا بعد مغدرتِها وهمَّت بفتحِه وهي تتساءَل عمّا بداخلِه. عثرَت آن داخِلَ الصندوق على فستانٍ أبيض غاية في الجمال مُتقنًا بامتياز، مُطرّزًا بدقةٍ ثنياتِه رائعةٍ كل غرزةٍ فيه مشغولةً يدويًا والتطريزات التي حولَ الرقبة والأكمام مُزينةً بأحجارٍ برّاقةٍ مُرفقًا ببطاقةٍ مكتوب عليها: "مع حبي، ليزلي."

قالَت آن: "كم ساعة أمضَت ليزلي وهي تُحيكه، ولا بُدَّ أن القماش كلفها ثروةً، لقد غَمرتني بلُطفها."

ولكن ليزلي قابلت آن بالبرودِ واللامُبالاة عندما شكرتها، فأحسَّت الأخيرة وكأنّها تلقّت صفعةً على وجهها.

لم تكن هديةُ ليزلي الهدية الوحيدة التي تلقّتها آن في المنزل الصغير، فقد أهدتها الآنسة كورنيليا التي تخلّت حاليًا عن حِياكةِ ثيابًا للطفل الثامن غير المرغوب فيه غير المُرَحب به وانكبَت على حياكةِ ثيابِ الطفلِ الأول الذي استقباله لا يترك مجالًا لأيٍّ كان أن يكونَ مرغوبًا فيه. وأرسلَت كل من فيليبا بلاك وديانا رايت مِعطفًا بغايةِ الروعةِ، والسيدة ريتشل ليند أرسلت الكثير من المعاطف المُحاكة بأفضل القماش والقطب الممتازة التي حلّت محل التطريز والزخرفات. حتى آن صنعت منها بنفسها من دون الحاجةِ إلى آلةِ الخياطةِ وأمضت في صُنعها ساعاتٍ سعيدةٍ خلالَ الشتاءِ السعيد.

كان الكابتن جيم أكثرُ من يتردد إلى المنزل الصغير وكان أكثرُ ضيفًا مُرحبًا به. في كل يوم يزيدُ حبُّ آن للبحارِ العجوزِ ذي الروحِ البسيطةِ والقلبِ الصادقِ أكثر وأكثر، فقد كان حضورُه منعشًا كنسيم البحر ومشوقًا كتاريخٍ قديم، لم تَمل من سماعِ قصصِه، كانت ملاحظاتُه وتعليقاتُه الغريبةِ بهجةً متواصلةً بالنسبةِ لها. يُصنفُّ الكابتن جيم من فئةِ الناس النادرين المشوقين الذين لا يتكلّمون إلا بالمُفيد، وكان

مزيجًا من الطيبةِ والخَير والمكر والحكمةِ كل هذه الصفاتِ متوازنةً فيما بينها.

ومن ميزاتِ الكابتن جيم أنَّه لا يتأثر بتصرفٍ ولا يكتئب على أي موضوع.

وعندما سألته آن عن سرِّ سعادتِه أجابها: "يمكن القولُ إنني عاهدْتُ نفسي بأن أستمتعَ ولو لأتفهِ الأسبابِ، أصبحَت عادةً لديَّ لدرجة أعتقدُ أنني صرتُ أستمتعُ حتى بما لا تهوى النفسُ، مُقتنعًا بأنها لن تدومَ وأقولُ لنفسي حين تسوءُ الأمور: "أيها العجوز، عليك أن تتوقفَ عن التألمِ في بعضِ الأحيان، لأنه مهما ساءَ وضعُك سيزولُ، وأقنعُ نفسي أنَّه عليَّ التغلبَ على الألمِ، فمهما بلغَ حجمُ الألمِ سيزولُ في القريبِ العاجل وأعملُ على نفسي كي أتغلبَ عليه على المستوى الجسدي والنفسي."

وفي ليلةٍ، وبينما كانوا جالسين أمامَ النارِ في المنارةِ رأت آن كتابَ مذكراتِ الكابتن جيم، لم يتردد أبدًا في إعطائها إياه بكل فخر لتقرأه.

قال: "كتبْتُه من أجل الصغير جو، فأنا لا أحبذُّ فكرةَ نسيان ما رأيْتُ وفعلْتُ، وأن يذهب في مهبِّ الريح بعدَ موتي فاخترتُ جو لأنه سيتذكرُ إنجازاتي ويُخبرُها لأولادِه."

دفترٌ مُغلفٌ بالجلدِ القديم فيه مذكراتٍ عن أسفاره ومغامراته، فخطرَ على بالِ آن كم سيكون هذا الكتاب كنزًا ثمينًا لأي كاتب، صحيحٌ أنَّ جُملَه من الشرق والغربِ فجيم لم يكتبْ بقيمةٍ أدبيةٍ فعندما يصلُ الأمرُ إلى الورقةِ والقلمِ يفقدُ الكابتن جيم أسلوبَه بالسردِ ولا يسعُه إلّا تدوينِ بعضِ الملاحظاتِ عن حكاياتِه غيرَ مُبال بالقواعدَ أو التهجئة الصحيحة. شعرت آن أن من يمتلكُ هذه الهِبةَ يستطيعُ أن يأخُذَ ملاحظاتٍ قد تكون بسيطةٌ إلا أنها مليئة بالشجاعةِ والمُغامرات قارِئًا بين الأسطرِ الجرداء حكايا المخاطر التي واجهها بثباتِ والواجب

الذي أنهاهُ برجولةٍ فتتشكلُ قصةً رائعةً منها. فقد كان كتابُ الكابتن جيم يُخبِئ في طياته كوميديا غنيةً وتراجيديا مثيرةً تنتظرُ لمساتِ الفنان لإيقاظِ ضحكات وخوفٍ ورُعبِ الآلاف.

هذا ما قالته آن لِجيلبرت وهما في طريقِ العودةِ إلى البيت.

جيلبرت: "لمَ لا تكونين أنتِ من يصمِمُ هذه التُحفةَ يا آن؟"

هزَّت آن رأسها مُجيبةً:

"لا، أتمنى لو أستطيعُ ولكنني لستُ موهوبةً بما يكفي، أنت جلُّ من يعلم بنقاطِ قوتي يا جيلبرت وهي الخيال والأساطير والجمال، أما كتابُ حياةِ الكابتن جيم يجب أن يُكتبَ عل يدِ محترفٍ وبأسلوبٍ راقٍ وعليه أن يكون معالجًا نفسانيًا من الطرازِ الأول، وحسُّ الفكاهةِ والمأساوية موجودان لديه بالفطرة، المطلوب أن يملكَ هذا الكاتبُ مزيجًا فريدًا من نوعه من العطايا. كان بول سيفي بالغرض لو أنّه أكبرٌ في العمر، على أيِّ حال سأستدعيه في الصيفِ المُقبل كي يُقابلَ الكابتن جيم.

جاءَ في الرسالةِ التي كتبَتها آن لِبول: "تعال إلى الساحل، صحيح أنّك لن تجدَ أيٍّ من نورا أو السيدة الذهبية أو التوأمين البحارين، ولكنك ستلتقي ببحارٍ عجوز سيَروي لكَ الكثيرَ من القصصِ الجميلة."

ردَّ بول مُعتذرًا عن الحضور هذه السنة لأنّه مُسافرٌ خارجِ البلاد لسنتين بغرضِ الدراسةِ.

وجاءَ في رسالتِه: "مُعلمتي العزيزة، سآتي إلى فوروينذز بعد عودتي من الخارج."

ردَّت عليه آن بأسفٍ: "ولكن الوقتُ يُداهِمنا والكابتن جيم يُعَجِّزُ أكثر فأكثر وما من أحدٍ غيرك مناسب ليكتبَ قصةَ حياته."

***

18
أيامُ الربيع



يصبحُ الجليدُ الذي على المرفإِ أسود بالٍ مع شمسِ آذار، وفي نيسان تعودُ مياهُ الخليجِ إلى لونها الأزرق والرياحُ متوسطة القوةِ وتُنيرُ منارةُ فورويندز ليلها القاتمِ من جديدٍ.

قالت آن في أولِ أمسيةٍ ربيعيةٍ: "أنا مسرورةٌ جدًا لعودة الربيع من جديد، اشتقت إليه طوال الشتاء، بدَت سماء الشمال الغربية فارغةً ووحيدةً قبل إقبالِه."

تزينت الأرضُ بأوراقِ الشجرِ الصغيرةِ الجديدةِ الخضراء الذهبيةِ، واكتسحَ الغابةَ التي خلفَ غلين ضبابٌ زُمردي، وعند الفجر يتكون ضبابًا خُرافيًا في الوديان التي تواجه البحر.

وللميناءِ حكايةٌ أخرى، فتحملُ كل موجةِ بحرٍ في أنفاسها مع كل ذهابٍ وإيابٍ رياحًا مُفعمةً بالحياة، تراقصَ البحرُ بإغراءٍ وضحِك وشعشعَ كحسناءٍ فاتنةٍ جميلةٍ، وعادَ صيادو الرنغةِ وبلدةِ الصيد إلى الحياةِ من جديد؛ كلُّ زاويةٍ بالمرفإ تنبضُ بالحياةِ، فامتلأت القناة بالأشرعةِ البيضاءَ وبدأتِ السفن بالإبحار من المرفئ وإليه مجددًا.

أردفَت آن: "في يومٍ ربيعيٍّ كهذا اليوم، أعلمُ تمامًا بما تستشعرُه

روحي وكأنه صباح البعث."

وردّ الكابتن جيم قائلًا: "توقظ أيامُ الربيعِ هذه الشاعرَ الذي بداخلي وتجعلني أشعرُ أنه وَجبَ عليَّ أن أكون شاعرًا في شبابي، وتراني أُرددُ أبياتًا من الشعرِ علّمني إياها أستاذي في المدرسةِ منذُ ستين سنة وهذه الأبيات لا تأتي في بالي إلاّ في هذه الأوقاتِ من السنة، لدرجةٍ أنّي أشعرُ برغبةٍ في التجولِ بين الحقولِ وعلى الصخورِ وعلى ضفافِ المياه وأنا أُرددُها."

حضرَ الكابتن جيم ذاك المساءِ كي يُعطي آن مجموعة أصدافٍ لتضعها في حديقتها وباقةً صغيرةً من الأعشابِ التي وجدها خلالَ جولةٍ له على الكُثبانِ الرملية.

وقال لِآن: "أصبحت هذه النباتات نادرةً جدًا على الساحل، كان عددُها أكبر في صغري أمّا الآن قلّما نجدُ منها، لا تعلمي متى تتعثرين بها فتظُنين أنك تتجولين على الرمال وحسب وإذا بكِ تشمّين رائحتها تملأُ المكان وما هي إلا ثوان قليلةً وتكتشفي أنك تدوسينها تحت قدمك. أحبُّ رائحة العشبِ الحلو فهو يذكرُني بأمي."

سألت آن: "هل كانت تحبه لهذه الدرجة؟"

أجابها: "لا أقصدُ أنها كانت تُحبه، ولا أعلم إن كانت رأت أي من الأعشابِ الحلوة، ما قصدته أنَّ رائحتَه تُشبه رائحة الأمهات، الأمهات ذوات الحكمة والتأقلم والمسؤولية كأي أم ارتسمت على وجهِها خطوط العمر والخبرة. لطالما زرعَت منها مدرسةُ إعداد الزوجات، وعليك يا سيدة بلايث أن تزرعي منها وشخصيًا لا أحبُّ النباتات التي تُشترى وأعتقدُ أنّه على كل سيدة زراعة هذه الأعشاب لأنها تليقُ بكل سيدة."

لم تُعجب آن فكرةَ تسوير أزهارها بالأصداف وللوهلة الأولى لم ترَ أن هذه الأصداف مناسبة لتكون ديكور حديقتها، ولكنَّها لا تحب جرحَ

مشاعر الكابتن جيم وترفضُ له هديته لذا تظاهرَت بعكسِ ما تشعرُ به وشكرته من قلبها، وعندما زيَّن الكابتن جيم أطرافَ الأحواضَ بصدفةٍ بيضاءَ اللون نالَ المنظرُ استحسان آن وتفاجأت بالنتيجة. هذه الأصداف لا تنتمي إلا لحديقة منزلِ الأحلام ذات الطراز القديم، ولن تجدها لا في حديقةِ البلدة ولا في غلين.

قالت آن بصدقٍ: "تبدو جميلة."

ردَّ الكابتن جيم: "لطالما اهتمّت مديرة مدرسةِ إعدادِ الزوجات بالأحواض، كانت مُتمرسةً في العناية بالأزهار مُجرد أن تنظُرَ إليها أو تلمسها تُزهرُ بجنون، فالبعضُ يتحلَّون بهذه الموهبة وأظنُّ أنكِ تملكينها أيضًا سيدة بلايث."

آن: "في الحقيقةِ لا أعلمُ إذا كان ما تصفُني به صحيحًا أم لا، ولكنني أعلمُ بأنني أحبُّ حديقتي وأحبُّ الإعتناءَ بها. أن تندمجَ مع النباتات الخضراء التي تنمو وتُراقبَ البراعمَ وهي تَتَفتَح هو أشبَه بالمُساعدةِ في الإبداع على ما أعتقد، وحديقتي تُمثِّلُ الإيمان لكن كل ما عليكَ فعله هو التحلي بالصبر كي تصلَ إلى ما تصبو إليه."

قال الكابتن جيم: "لطالما لفتني منظر البذورِ البنيةِ ورأيت فيها ألوان الطيف، وعندما أفكرُ ببذورها لا أجدُ صعوبةً البتة في تصديق أنَّ لنا أرواحًا أُخرى تعيشُ في عالمٍ آخر. يكادُ عقلُك يعجزُ عن استيعاب أنَّ أجزاءً صغيرةً كهذه فيها حياة، أجزاء بحجمِ الغُبار وحدها مع ألوانِها وروئحها عبارةً عن مُعجزة في حال لم تَرَي أي معجزة من قبل."

آن التي كانت تعدُّ أيامها كمن يعدُّ حبات المسبحة الفضية، لم تعد تستطيع المشي إلى المنارة أو الصعودَ إلى طريق غلين ولكن الآنسة كورنيليا والكابتن جيم مازالا يزوراها في البيتِ الصغير. زيارةُ الآنسةِ كورنيليا كانت تبثُّ السعادةِ في قلبيّ آن وجيلبرت، كانا يضحكان على أحاديثها فورَ مُغادرتها لمنزِلهما، وعندما تصدفُ زيارتِها وزيارةِ الكابتن

جيم للبيتِ الصغير تنقلبُ الجلسة إلى حلبةِ استماعٍ ومشادَّة كلامية بينهما هي تُهاجم وهو يدافعُ لدرجة أنّه في مرَّةٍ لامَت آن الكابتن جيم لمُضايقته للآنسة كورنيليا.

قالَ الكابتن جيم ضاحكًا كالآثمِ غير التائب: "أحبُّ أن أعَكرَ صفوها يا سيدة بلايث، أشعرُ بمتعةٍ لا تُضاهيها متعة، تستطيعُ أجوبتُها أن تكسر الحجر ولا تنكري أنكِ والطبيب تستمتعان بالإستماعِ لها كما أستمتعُ وأكثر."

وذات مساء، جاءَ الكابتن جيم إلى عندِ آن وقد جلبَ معه أزهار الربيع، كانت تضجُّ الحديقةُ بالنداوةِ والهواءِ المُنعش الذي تتسمُ به أمسياتُ الربيع البحري، وتشكلت سحبٌ بيضاءَ فوقَ حافةِ البحرِ وهلالًا يعانقُ السماءَ الصافية وضوءُ النجومِ اللامعة فوق الغلين. كانت أجراسُ الكنيسةِ التي وراء المرفأ تدقُّ بتناغمٍ؛ امتزج كل من الربيع وهوائه وضوءِ القمر وضوءِ النجومِ وأصوات الأجراس وأصبحوا كسمفونية جميلة وأضافت أزهارُ ربيعِ الكابتن جيم لمسةً أخيرةً لتُكملَ المشهد الساحر لهذه الليلة.

قالت آن وهي تحملقُ بها: "لم أجد منها هذا الربيع وقد اشتاقت عينايّ لمرآها."

ردّ الكابتن جيم: "لا يمكنك إيجادها في فوروينذز، ولا يُعثرُ على هذه الأزهار إلا في الأراضي البعيدة التي خلف غلين؛ قمتُ برحلةٍ صغيرةٍ اليوم إلى أرضِ الكُسالى وقطفتُها لك لإعتقادي أنها الأخيرة التي سترينها هذا الربيع فهي على وشك أن تَيبَس."

ردت آن: "كم أنت لطيف وتُفكر بالآخرين يا كابتن جيم، لن يتذكر أحد بأنني أتوقُ كل ربيع لرؤيةِ أزهار الربيع حتى جيلبرت وهي تهزُّ برأسها وتنظرُ نحو زوجها."

"حسنًا، كانت لدي مهمةٌ أخرى اليوم لأقوم بها أيضًا، أردت أن آخذ

السيد هوارد إلى الخلف وهو يسير في فوضى من سمك السلمون المرقط. إنه يحب واحدة من حين لآخر، وهذا كل ما يمكنني فعله لأرد له جميله. لقد أمضيت فترة الظهيرة برفقته أتسامر معه. إنه يحب أن يبادلني الأحاديث، رغم كونه رجلًا مثقفًا وأنا محض بحارٍ عجوز أميّ. إنه شخصٌ بائسٌ مغرمٌ بالأحاديث التي نادرًا ما يستمع إليها الآخرون. إن أهل غلين يشعرون بالخزي منه لاعتقادهم بأنه كافر. إنه ليس كذلك، فلنقل بأنه مجرد زنديق. على الرغم من أن الزنادقة أشرارٌ، إلا أنهم يوقعونك في شباك ودّهم بسهولة. إنه لأمر مضحك أنهم فقدوا عامل الفرز في البحث عن الله، كونهم تحت الانطباع بأنه من الصعب العثور عليه، وهو ما لم يفعله أبدًا. معظم الأخطاء تجاهه بعد فترة، على ما أعتقد. لا أعتقد أن الاستماع إلى حجج السيد هوارد قد تُلحق بي الأذى. ضعي في اعتبارك، أعتقد أن ما نشأت على تصديقه. إنه ينقذ الكثير من العناء - ومن كل ذلك، فإن الله صالح. المشكلة مع السيد هوارد أنه ذكيٌ جدًا. وهو يعتقد بأنه لا بد من نفسي الارتقاء إلى مستوى ذكائه، وأنه من الأفضل لنا أن نبحث عن طريقٍ جديدٍ يؤدي بنا إلى الجنة عوضًا عن تلك الطرقات القديمة التي اتبعها الجاهلون الكثر. لكنه سيصل إلى هناك في وقت ما بشكل جيد، وبعد ذلك سوف يضحك على نفسه."

قالت الآنسة كورنيليا والتي كانت على يقينٍ من أن ذلك ليس سوى إحدى البدع: "لقد كان السيّد هوارد ميثوديًا في بادئ الأمر."

قال الكابتن جيم بجرأة: "هل تعلمين يا كورنيليا بأنني إن لم أعتنق المشيخية فعندها سأتبع الميثودية."

أقرّت الآنسة كورنيليا: "آه، حسنًا، أعتقد بأن ديانتك ليست بالمهمة أبدًا ما دمت لست من الكنيسة المشيخية. وبالحديث عن البدعة لقد تذكرت أيها الطبيب، لقد أحضرت ذلك الكتاب الذي أعرتني إياه، لقد

قرأت ثلثه فقط، هذا طبيعي القانون في العالم الروحي. ولكن ما أدركته حقًا بأنه لا يمت لا للحقيقة ولا للهراء بصلة.

اعترف جيلبرت: "لقد أخبرتك يا آنسة كورنيليا قبل أن تأخذيه بأنه يتمحور حول الهرطقة.

قالت الآنسة كورنيليا بهدوء: "أوه، لم أكن أعلم بأنه كذلك أبدًا. قد يكون بوسعي تحمل بعض الشرور ولكنني على يقينٍ من أنني لن أستطيع تحمل أي حماقة. وبهجة قول آخر شيء يمكن قوله عن القانون الطبيعي.

قال الكابتن جيم: "بالحديث عن الكتب، لقد أنهيت قصة مجنون ليلى الأسبوع الماضي. يمتد الكتاب إلى مئة وثلاثة فصل. عندما تزوجا توقف الكتاب على الفور، لذلك أعتقد كانت مشاكلهم في كل مكان. من الجيد حقًا أن هذا هو الحال في الكتب على أي حال، أليس كذلك، حتى لو لم يكن الأمر كذلك في أي مكان آخر؟"

قالت الآنسة كورنيليا: "لم يسبق لي أن قرأت الروايات أبدًا. وبالمناسبة، هل تناهى إلى مسامعك حال جوردي راسل اليوم أيها الكابتن جيم؟"

"نعم، لقد عرجت إلى منزله لأتفقد حاله. إنه بأتم صحة، ولكن المشاكل لا تنفك تلاحقه كالعادة. يا للرجل المسكين!"

"إنه من يجلبها لنفسه. أتساءل كيف ما يزال باستطاعته تحملها."

قالت الآنسة كورنيليا: "إنه حقًا رجلٌ كئيب!"

"حسنًا، أنا لا أظن بأنه كذلك تمامًا يا كورنيليا. إنه رجلٌ طيب القلب وخفيف الظل، ولكنه لم يجد بعد ما يريده حقًا."

"ألا يشير هذا للكآبة؟"

"لا، أبدًا. الشخص الكئيب هو الذي يفقد الأمل من العثور على مبتغاه. وجوردي لم يصل إلى تلك الحال بعد."

"أنت تبرّئ الشيطان من أعماله يا جيم بويد."

"حسنًا، أنا لا أفعل ذلك يا كورنيليا. فأنا قد سمعت قصة السيدة العجوز التي قالت بأنه مثابر."

"هل تؤمن به؟" سألت الآنسة كورنيليا بجدية.

"كيف يمكنك طرح سؤالٍ كذلك وأنت تعلمين بأن المشيخية تسري في عروقي يا كورنيليا؟ بالطبع أؤمن، إنه موجودٌ في كل مكان."

"وأنت أيها الكابتن جيم؟" سألت الآنسة كورنيليا.

وفجأةً شحب وجه الكابتن جيم.

فأجابها برسمية: "أنا أؤمن بما قاله لي القس ذات مرةٍ بأنه القوة الجبارة، والطاقة الشريرة والخبيثة السائدة في هذا الكون. وهذا ما يفسر إيماني بوجوده يا كورنيليا. يمكنك أن تطلقي عليه اسم "الشيطان" أو" الشر الأعظم" أو "ملك الخبث" أو أي اسمٍ تريدينه. إنه موجود، ولا يستطيع الكفار والزنادقة إنكار ذلك، وإن فعلوا فالأمر متروكٌ للرب عندها. إنه موجود، ويقوم بعمله باحترافية. واعلمي يا كورنيليا بأنه سيبقى كذلك لمدى الحياة."

قالت الآنسة كورنيليا: "وأنا متأكدةٌ من ذلك. ولكن بالحديث عن الشيطان، أنا متأكدةٌ من أنه يتحكم ببيلي بوث الآن. هل سمعت آخر إنجازاته؟"

"لا، ما الذي فعله؟"

"لقد أحرق بدلة زوجته الجديدة ذات اللون البني الداكن، والتي اشترتها بقيمة خمسة وعشرين دولارًا من شارلوت تاون، لأن جميع الرجال قد وقعوا في حبها عندما ارتدتها للمرة الأولى وذهبت بها إلى الكنيسة. أبرأيك، ذلك فعلٌ بشريّ؟"

قال الكابتن جيم بتمعن: "زوجة بوث السمراء فائقة الجمال."

"أيعد هذا سببًا وجيهًا يدفعه لإلقاء بدلتها الجديدة في موقد

المطبخ؟ إن بيلي بوث ليس سوى أحمق غيور يحطّم حياة زوجته. لقد بكت طوال الأسبوع عليها. أوه يا آن، أتمنى لو كان باستطاعتي أن أكتب مثلك. أعتقد بأنني لو استطعت ذلك لتهافت الرجال عليّ."

قال الكابتن جيم: "هذه الأكشاك كلها جميلة. لقد بدا بيلي عاقلًا جدًا بزواجه حتى اندلعت نار الغيرة داخل أوصاله. أمّا شقيقه دانيال، فهو للآن يبدو غريبًا."

قالت الآنسة كورنيليا باستمتاع: "لقد تعرض لنوبات غضبٍ جعلته يرقد في فراشه طيلة الأسبوع الماضي، الأمر الذي دفع زوجته للقيام بكل أعمال الحظيرة حتى لا يصب جام غضبه عليها. وعندما مات، أخذ الجميع يكتبون لهم رسائل تعزيةٍ تنم عن حزنهم. وإن كنت قد كتبت أي شيءٍ له فهو بمثابة تهنئة. والدهم، أبرام بوث، كان خبيثًا يثير الاشمئزاز. وقد كان مخمورًا في جنازة زوجته، إذ أخذ يترنح ويقول: "أنا... لم... أشرب... الكثير، ولكنني أشعر... بأنني... فظيع." سدّدت لكمةً على وجهه بمظلتي عندما دنا مني. ولم يستيقظ من دوامته إلا عندما أخرج النعش من المنزل. كان من المفترض أن يتزوج جوني بوث الصغير بالأمس، ولكنه لم يستطع ذلك لأنه قد أصيب بالنكاف. يا للرجال!"

"كيف سيتعافى منه؟ يا للرجل المسكين!"

"صدقني، ستكون مسكينًا، صدقني، لو كنت مثل كيت ستيرنز. لا أعرف كيف، ولكن كل ما أعرفه بأن عشاء الزفاف والتحضيرات ستجهز قبل أن يتعافى. إن هذا مضيعةٌ للوقت! كان ينبغي أن يصاب بالنكاف عندما كان في ريعان شبابه."

"كفى يا كورنيليا، ألا تعتقدين بأن روحك مليئةٌ بالشرور؟"

فضلت الآنسة كورنيليا الصمت، والتفتت إلى سوزان بيكر عانس المرتفعات ذات الوجه الكئيب والقلب الطيب، والتي تم تعيينها

كخادمةٍ لجميع الأعمال المنزلية لبضعة أسابيع. كانت سوزان قد ذهبت إلى غلين لتطمئن على العمة المريضة، وقد عادت لتوها.

"كيف حال العمة العجوز المسكينة ماندي؟" سألت الآنسة كورنيليا.

تنهّدت سوزان، وأجابت: "حالها يزداد سوءًا يا كورنيليا. أعتقد بأن الجنة تنتظرها. يا للمسكينة!"

صاحت الآنسة كورنيليا بنبرةٍ متعاطفة: "أوه، أنت بالتأكيد تمزحين! لم يتخذ الأمر ذلك المنحى أليس كذلك؟"

تبادل الكابتن جيم وجيلبرت النظرات، ثم استقاما فجأةً وخرجا.

قال الكابتن جيم محاولًا كبح ابتسامته: "الضحك في غير أوقاته يعد خطيئة. إنهما امرأتان ممتازتان جدًا!

***

19
الشروق والغروب



في أوائل شهر حزيران، عندما كانت التّلال الرملية ممجدةً بالوُرود البرّية الوردية اللون، وغلين مغمورةً بأزهار التفاح، عادت ماريلا، التي كانت تعيش في غرفة المرتفعات الخضراء بهدوءٍ لنصف قرن، إلى المنزل الصغير وهي تتلقف بين يديها صندوقًا أسود اللون مزينًا بمسامير نحاسيةٍ بطريقةٍ جذابة. كانت سوزان بيكر، التي جاءت لتقيم في المنزل الصغير لمدة أسابيع قليلةٍ بغية مساعدة السيدة الشابة الطبيبة، كما أطلقت على آن، بحماسٍ وثقة، تنزعج من ماريلا بشكلٍ مفرط. ولكن بما أن الأخرى لم تتدخل بشؤون المطبخ ولم تقاطع أعمالها، رأفت الخادمة الطيبة بحالها، وأخبرت جميع أصدقائها في غلين بأن الآنسة كوثبرت سيدةٌ عجوزٌ رائعةٌ، لا تتجاوز حدودها.

وفي إحدى الأمسيات، عندما ارتسمت السماء بالأشعّة الحمراء، وغرّدت عصافير أبو الحناء أجمل الترانيم لنجوم المساء في رحاب الشفق الذهبي، طغى اضطرابٌ صغيرٌ على بيت الأحلام الصغير. فقد تلقّى أهل غلين اتصالًا هاتفيًا، دفع بالطبيب دايف والممرضة بردائها الأبيض للمغادرة على عجل، بينما اكتفت ماريلا بالسير بين الحديقة،

وهي تتلو الصلوات بشفتيها العذبتين، في حين جلست سوزان في المطبخ، وهي ترتدي مئزرها الصوفي، وتضع قطنتين في أذنيها.

لاحظت ليزلي من منزلها أعلى الجدول بأن أضواء المنزل الصغير مشتعلةً على غير العادة، الأمر الذي حرم عينيها النوم تلك الليلة.

كانت ليلة حزيران تلك قصيرةً، إلا لأولئك الذين كانوا ينتظرون بترقبٍ وخوف.

"أوه، ألن ينتهي الأمر أبدًا؟" قالت ماريلا.

لقد رأت مدى خطورة الأمر من خلال ملامح الطبيب والممرضة الجادة، فالتزمت الصمت ولم تتجرأ على طرح المزيد من الأسئلة على عكس آن.

قالت سوزان بشراسةٍ وهي ترى الألم الذي يتجسد في عيني ماريلا: "لا تسألي. يا لقساوة الرب عندما يحرمنا ممن نحبهم."

قالت ماريلا بصوتٍ أجش: "لقد حرم العديد من أحبائهم."

ولكن مع بزوغ الفجر، حين مزّقت أشعة الشروق الضباب الكثيف الذي يحيط التلال، وصنع منها أقواس قزح، تهللت أسارير المنزل الصغير. لقد خرجت آن سالمةً بعد أن وضعت طفلةً صغيرةً ورثت عينيها.

عاد جيلبرت، الذي كان وجهه شاحبًا تعلوه علامات الإرهاق من عذاب تلك الليلة، ليخبر ماريلا وسوزان بالأمر.

قالت ماريلا بنبرةٍ مرتجفة: "الشكر للرب."

قالت سوزان بعض أن أخرجت القطن من أذنيها: "هيا لتناول الإفطار. فأنا أوافق قول "الطعام يجلب السعادة." عندما تذهب أخبر السيدة الطبيبة بألّا تقلق أبدًا بشأن أي شيءٍ، فأنا هنا أتولى الأمر. أخبرها فقط أن تهتم بطفلتها."

وضع جيلبرت ابتسامةً على وجهه، وغادر. لقد كان وجه آن شاحبًا

من الألم، وعيناها تتوهجان ببريق الأمومة المقدس، ولم تكن بحاجةٍ إلى أحدٍ ليقول لها أن تفكر بطفلتها. لم تستطع التفكير في أي شيءٍ آخر، سوى الطفلة التي وضعتها. لقد استطاعت تذوق طعم السعادة لساعاتٍ لدرجةٍ أخذت تتساءل ما إن كانت الملائكة تحسدها على لحظاتها تلك.

تمتمت قائلةً عندما جاءت ماريلا لرؤية الطفلة: "جويس الصغيرة، هذا هو اسمها! لقد خططنا لتسمية الطفل جويس إن كانت فتاة. لقد جالت العديد من الأسماء في خلدنا ولكننا رسينا في نهاية المطاف على جويس. باستطاعتنا أن نلقّبها بجوي. إنه اسمٌ رائعٌ حقًّا."

"أوه يا ماريلا، لقد اعتقدت بأنني كنت أعيش حياةً سعيدة، ولكنني الآن اكتشفت من أن ما عشته لم يكن إلا حلمًا. سعادتي الآن لا تضاهي شيئًا أبدًا. هذه هي الحقيقة."

قالت ماريلا بحذر: "أريحي نفسك يا آن، فأنت لم تتعافي بعد."

ابتسمت آن، وقالت: "أنت تعرفين كم يصعب عليّ أن ألجم لساني."

لقد كانت خائرة القوى وسعيدةً بطفلتها، ولكن ما إن لاحظت أمارات الحزن التي تطغى على جيلبرت والممرضة، ومدى تعاسة ماريلا، ارتجفت أوصالها، وقد تسلّل الخوف إلى قلبها بلا رحمةٍ كضبابٍ يفرض سلطته على الأرض. لماذا جيلبرت ليس سعيدًا؟ لماذا لا يتحدث عن الطفلة؟ لماذا لا يسمحون لها باحتضانها بعد تلك الساعة السعيدة الأولى لها؟ هل... هل هناك خطبٌ ما؟

همست آن بنبرةٍ متوسلة: "جيلبرت... الطفلة بخير أليس كذلك؟ هيا أخبرني... أخبرني."

كان جيلبرت غارقًا في دوامة تفكيره، قبل أن ينحني عليها، وينظر في عينيها بعمقٍ شديدٍ ويخبرها بالأمر.

تناهى إلى مسامع ماريلا، التي كانت تقف خارج الغرفة، أنينًا حزينًا يرثى له. فهربت إلى المطبخ حيث كانت سوزان هي الأخرى تبكي.

"أوه، يا للطفلة المسكينة! يا للطفلة المسكينة! كيف ستتحمل الأمر يا آنسة كوثبرت؟ أخشى أن تلقى حتفها من شدة الحزن. لقد كانت سعيدةً جدًا بها، وتتوق شوقًا لاحتضانها. لا شيء سيخفف عذابها يا آنسة كوثبرت؟"

"مع الأسف يا سوزان. يقول جيلبرت بأنه كان يعلم بأن الطفلة لن تصمد أبدًا."

قالت سوزان وهي تبكي: "كم هي طفلةٌ حلوة. لم أر أبدًا طفلةً ببياض بشرتها، وباحمرار وجنتيها، وباتساع عينيها. لقد بدت أكبر من عمرها بكثير. يا للطفلة المسكينة! ويا للسيدة الطبيبة المسكينة!"

ومع غروب الشمس، رحلت الروح الصغيرة التي ولدت مع شروقها مخلفةً وراءها قلوبًا تنزف حزنًا وحسرة. أخذت الآنسة كورنيليا الطفلة البيضاء الأولى من يدي الممرضة اللطيفة والغريبة، وألبستها فستانًا جميلًا قد صنعته ليزلي لأجلها، بعد أن طلبت منها ذلك. ثم أعادتها، ووضعتها بجانب أمها المسكينة مكسورة القلب، والتي لم تجف دموعها أبدًا.

قالت بدموع: "لله ما أعطى ولله ما أخذ يا عزيزتي. فليتبارك اسم الرب."

ثم ذهبت تاركةً آن وجيلبرت وحدهما مع طفلتهما.

في اليوم التالي، وُضعت جوي الصغيرة البيضاء في نعشٍ مخمليٍّ كانت ليزلي قد زينته بأزهار التفاح، وأُخذت إلى مقبرة الكنيسة عبر المرفأ. أخفت الآنسة كورنيليا وماريلا كل الملابس الصغيرة المصنوعة بحبٍ لها، بعيدًا، جنبًا إلى جنب مع السلة المكشكشة التي تم حشوها وتثبيتها من أجل الأطراف المتساقطة والرأس الناعم. لم تكن جوي

الصغيرة نائمة براحةٍ أبدًا في ذلك السرير الضيق البارد.

تنهدت الآنسة كورنيليا: "هذه أكبر خيبة أملٍ أصاب بها. كم تمنيت أن تكون طفلةً جميلة! وكم كنت أتوق للعب معها."

قالت ماريلا برعشة: "لا يسعني إلا أن أشكر الرب على لطفه بآن."

قالت سوزان: "يا للفتاة المسكينة ذات القلب المنكسر!"

قالت ليزلي فجأةً وبشراسة: "أنا أحسد آن، وسأظل أفعل حتى لو ماتت طفلتها. لقد استطاعت أن تلعب ولو ليومٍ واحدٍ دور الأمومة. سأضحي بحياتي كلها من أجل لحظةٍ كتلك."

استطردت الآنسة كورنيليا قائلةً، مخافة أن تظن الآنسة كوثبرت الأخرى قاسية القلب: "لا تقولي ذلك يا عزيزتي ليزلي."

كانت فترة نقاهة آن طويلةً أشعرتها بالمرارة الشديدة. كانت كلما أزهرت الورود على مدار الفصول تتذكر قبر طفلتها الذي يفوح شذى، وكلما اشتدت الرياح حول المنزل تسمع استنجاداتها الحزينة، وكلما أمطرت السماء بغزارة عند الميناء، تتخيل المطر يضرب القبر الصغير دون رحمة.

كانت اتصالات الجميع اللطيفة تطعن قلبها، وتزيد الجرح جرحًا، ولاسيما تلك الكلمات التافهة المبجلة بثوب الشفقة والحب بغية تغطية عظمة الفاجعة. أما رسالة فيل بليك، التي كتبتها مهنئةً آن بسعادةٍ، فلم تزد الأمر إلا سوءًا، فهي قد سمعت بولادة الطفلة فقط، وليس بموتها.

قالت لماريلا ببكاء: "كم كنت سأسعد بها لو بقيت على قيد الحياة. ولكن مع ذهابها أصبح العالم أكثر وحشيةً وظلمًا عما كان عليه. أنا أعلم بأن فيل لم تقصد أذيتي أبدًا برسالتها. أوه يا ماريلا، لا أعلم إن كنت سأعود لسعادتي القديمة بعد الآن، فالأمر سيظل خالدًا في ذاكرتي طيلة حياتي."

"سيشفيك الوقت يا آن." قالت ماريلا، التي انتابتها مشاعرٌ من التعاطف، والتي لم تستطع أن تعبر عنها إلا بطرقها القديمة.

قالت آن بثورة: "الحياة ليست عادلة أبدًا. رغم أن العديد من الأطفال يولدون في أماكن مختلفةٍ من هذا العالم مشردين ومهمشين من قبل أهلهم، كنت أنا بدوري سأحب طفلتي، وأعتني بها، وأمنحها كل ما تريده دون كللٍ أو ملل. ولكن لم يسمح لي بالاحتفاظ بها."

قالت ماريلا بعجزٍ أمام إرادة القدر المؤلمة: "لقد كانت إرادة الرب. فاخلعي رداء الحزن يا آن فهو لن يفيدك أبدًا."

صرخت آن بمرارة: "أنا لا أستطيع تصديق الأمر أبدًا."

وعندما رأت دهشة ماريلا، أضافت بهمجية: "لماذا كتب عليها أن تولد؟ لماذا؟ لماذا كتب على الإنسان أن يولد ليموت؟ إن موت الطفلة ليلة ولادتها عوضًا عن عيشها حياتها أمرٌ بالغ القسوة يا ماريلا. لماذا لم تحيا لتحب وتحَب؟ لتستمتع وتعاني؟ لتعمل وتطوّر من شخصيتها؟ لماذا لم تحيا لتكتشف إرادة الرب؟ ربما كانت كذلك مجرد إحباط لإحباط قصده من خلال قوة الشر. لا يمكن أن نتوقع أن نستسلم لذلك."

قالت ماريلا بقلقٍ خشية أن تغرق آن في قعر تلك الأحزان والأوهام: "أوه يا آن، لا تقولي ذلك. قد لا نتقبل مشيئة القدر، ولكننا نستطيع الإيمان به. فالإيمان هو منقذنا الوحيد. أعلم بأنك قد تجدين صعوبةً بما أقوله، ولكن كل ما عليك فعله الآن هو لملمة شتات نفسك من أجل جيلبرت. فهو قلقٌ جدًا بشأن حالتك، وخائفٌ بألا تعودي آن التي عرفها."

تنهدت آن: "أوه، أنا أعلم بأنني أنانيةٌ جدًا. أنا مغرمةٌ بجيلبرت، ومستعدةٌ لأن أفعل ما بوسعي بغية إسعاده. ولكن جزء مني قد دفن هناك في تلك المقبرة الصغيرة الواقعة قرب الميناء. ما زلت أسيرةً

للخوف، فأنا لم أشف بعد من طعنة الحياة."

"لن يدوم ألمك هذا يا آن."

"التفكير بأنه قد لا يؤذيني، يزيد ألمي أضعافًا مضاعفةً يا ماريلا."

"هذا صحيح، فأنا قد ذقت الشعور عينه حيال أشياءٍ كثيرة. ولكننا جميعًا نحبك يا آن. فالكابتن جيم يزورنا كل يومٍ ليسأل عن حالك، والسيدة مور تطارد المكان، والآنسة براينت تقضي معظم وقتها في إعداد بعض الأطباق اللذيذة التي قد تسعدك، الأمر الذي يغيظ سوزان. فهي تعتقد بأنها تستطيع أن تتفوق على الآنسة برايت في المطبخ."

"آه، عزيزتي سوزان! الجميع يعاملني بطيبةٍ وحبٍ يا ماريلا. وأنا ممتنةٌ لهم، ولكنني لن أستمر في عيش حياتي إلا عندما يتلاشى هذا الألم ولو قليلًا."

***

20
مارجريت الضائعة



أيقنت

آن من أن حياتها لن تقف على موت طفلتها، فعاودت ارتداء ثوب سعادتها، ولاسيما في ذلك اليوم الذي حضرت فيه إحدى خطابات الآنسة كورنيليا. شيءٌ ما كان يختبئ في ابتسامة آن لن تنكره ما حَيت.

في اليوم الأول من مغادرتها لكهفها، استقلت العربة برفقة جيلبرت قاصدةً منطقة فوروينذز، حيث تركها هناك وذهب للكشف عن مريضٍ في قرية الصيد. كانت الرياح عاتيةً تعوي فوق المرفأ والكثبان الرملية، وتهيّج الأمواج التي تحتضن بدورها الشاطئ الرمليّ بخيوطٍ فضيةٍ.

قال الكابتن جيم: "أنا فخور حقًا برؤيتك هنا مرةً أخرى يا زوجة بلايث. استريحي، استريحي. أعتقد بأن الجو ثائرٌ اليوم، ولكن ذلك ليس بالمهم أمام رؤيتك هنا يا عزيزتي."

قالت آن: "أنا لا أمانع التجول في جوٍ كهذا، ولكنّ جيلبرت دائمًا ما يخبرني بأن أبقى في جوٍ نقي. أعتقد بأنني سأذهب وأجلس على الصخور."

"أترغبين بأن أرافقك أم تفضلين البقاء وحدك؟"

قالت آن بابتسامة: "إن كنت أنت من ستؤنسني في وحدتي فلن أمانع الأمر أبدًا."

أطلقت آن تنهيدةً عميقةً تنم عن خوفها، فهي لم يسبق لها وأن فكرت بالبقاء وحيدةً أبدًا. لقد لاع قلبها ونزف عندما اختبرت شعور الوحدة في الأيام السابقة.

قال الكابتن جيم عندما وصلوا إلى الصخور: "فلنجلس هنا، إنها بقعةٌ مناسبةٌ لن تطالنا الرياح فيها. أنا غالبًا ما أجلس هنا. إنه مكانٌ رائعٌ يجذبك للجلوس فيه، وإطلاق العنان لأحلامك."

تنهدت آن: "أوه، الأحلام. لم يعد باستطاعتي الطيران مع الأحلام أيها الكابتن جيم. لقد قطع جناحاي، ولم يعد بمقدوري فعل ذلك"

قال الكابتن جيم بتمعن: "أوه، لا... لم يحدث ذلك أيتها السيدة بلايث... بالطبع لم يحدث. أعلم ماهية شعورك الآن، ولكن لا تستسلمي، وواصلي العيش حتى تتذوقي طعم السعادة مجددًا، وعندما تصبحين مستعدةً للطيران مع أحلامك اشكري الرب على ذلك. فنحن دون أحلامٍ مجرد أموات. كيف سنعيش إن لم نحلم بالخلود؟ وهذا حلم لا بد أن يتحقق يا زوجة بلايث. سترين صغيرتك جويس مرةً أخرى ذات يوم."

قالت آن وهي على شفا البكاء: "ولكنها حينها لن تكون طفلتي بل مجرد غريبة. أوه، قد تكون، كما يقول لونغفيلو، عذراءٌ جميلةٌ ترتدي لباسًا ملائكيًا."

قال الكابتن جيم: "اتركي ذلك للرب يا آن، فهو القادر على كل شيء. أعلم بتلك الأمور."

ساد الصمت المكان لبضع دقائق، ومن ثم كسره الكابتن جيم قائلًا بنبرةٍ هادئة: "سيدتي بلايث، هل لي أن أخبرك عن ضياع مارجريت؟"

أجابته آن بلطف: "بالطبع يمكنك."

لم يسبق لآن أن سمعت بقصة مارجريت الضائعة، فرحبت بالفكرة بحبٍ شديد. فكيف لا وهي ستستمع إلى قصة حياة الكابتن جيم المليئة بالرومانسية.

تابع الكابتن جيم: "كم كنت أرغب بقصّها عليك! أتعلمين لم يا سيدة بلايث! هذا لأنني أريدها أن تظل قابعةً في ذاكرة أحدهم، فيستطيع أن يستحضرها بعد موتي. أنا لا أستطيع تحمل فكرة أن ينسى الجميع اسمها. فلا أحد يتذكر اسمها الآن سواي."

ثم روى الكابتن جيم القصة على مسامعها. تلك القصة القديمة التي لم تحترق أوراقها أبدًا في ذاكرته. لقد مضى أكثر من خمسين عامًا على نوم مارجريت مكان والدها، وانجرافها، كما هو متعارفٌ عليه. فلا شيء يؤكد مصيرها للآن. خارج القناة، وراء الحانة، لتهلك في سقوط الرعد الأسود الذي ظهر فجأةً ظهر ذلك الصيف منذ فترة طويلة. بدا كل ذلك لجيم وكأنه قد حدث في الأمس.

قال بحزن: "لقد سرت على الشاطئ لأشهرٍ بعد أن فقدتها، أبحث عن طيف جسدها الصغير الجميل، ولكن البحر لم يسعفني ويعيدها. أنا على يقينٍ من أنني سأجدها يومًا ما، ومن أنها تنتظر ذلك اليوم على أحر من الجمر. كم أتمنى أن أصف لك ملامحها، ولكنني لا أستطيع. عندما رأيت ضبابًا لامعًا ذات يومٍ يتدلى فوق البار عند شروق الشمس، رأيت وجهها. وعندما رأيت شجرةً مزهرةً بيضاء شامخةً في الغابة تذكرتها. كانت ذات خصلاتٍ بلون القهوة، ووجه أبيض ناعم يدعوك لتقبيله، وأصابع طويلة ونحيلة كأصابعك تمامًا يا سيدة بلايث... ولكنها سمراء برونزية بسبب كثرة ترددها إلى الشاطئ. وأحيانًا عندما أستيقظ في منتصف الليل أسمع البحر يناديني، كما لو أن مارجريت المفقودة هي من تستدعيني. وعندما تهب عاصفةٌ ويثور البحر يتناهى إلى مسامعي صوت بكائها وشهقاتها. وعندما يضحك الجميع من

حولي في تلك الأيام المفعمة بالبهجة، أفتقد ضحكات مارجريت اللطيفة النقية. لقد أخذها البحر مني، ولكنني سأجدها ولو كلَّف الأمر عمري يا سيدة بلايث. فالأحباء لا يفترقون للأبد."

قالت آن: "أنا سعيدةٌ لأنك بُحت لي عنها. لطالما تساءلت لماذا أمضيت حياتك وحيدًا."

قال العاشق المسكين، الذي كان وما زال مخلصًا لحبيبته الضائعة منذ خمسين عامًا: "لم أستطع أبدًا أن أفتح قلبي لأيّ أحدٍ آخر. لقد رحلت مارجريت وأخذت معها فؤادي. أنت لا تمانعين إن تحدثت عنها أمامك يا سيدة بلايث أليس كذلك؟ لقد أراحني الحديث عنها، وأزال ألم ذكرياتها. أعلم بأنّك لن تنسيها أبدًا يا سيدة بلايث. وإن منحتك السنون، كما أتمنى، أطفالًا آخرين ليلعبوا حولك، أخبريهم بقصة مارجريت الضائعة، حتى تبقى حيّةً في ذاكرة الجميع. عديني بأنك ستفعلين يا سيدة بلايث."

***

21
تخطي الحدود



كسرت ليزلي الصمت قائلة: "آن! أنتِ لا تدركين مدى أهمية أن أجلس هنا معك مرة أخرى، أن أعمَل وأتحدَّث معك، وحتى أن أتلذَّذ بالصمت معك."

كانتا تجلسان بين الأعشاب الخضراء ذات الجوانح الزرقاء بجوار نهر حديقة آن. كان الماء يتلألأ ويتدفق من أمامهما، وتلقي البتولا الخضراء بظلالها المرقطّة عليهما، وتحيطهما الورود من كل جانب.

كانت الشمس قد بدأت في المغيب، والهواء يتمايل مع الألحان، والتنوب يعزف موسيقاه الكلاسيكية في الفناء، والموج يدندن أجمل النغمات عند البار، كما يفعل جرس الكنيسة البعيد والسيّدة البيضاء. لقد أحبّت آن ذلك الجرس كثيرًا، رغم ألم ما جلبه لها.

نظرت آن بفضولٍ إلى ليزلي، التي أوقفت خياطتها وبدأت تسرد كل مكنون شعورها على غير عادتها، دون أن تلق بالًا لما تتفوه به شفتاها من كلمات: "في تلك الليلة الرهيبة عندما كنت مريضةً جدًا، ظللت أفكِّر أننا ربما لن نحظ بالمزيد من المحادثات والمشي والعمل معًا. وأدركت تمامًا ما تعنيه صداقتك بالنسبة لي، ما تعنيه أنتِ لي يا آن،

وأدركت حينها العجماء الحقودة التي كنت عليها معك."

"ليزلي! ليزلي! أنا لا أسمح لأي شخصٍ أن ينعت أصدقائي بهذه الأسماء."

"ولكنها الحقيقة! هذا ما أنا عليه بالضبط، عجماءٌ حقودة... آن! هناك شيءٌ يجب أن أخبرك به. أعتقد أن هذا سيجعلك تحتقرينني، ولكن يجب أن أعترف بذلك. آن... كانت هناك أوقاتٌ في الشتاء والربيع الماضيين قد كرهتك فيها بحق."

قالت آن بهدوء: "أنا أعرف."

"تعرفين؟؟؟"

"أجل! كان واضحًا من عينيكِ."

"ومع ذلك استمررت في مصادقتي، وإغراقي بحبك؟"

"نعم، فأنت كنت تكرهينني بين حينٍ وآخر. وهذا يعني بأنك قد أحببتني ما بين تلك الأوقات."

"بالتأكيد، لقد أحببتك بشدّة، ولكن هذا الشعور المروع الآخر كان دائمًا يراودني، ويفسد قلبي بالبغض مرّةً أخرى. أحيانًا كنت أتجاهله، وأحيانًا أخرى كان يتغلّب عليّ. لقد كرهتك لأنني شعرت أنك... أوه، لقد كنت أحسدك في بعض الأحيان، كان شعور الغيرة يقتلني. فأنت تمتلكين منزلًا صغيرًا دافئًا مليئًا بالحب والسعادة والأحلام. كنت تمتلكين جميع ما حلمت به. لم أستطع أن أحقق حلمًا واحدًا من تلك الأحلام! وهذا كان يقتلني قهرًا.

لم أكن لأحسدك لو أن الحياة أعطتني بعض الأمل يا آن، ولكنها لم تفعل، ولم أقدر منع نفسي عن ذلك الشعور... لم يبد الأمر عادلًا البتة. لقد جعلني متمردة، وقد آلمني ذلك، ولذا كرهتك في بعض الأحيان. أوه، كنت أشعر بالخجل الشديد من ذلك، يا للعار الذي أتآكل منه الآن! ولكنني لم أستطع التغلب على ذلك يا آن.

في تلك الليلة، عندما كنت خائفةً من أنك قد لا تعيشين، اعتقدت أن ذلك سيكون عقابًا على شرّي، وقد أحببتك في ذلك الوقت. آن... آن... لم يكن لدي أي شيء أحبه منذ وفاة والدتي، باستثناء ذاك البغيض ديك، ومن أكثر الشعور فظاعةً ألا يكون لديك ما تحبينه... تشعرين بأن الحياة فارغة جدًا... ولا يوجد ما هو أسوأ من الفراغ... وربما كنت قد أحببتك كثيرًا... ولكن هذا الشعور الرهيب قد أفسد الأمر."

كانت القشعريرة تتلبس جسد ليزلي وهي في زمرة انفجار عواطفها هذه، وقد لاحظت آن ذلك فقالت: "لا تفعلي هذا بنفسك يا ليزلي، أنا أتفهمك جيّدًا، أعرف هذا... دعينا لا نتكلم عن الأمر بعد الآن."

"لا بد لي أن أفعل ذلك... لا بد لي. عندما علمت أنك ستعيشين، أقسمت أنني سأخبرك بمجرد أن تصيري على ما يرام، أنني لن أستمر في صداقتك ورفقتك دون أن أخبرك كم كنت لا أستحقها. ولكنني كنت خائفةً جدًا من أن ينقلب الأمر برمَّته ضدّي."

"لا داعي للخوف من ذلك يا ليزلي."

شبكت ليزلي يديها البنيتين بإحكامٍ لتوقِف ارتجافهما، وقالت: "آه! أنا سعيدةٌ الآن، سعيدةٌ جدًا يا آن! لكنني أريد أن أخبرك بكل شيء الآن. أتذكرين المرة الأولى التي رأيتك فيها على ما أعتقد... لم تكن تلك الليلة على الشاطئ..."

"لا، كانت تلك الليلة التي جئت فيها أنا وجيلبرت إلى المنزل. كنت تقودين الإوز إلى أسفل التل. أعتقد أنني أتذكر ذلك! اعتقدت أنك جميلة جدًا حينها، وظللت لأسابيع أعيش بشوقٍ لمعرفة من أنت."

"كنت أعرف من أنت حينها، على الرغم من أنني لم أر أيًا منكما من قبل. لقد سمعت عن الطبيب الجديد وعروسته اللذين سيأتيان للعيش في منزل الآنسة راسل الصغير. لقد كرهتك منذ تلك اللحظة بالذات يا آن."

"أوه لقد شعرت بالاستياء في عينيك، وحينها شككت بذلك، ثم قلت إنه لا بدّ من أن أكون على خطأ... فلم ستكرهني فتاةٌ لم تعرفني من قبل قط؟"

"كان ذلك لأنك بدوتِ سعيدةً جدًا. أوه، الآن ستتفقين معي بأنني كنت عجماء حقودةً مرّةً أخرى كوني كرهت امرأةً لمجرد أنها كانت سعيدة، بينما لم تأخذ سعادتها تلك أي شيءٍ مني!

لماذا لم أذهب لرؤيتك أبدًا؟ كنت أعرف جيدًا أنه يجب أن أذهب، فحتى عادات وتقاليد فوروينذز البسيطة كانت تتطلب مني ذلك... ولكنني لم أستطع... كنت أشاهدك من نافذتي... كان بإمكاني رؤيتك أنت وزوجك تتجولان في الحديقة مساءً... أو تجرين في ممر الحور لمقابلته... وقد آلمني ذلك.

ولكن وبطريقةٍ أخرى أردت أن آتي، شعرت بأنك لست بائسةً، وأعجبتُ بك ووجدت فيك ما لم أجده من قبل في حياتي، رأيت فيكِ تلك الصديقة الحميمة الحقيقية من جيلي.

أتتذكرين تلك الليلة على الشاطئ؟ كنتُ خائفةً من أن تعتقدي بأنني مجنونة. لا بد أنك فعلت ذلك."

"لا، ولكني لم أستطع فهمك حينها يا ليزلي. كنت تارةً تجذبينني إليك، وتارةً تدفعينني إلى الوراء."

"كنت حزينةً جدًا في ذلك المساء، لقد مررت بيومٍ صعبٍ للغاية. كان من الصعب جدًا إرضاء ديك في ذلك اليوم. بشكلٍ عام، كان لطيفًا للغاية ويمكن التحكم فيه بسهولة، كما تعلمين يا آن. ولكن في بعض الأيام يكون مختلفًا تمامًا... شعرت بالحزن الشديد... وهربت إلى الشاطئ بمجرد أن غفى... لقد كان ملاذي الوحيد. جلست هناك أفكر في طريقة إنهاء والدي المسكين لحياته، وأتساءل عما إن كنت سأفعل الشيء عينه في يومٍ من الأيام. أوه، كان قلبي مليئًا بالأفكار السوداء!

وبعدها، رأيتك ترقصين على طول الخليج مثل طفلةٍ سعيدةٍ طيبة القلب... كرهتك أكثر من أي وقتٍ مضى ذلك الحين... ومع ذلك كنت أتوق لصداقتك.

أحسست بالحيوية تجاهك للحظة... وجاء الشعور الآخر في اليوم التالي. عندما وصلتُ إلى المنزل في تلك الليلة، بكيتُ خجلًا وأنا أفكّر في الصورة التي كونتها عني. لكن بقي الأمر على حاله عندما أتيت إلى هنا.

تارّةً أكون سعيدةً وأستمتع بزيارتي، وتارّةً يأتي ذاك الشعور البشع ويفسد كل شيء... مرّت عليّ أوقاتٌ عصيبة، آلمني فيها كل شيءٍ عنك وعن منزلك. كان لديك الكثير من الأشياء الجميلة التي لم أستطع الحصول عليها.

أتعلمين! إنه أمرٌ سخيف... لكن كان لدي ضغينةً خاصةً ضدّ كلبيك الصينين. كانت هناك أوقاتٌ أردت فيها اللحاق بالكلبين يأجوج ومأجوج وضرب أنوفهم السوداء معًا!

أوه! أنت تبتسمين يا آن، ولكن ذلك ليس بالأمر المضحك أبدًا. كنت آتي إلى هنا وأراكما أنت وجيلبرت مع كتبك وزهورك وآلهتك المنزلية ونكات عائلتك الصغيرة، وحبكما لبعضكما البعض الذي تتبادلانه في كل نظرةٍ وكلمة... حتى عندما لا تلاحظين ذلك، ومن ثم أعود إلى المنزل! آه يا آن، لا أعتقد أنني أشعر بالغيرة والحسد بطبيعتي. فعندما كنت فتاةً صغيرة، كنت أفتقر إلى الكثير من الأشياء التي كانت لدى زملائي في المدرسة، ولكنني لم أهتم أبدًا، ولم أكرههم أبدًا بسبب ذلك. لكن يبدو أنني كبرت ونموت على الحقد دون إرادةٍ مني."

"عزيزتي ليزلي، توقفي عن لوم نفسك. أنت لست حقودةً أو غيورةً أو حسودة. ولكن الحياة التي اضطررت على عيشها، قد شوهتك قليلًا ربما... ولكن هذا أفضل من أن تقضي على النبل القابع داخلك. لقد

أخبرتني بكل هذا لأنك اعتقدت أنه من الأفضل لك التحدث عن الأمر وتخليص روحك منه. فلا تلومي نفسك بعد الآن."

"حسنًا، لن أفعل. أردت فقط أن تعرفينني كما أنا. في ذلك الوقت أخبرتني عن أملك العزيز في الربيع، كان أسوأ شيءٍ يا آن... لن أسامح نفسي أبدًا على الطريقة التي تصرفت بها في ذلك الوقت، ودفعت ذنبي دموعًا. وفكّرت فيك كثيرًا، وفي الفستان الصغير الذي صنعته.

"حسنًا يا ليزلي، هذا مريرٌ ومزعجٌ الآن، أزيلي هذه الأفكار بعيدًا. كنت سعيدةً جدًا عندما أحضرت الفستان الصغير، وبما أنني اضطررت إلى فقدان طفلتي جويس. أحببت فكرة أن الفستان الذي ارتدته هو الذي صنعته لها أنتِ، عندما سمحت لنفسك بأن تحبينني."

"أتعلمين يا آن، أعتقد أنني سأحبك دائمًا بعد الآن. لن أشعر بهذه الطريقة المروِّعة تجاهك مرة أخرى بالتأكيد. يبدو أن الحديث عن كل شيء قد تخلص من هذا الشعور بطريقة ما... غريب!! وحقيقي ومرير! إنه مثل فتح باب غرفة مظلمة لإظهار بعض المخلوقات البشعة التي كنت أعتقد أنها موجودة، ولكنه اتَّضح أنه الضوء تدفق، والمخلوقات كانت مجرّد ظل... تختفي عندما يأتي الضوء، ولن تأتي بيننا مرة أخرى."

"تمامًا! نحن صديقتان حقيقيتان وحميمتان الآن يا ليزلي، وأنا سعيدةٌ بشدّة لذلك."

"آمل ألا تسيئي فهمي إذا قلت شيئًا آخر. لقد شعرت بالحزن الشديد عندما فقدت طفلتك يا آن... وإن كان بمقدوري أن أنقذها لك بقطع إحدى يدي لفعلت ذلك. ولكن حزنك قد قرَّبنا من بعضنا البعض. سعادتك المثالية لم تعد تشكل حاجزًا. أوه، لا تسيئي الفهم يا عزيزتي أرجوك... لست سعيدةً لأن سعادتك لم تعد مثالية بعد الآن، يمكنني قول ذلك بصدق. ولكن بكل الأحوال... لا توجد فجوة بيننا."

"أنا أفهم ذلك أيضًا يا ليزلي. سنقوم الآن بإغلاق الماضي وننسى ما كان غير سار فيه... كل شيء سيكون مختلفًا... أعتقد أنك رائعة.

ليزلي... لا يسعني إلَّا تصديق بأن الحياة فيها شيء جيد وجميل تخبِّئه لك حتى الآن."

هزت ليزلي رأسها. قالت ببلادة: "لا. ليس هناك أي أمل. لن يكون ديك أفضل من أي وقت مضى... وحتى لو عاد إلى صوابه المعتاد قديمًا... آه يا آن، سيكون الأمر أسوأ، بل أسوأ مما هو عليه الآن. هذا شيء لا يمكنك فهمه، أنت عروسة سعيدة. آن، هل أخبرتك الآنسة كورنيليا كيف تزوجت ديك؟"

"نعم."

"الشكر للرب... أردتُ أن تعرفي ذلك... لكن لم أستطع أن أتحدث عن ذلك إن لم تكوني تعرفين بالأمر. آن، يبدو لي أن حياتي قد باتت مريرةً منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري.

كنت سعيدةً قبل ذلك، كنا فقراء للغاية، لكننا لم نكن نمانع. كان أبي رائعًا، ذكيًا للغاية، ومحبًا ومتعاطفًا. كنا أصدقاء بحسب ما أتذكر، وكانت والدتي لطيفة جدًا، وآيةً في الجمال. أشبهها أنا، ولكنني لم أصل حدّها من الجمال."

"تقول الآنسة كورنيليا إنك أجمل بكثير."

"إنها مخطئة... أو متحيزة. أعتقد أن جسدي فقط أفضل، فقد كانت أمي نحيفة ومنحنية القامة بسبب العمل الجاد... لكنها كانت تملك وجه ملاك. اعتدنا أن نؤلهها جميعًا، أنا وأبي وكينيث."

تذكرت آن أن الآنسة كورنيليا أعطتها انطباعًا مختلفًا تمامًا عن والدة ليزلي. لكن ألم تحب الرؤية الأصدق؟ ومع ذلك، كانت روز ويست أنانية كفاية لجعل ابنتها تتزوج ديك مور.

تابعت ليزلي: "كان كينيث أخي... أوه، لا أستطيع أن أخبرك كم

أحببته. وقد قُتل بقسوة. هل تعرفين كيف حصل ذلك؟"

"أجل."

ارتجفت ليزلي: "آن... لقد رأيت وجهه الصغير بينما تمرّ العجلة فوقه. لقد سقط ميتًا باللحظة ذاتها. آن... آن... يمكنني رؤية تلك الذكرى الآن وكأنها أمامي، وسأراها دائمًا. كل ما أطلبه من السماء يا آن هو أن تُنسف تلك الذكرى من ذاكرتي. آه!!! يا إلهي!"

"لا تتحدثي عن ذلك يا ليزلي. أنا أعرف القصة، لا تدخلي في التفاصيل التي تزعج روحك بلا فائدة... وسيتم محوها."

بعد صراعٍ للحظة، استعادت ليزلي قدرًا من ضبط النفس وقالت: "ثم ساءت صحة أبي، وأصبح يائسًا، وأصبح عقله يميل للجنون، هل سمعت كل ذلك أيضًا؟"

"أجل."

"بعد ذلك تبقّى لدي أمي فقط لأعيش من أجلها. لكنني كنت طموحة للغاية، أقصد التدريس وشقّ طريقي في الكلية. كنت أريد الارتقاء نحو القمّة في حياتي، أوه، لن أتحدث عن هذا الآن، لا داعي لذلك، أنت تعرفين ما حدث. لم أستطع رؤية والدتي الصغيرة محطَّمة القلب، والتي كانت عبدة طوال حياتها، تخرج من منزلها.

بالطبع، كان بإمكاني كسب ما يكفي لنا للعيش. لكن والدتي أبت أن تخطو خارج المنزل خطوةً واحدة، لقد أتت إلى هناك كعروس، وقد أحبت أبي، وكل ذكرياتها موجودة هناك. ومع ذلك، عندما أفكّر أنني جعلتها سعيدة، لا أشعر بالأسف على ما فعلته. أما بالنسبة إلى ديك، لم أكرهه عندما تزوجته، لقد شعرت فقط تجاهه بشعور اللامبالاة والود الذي كان يشعر به معظم زملائي في المدرسة. كنت أعلم أنه كان يسكر أحيانًا، لكنني لم أسمع قط بقصة الفتاة التي تقع عند خليج الصيد. إذا كنت لم أتزوجه، لما كان بإمكاني الزواج منه، حتى من أجل والدتي.

بعد ذلك... كرهته! لكن والدتي لم تعرف أبدًا. وماتت... وبعد ذلك بقيت وحدي. كان عمري سبعة عشر عامًا فقط حينها، وكنت وحيدة. ذهب ديك إلى البحر. كنت آمل ألَّا يعود إلى المنزل، كان البحر في دمه، لم يكن لدي أمل آخر. حسنًا، أعاده الكابتن جيم إلى المنزل، كما تعلمين، وهذا كل ما يمكن قوله. أنت تعرفينني الآن، تعرفين جانبي السيء، لقد سقطت جميع الحواجز... وما زلت تريدين أن تكوني صديقتي؟"

شردت آن إلى الأعلى عبر أشجار البتولا، إلى الفانوس الورقي الأبيض لنصف قمر يتجه لأسفل نحو خليج الغروب... كان وجهها حلوًا جدًا.

وقالت: "أنا صديقتك وأنت صديقتي وإلى الأبد. أنت مثل هذا الصديق الذي لم يكن لدي من قبل. كان لدي العديد من الأصدقاء الأعزاء والمحبوبين... ولكن هناك شيء فيك يا ليزلي، لم أجده في أي شخص آخر. لديك المزيد لتقدمينه لي في طبيعتك الغنية، ولدي الكثير لأقدمه لك أكثر مما كان لدي في طفولتي المهملة. كلانا نساء... وأصدقاء إلى الأبد."

تشابكت أيديهما ببعض، وابتسمتا لبعضهما البعض وسط نزيف دموع العينين الرماديتين المقابلتين لزرقاوي الأخرى.

***

22
تكفّل الآنسة كورنيليا بالأمور



أصرّ جيلبرت على أن تبقى سوزان في المنزل الصغير لحلول فصل الصيف.

فاحتجَّت آن: "الحياة مع بعضنا البعض حلوةٌ للغاية يا جيلبرت. نحن لسنا بحاجةٍ لشخصٍ آخر ليفسد علينا متعتنا. أنا لا أنكر بأن سوزان روحٌ عزيزةٌ عليّ ولكنها تبقى غريبة. فلتذهب وأنا سأتكفل بالأعمال هنا."

قال جيلبرت: "علينا أولًا أن نستشير طبيبك. هناك مثل قديمٌ ينصّ على أن زوجات صانعي الأحذية يمشون حفاة وزوجات الأطباء يموتون صغارًا. أنا لا أقصد حدوث ذلك أبدًا. ستبقى سوزان معنا حتى تستعيدين قوتك، وتزهر وجنتاك."

قالت سوزان، التي دخلت فجأة: "فقط خذي الأمر ببساطةٍ يا عزيزتي الطبيبة. هيا استمتعي بوقتك ولا تقلقي بشأن المخزن. فأنا أتولى زمام الأمور. ما فائدة قدومي إلى هنا وأنت من تعملين؟ سأذهب لأحضر لك الفطور."

ضحكت آن قائلةً: "في الحقيقة أنت يدي اليمنى يا سوزان. أنا أتفق

مع قول الآنسة كورنيليا بأن تناول امرأةٍ ليست بالمريضة لفطورها في السرير ليس إلا فضيحةً لها. ويكاد يبرر موقف الرجال في أي فظائع يفعلونها."

قالت سوزان بازدراءٍ لا يوصف: "أوه، كورنيليا! أعتقد بأنك تتمتعين بعقلٍ أكبر وأكثر حكمةً من أن تخضعي لأقوال كورنيليا براينت. أنا لا أفهم لماذا تمضي وقتها في تعقب الرجال رغم تجاعيد وجهها البارزة. فهاك أنا رغم أني عجوزٌ إلا أنني لم أسئ لرجلٍ في حياتي. على العكس تمامًا، إنهم دائمًا ما يجذبون انتباهي، ولو سنحت لي الفرصة لتزوجت أحدهم. أليس من المضحك ألا يطلب أحدٌ يدي للزواج أيتها السيدة الطبيبة العزيزة؟ أنا لست امرأةً جميلةً، ولكنني أضاهي مستوى النساء المتزوجات. لماذا برأيك لم أحصل للآن ولا على عاشقٍ واحدٍ حتى؟"

"إنها مشيئة القدر." قالت آن باحترامٍ شديد.

أومأت سوزان برأسها، وقالت: "هذا تحديدًا ما كنت أفكر به طيلة أيامي الماضية أيتها الطبيبة العزيزة. أنا لا أعارض أبدًا مشيئة الرب التي تكمن بألا يحبني أحدهم. فدائمًا للرب حكمٌ بأفعاله، وهذا ما يريح قلبي. ولكن في بعض الأحيان أيتها السيدة الطبيبة العزيزة يتسلل الشك إلي، وأشرع بالتساؤل ما إن كان الشيطان الأكبر له يدٌ بالأمر أكثر من أي شخصٍ آخر. ولكن ذلك لم يدفعني أبدًا للاستسلام، فأنا ما زلت للآن أحارب أفكاري. ولكن ربما قد أحظى بفرصةٍ زواجٍ لامعةٍ مع مرور الأيام. كثيرًا ما أفكر في الآية القديمة التي كانت عمتي تكررها:

"لم يكن هناك قَط أوزة رمادية اللون، ولكن في وقت ما قريبًا أو متأخرًا، جاء بعض الأشرار الصادقين في طريقها وأخذها لرفيقه!"

وأضافت: "تبقى فرصة المرأة بالزواج شاغرةً حتى تدفن يا سيدتي العزيزة. والآن، سأذهب لأعد بعضًا من فطائر الكرز. فقد لاحظت بأن

الطبيب قد أحبها. وأنا لا أعد شيئًا إلا لأولئك الرجال الذين يقدرون ما تصنعه يداي."

عرجت الآنسة كورنيليا إلى المنزل الصغير وهي تزفر أنفاسها بغضب.

وصرحت: "أنا لا أمانع العالم أو الشيطان كثيرًا، لكن الجسد يزعجني بالأحرى." "أنت دائمًا تبدو رائعًا مثل الخيارة، يا عزيزتي. هل هذه رائحة فطائر الكرز؟ إن كانت كذلك، فاطلبي مني البقاء لاحتساء الشاي. فأنا لم أتذوق ولا فطيرة كرزٍ واحدةٍ هذا الصيف. لقد سرق أولاد جيلمان الأشقياء الذي يسكنون في غلين كل الكرز الخاص بي."

اعترض الكابتن جيم، الذي كان يقرأ روايةً بحريةً في إحدى أركان الصالة: "كفاك يا كورنيليا، فأنت لا تملكين حق قول ذلك عن أبناء جيلمان المساكين يتيمي الأم، إلّا إذا كان لديك دليلٌ قاطعٌ يثبت بأنهم من فعلوا ذلك. إن والدهم من أهل الكرامة والطيبة، لذا ما من شيءٍ يدفعك لنعتهم باللصوص أبدًا. أعتقد بأنّ طيور أبي الحناء هي من فعلت ذلك. إنها تملأ الأجواء هذا العام على غير العادة."

قالت الآنسة كورنيليا بازدراء: "طيور أبو الحناء! هششش! طائر أبو الحناء برجليه الصغيرتين!"

ردَّ الكابتن جيم بجدية: "حسنًا، معظم طيور فوروينذز تعيش على الكرز."

حدّقت الآنسة كورنيليا في وجهه لبضع لحظات، ثم استندت على ظهر كرسيها، وأخذت تضحك بصخبٍ دون هوادة.

واعترفت قائلةً: "حسنًا، لقد أقنعتي بالأمر يا جيم بويد. انظري كم هو سعيدٌ يا عزيزتي آن. إنه يبدو كقط الشيشاير. أما بخصوص طائر أبي الحناء، فإن كانت أرجله طويلةً وعاريةً سمراءً جرّاء أشعة الشمس الحارقة، كما رأيتها الأسبوع الماضي عند بزوغ الشمس حيث تتراقص

على غصن شجرة الكرز، فعندها فقط سأقدم اعتذاري لأولاد جيلمان. كنت كلّما أنزل لأتفقدها أراها اختفت. لم أفهم ما يحدث، ولكن الكابتن جيم قد أنار بصيرتي الآن. كل ما في الأمر بأنها تطير بعيدًا."

ضحك الكابتن جيم وذهب، رافضًا للأسف دعوة تناول العشاء ولاسيما فطيرة الكرز.

استأنفت الآنسة كورنيليا: "عليّ الذهاب لمنزل ليزلي لأخبرها ما إن كانت تستقبل النزلاء. فقد تلقيت رسالةً بالأمس من السيدة دالي التي تقطن في تورونتو، والتي قابلتها منذ عامين، تخبرني فيها بأن أصطحب صديقًا لها هذا الصيف يدعى أوين فورد. إنه يعمل في الصحافة، ويبدو أنه حفيد مدير المدرسة الذي بنى هذا المنزل. لقد تزوجت الابنة الكبرى لجون سلوين برجلٍ من أونتاريو يُدعى فورد، وأنجبت منه ابنها هذا. إنه يريد أن يرى المكان القديم الذي عاش فيه أجداده. لقد كان يعاني من حمى التيفوئيد الربيع الماضي ولم يتعاف بالكامل، فنصحه الطبيب بالذهاب إلى البحر. وهو يريد أن يسكن في منزلٍ هادئٍ وليس في فندقٍ يتآكله الضجيج. وأنا لا يمكنني اصطحابه لأنني لن أكون هنا في شهر آب. فقد تم تعييني كمندوبةٍ لمؤتمر WFMS في كينجسبورت. لا أعرف ما إن كانت ليزلي ستتقبل الأمر، ولكن ما من حلٍ آخر. إن لم تستطع اصطحابه، فسيتعين عليه عبور الميناء وحده."

قالت آن: "عندما تنجزي تلك المهمة عودي وساعدينا بالتهام الفطائر. ولا تنسي إحضار ليزلي وديك معك أيضًا إن أرادا ذلك. والآن، أنت ذاهبةٌ إلى كينجزبورت أليس كذلك؟ يا للوقت الجميل الذي ستقضيه هناك. انتظري لأرسل معك رسالةً تعطيها إلى صديقةٍ لي تقطن هناك، تدعى السيدة جوناس بليك."

قالت الآنسة كورنيليا برضاء: "لقد أقنعت السيدة توماس هولت

بالذهاب معي. لقد حان الوقت لقضاء عطلةٍ صغيرةٍ ممتعة. فهي قد أرهقت نفسها بالعمل حدّ الموت. أتعلمين بأن توم هولت بارعٌ في الحياكة، ولكنه رغم ذلك لا يستطيع كسب لقمة العيش لعائلته. فهو لا يستيقظ إلا مع غروب الشمس ليقوم بالحياكة، وهذا الأمر ليس بصالحه أبدًا. لقد لاحظت بأن الصيد هو الوحيد الذي يدفعه للاستيقاظ باكرًا. يا للرجال!"

رسمت آن ابتسامةً صغيرةً على ثغرها، فهي قد تعلّمت كيف تضرب بآراء الآنسة كورنيليا المتعلقة برجال فوروينذز عرض الحائط. وإلا فإنها كانت لتصدق بؤس الرجال ونذالتهم، وأنهم ليسوا سوى عبيدٍ لزوجاتهم. فهي قد علمت بأنّ توم هولت بالذات، زوجٌ طيبٌ وأبٌ محبوبٌ وجارٌ يعتمد عليه. وإن كان يميل إلى الكسل، فإن حبه للصيد الذي ولد من أجله يشفع له. وهذا أفضل من أن يكون مزارعًا لا فائدة منه. وإن صادف وفشل في إحدى الأعمال فلن يستطيع أحدٌ إنقاذه من لسان الآنسة كورنيليا. أما بخصوص زوجته فهي محتالةٌ كبيرة. لقد استطاعت عائلته العيش برخاءٍ خارج المزرعة، فقد ورث أبنائه وبناته عن أمهم الحيوية، إذ ينهون أعمال العالم بمهارة. لم يكن هناك منزلٌ أسعد في غلين سانت ماري من منزل عائلة هولت.

عادت الآنسة كورنيليا بروحٍ راضيةٍ من المنزل الواقع فوق النهر.

قالت: " لقد وافقت ليزلي عليه. فهي تريد انتهاز الفرصة لجني المال بغيَّة إصلاح سقف منزلها في الخريف. أتوقع بأن الكابتن جيم سيكون أكثر المهتمين بعودة حفيد عائلة سلوين. لقد أخبرتني ليزلي أن أقول لك بأنها تتوق حقًا لتناول فطائر الكرز واحتساء الشاي معك لأنها منشغلةٌ بالبحث عن الديوك الرومية بعد أن استطاعت الهرب ما عدا واحد لم يحسن الهرب واستطاعت أن تحبسه في المخزن وستقوم بالبحث في ضوء القطة، عندما تجوب بالترتيب، لتجد البقية. أنت لا

تعرفين يا عزيزتي آن كم تفرح قلبي هذه الرسائل التي ترسلها ليزلي. فها هي تضحك كما اعتادت أن تفعل في الأيام الخوالي.

"هذا صحيح، لقد تغيّرت تمامًا. إنها تضحك وتمرح كالطفلة الصغيرة. ومن أحاديثها هذه أشعر وكأنها معنا الآن."

قالت آن: "كل يوم، وإلا سأكون هناك. لا أعرف ما الذي كنت سأفعله دون ليزلي، ولاسيما عندما أكون وحيدةً وجيلبرت بعيدًا عني. فهو نادرًا ما يعود إلى المنزل إلا بضع ساعاتٍ في الصباح. إنه يلقي بنفسه في التهلكة نظرًا لجوع الناس التي تطلب مساعدته."

قالت الآنسة كورنيليا: "لا بد من أنهم سعداء بطبيبهم الآن. وأنا لا ألومهم على ذلك فهو ميثودي. منذ أن استطاع الطبيب بلايث شفاء السيدة ألونبي، والناس يعتقدون بأنه يحيي الموتى. أعتقد بأن الطبيب ديف يغار منه وبشدَّة، لأنه يتمتع بالعديد من المفاهيم والأساليب الجديدة الغريبة. يا له من رجل! كنت لأقول له بأن أساليب الطبيب بلايث هذه قد أنقذت رودا ألونبي، وأنه إن لم يقم بها لكانت قد لاقت حتفها، ولكان هناك شاهدٌ ينمّ بذلك. أوه، كم أود أن أدلي برأيي للطبيب ديف! لقد ترأس غلين لسنوات، ويعتقد أنه نسي أكثر مما عرفه الآخرون. بالحديث عن الأطباء، أتمنى أن يذهب الطبيب بلايث ويرى البقع على رقبة ديك مور. إنها تتجاوز مهارة ليزلي. أنا متأكدةٌ من أنني لا أعرف ما الذي يريده ديك مور من البدء في الحصول على الدمامل، كما لو أنه لم يكن يسبب مشكلة كافية بدونها!"

قالت آن: "هل تعلمين بأن ديك هذا لطالما تمتع بخيالٍ واسع؟ لقد كان يتبعني كظلي تمامًا، ويبتسم لي كالطفل الصغير عندما يراني."

"أيخيفك الأمر؟"

"لا على الإطلاق. أنا أحب ديك مور المسكين. إنه يبدو مثيرًا للشفقة وجذابًا أيضًا بطريقةٍ ما."

"ستتراجعين عن قولك هذا عندما ترينه في أوج غضبه، صدقيني. ولكنني سعيدةٌ بأنه لا يخيفك. ستصب الأمور في نصاب ليزلي عندما يأتي نازلها الجديد. أتمنى أن يكون شخصًا محترمًا. أعتقد بأنها ستقع في حبه، فهو كاتب."

قالت آن بازدراء: "أنا لا أدري لم ينحصر تفكير الجميع على أن الكتاب جميعهم يجب أن يكونوا متشابهين. لا شيء يبرر انجذاب حدادين لبعضهما البعض لمجرد أنهما كذلك."

ومع ذلك، فهي الأخرى كانت تتطلع إلى قدوم أوين فورد بلذةٍ كبيرة. فهو إن كان شابًا ظريفًا فسيضفي رونقًا وبهجةً على فوروويندز. كان مزلاج المنزل الصغير دائمًا خارجًا لسباق جوزيف.

***

23
وصول أوين فورد



في إحدى الأمسيات، أجرت الآنسة كورنيليا مكالمةً هاتفيةً مع آن.

"لقد وصل الكاتب إلى هنا. سأقوده إلى منزلك، ومن ثم أريه منزل ليزلي. فأنا في عجلةٍ من أمري وهذه أفضل طريقة. فقد سقط دلو ماءٍ ساخنٍ على طفل ريس القابع في غلين، وكاد أن يحترق حتى الموت، وقد استدعوني لأضع له جلدًا جديدًا كما أعتقد. إن السيدة ريس امرأةٌ مهملة، دائمًا ما تطلب من الآخرين تصحيح أخطائها. أنت لا تمانعين ذلك يا عزيزتي أليس كذلك؟ ستصل عربته غدًا."

قالت آن: "بالطبع لا مشكلة في ذلك. ولكن كيف يبدو يا آنسة كورنيليا؟"

"سترين ذلك عندما يأتي، أما فيما يخص مكنوناته فالرب وحده من يعلم. لن أطيل الحديث لأن جهاز استقبال غلين معطل."

قالت آن: "من الواضح أن الآنسة كورنيليا لا تجد الكثير من العيوب في مظهر السيد فورد، أو أن العيون المراقبة والألسنة الثرثارة ستجعلها تجد ذلك. أعتقد يا سوزان بأن السيد فورد وسيمٌ جدًا."

قالت سوزان بصراحة: "حسنًا، يا سيدتي العزيزة، كم سيسعدني أن أرى رجلًا حسن المظهر. أأحضّر له وجبةً خفيفة؟ أنا متأكدةٌ من أنه سيغرم بفطيرة الفراولة التي حضرتها."

"لا، فليزلي التي تنتظره وهي من ستتكفَّل بذلك. ولكن يا سوزان، أنا أريد منك أن تحضّري فطيرة الفراولة لرجلي المسكين، فهو لن يعود إلى المنزل حتى وقتٍ متأخر. لذا اتركي قطعةً من الفطائر وكوبًا من الحليب له خارجًا."

"سأفعل ذلك يا سيدتي العزيزة. ففي النهاية، إطعام رجلك إحدى الفطائر أفضل من إطعامها للغرباء الذين يفكرون فقط في معدتهم. إن الطبيب استثنائيٌ لا يتصرف بحماقةٍ كما يفعل الرجال الآخرون."

عندما جاء أوين فورد، اعترفت آن سرًا، بينما كانت الآنسة كورنيليا تسحبه إلى الداخل، بأنه وسيمٌ جدًا. لقد كان طويلًا، عريض المنكبين، بشعرٍ بنيٍّ كثيف، وأنفٍ وذقنٍ حادّين، وعينين كبيرتين رماديتين لامعتين.

سألت سوزان: "ألاحظت أذنيه وأسنانه يا سيدتي العزيزة؟ إنه يتمتع بألطف أذنين في هذا العالم. لقد جذبتني حقًا. عندما كنت صغيرةً كنت خائفةً من أن أتزوج رجلًا بأذنين طويلتين كأذني الفيلة. ولكنني لست بحاجة إلى أن أقلق بعد الآن، إذ لم تكن لدي أي فرصةٍ مع أي رجلٍ يملك هكذا أذنين."

لم تلاحظ آن إلا أسنانه اللؤلؤية التي ظهرت عندما ابتسم تلك الابتسامة الرقيقة. كان وجهه حزينًا غائمًا بتعابير غريبةٍ. كان عكس البطل الحزين والغامض الذي كان يقبع في أحلام آن. ولكن مرحه وفكاهته وسحره أضفوا جمالًا وسعادةً على الحياة. كان أوين فورد كما قالت الآنسة كورنيليا شابًا رائعًا حقًا.

قال وهو ينظر من حوله بعيونٍ حريصةٍ مهتمة: "لا أستطيع وصف

مدى سعادتي بوجودي هنا يا سيدة بلايث. أشعر وكأنني أنتمي إلى هنا. فكما تعلمين لقد ولدت والدتي هنا، وعاشت كل طفولتها في ربوع هذه الطبيعة. دائمًا ما كانت تحادثني عن منزلها القديم. أنا أعرف هذا المكان بحذافيره. لقد أخبرتني بقصة بناء هذا المنزل، والساعة التي أهداها جدي لويليام. كنت أعتقد بأن منزلًا قديمًا كهذا قد اختفى. كان عليّ المجيء وزيارته قبل زمن."

ابتسمت آن: "المنازل القديمة لا تختفي بسهولةٍ على هذا الساحل المسحور. إن هذه الأرض تحافظ على الجميع. فها هو ذا منزل جون سلوين قد بقي كما هو تمامًا كحال شجيرات الورود التي زرعها جدك لعروسه منذها."

"يا لجمال الأفكار والأحاديث التي تربطني بهم! عليّ أن أستكتشف جميع ذكريات هذا المكان خلال عطلتي هذه."

وعدت آن: "منزلنا متاحٌ لك متى شئت. أتعلم بأن قبطان البحر القديم الذي يحافظ على بهجة فوروينذز كان صديق جدك وجدتك منذ نعومة أظافره؟ لقد أخبرني بقصتهم في الليلة التي جئت فيها إلى هنا.... العروس الثالثة للمنزل القديم."

"أحقًا! إن هذا اكتشافٌ عظيم. عليّ أن أتحقق من الأمر."

"لن يكون الأمر صعبًا، فنحن جميعًا أصدقاءٌ للكابتن جيم. سيسعد برؤيتك طبعًا كحالك الآن تمامًا. أتعلم بأنّ جدتك تتلألأ كنجمةٍ فضيةٍ في ذاكرته. ولكن أعتقد الآن بأن السيدة مور بانتظارك. سأرشدك إلى منزلها.

سلكت آن الطريق المتقاطع، وسارت معه إلى المنزل أعلى الجدول. كان الحقل أبيض كالثلج مزينًا بأزهار الأقحوان. وكانت ترانيم الناس الذي يستقلون القوارب في الميناء تملأ الأجواء. كانت تلك الترانيم تتراقص مع الرياح فوق صفحات الماء العذبة بنعومة،

بينما كان وميض المنارة يسطع بشدة.

كان أوين فورد يمعن النظر من حوله في تلك المشاهد الخلابة.

قال: "لم أكن مستعدًا أبدًا للقاء فوروويندز الساحرة، لولا إصرار أمي على ذهابي. يا للألوان الساحرة، والمشاهد الآسرة! أعتقد بأنني سأستعيد عافيتي بسرعةٍ هنا، وسأستطيع أن أنهي روايتي الكندية العظيمة إن كلّلتني الطبيعة بإلهامها."

"ألم تبدأ بعد؟" سألت آن.

"مع الأسف لا، فأنا لم أصل بعد إلى الفكرة الجوهرية للرواية. إنها تتربص بي، وتغريني، وتسامرني، وتفر هاربةً عندما أكاد أحتضنها. ربما قد ترأف بحالي، وتدعوني لاحتضانها وسط هذا السلام والجمال. لقد أخبرتني الآنسة براينت بأنك تكتبين أيضًا."

"أوه، فقط أكتب قصصًا للأولاد الصغار، وقد توقفت عن ذلك منذ أن تزوجت. ولتعلم بأنني لا أمتلك ولا حتى روايةً كندية عظيمة. فأنا لم أصل لتلك المرحلة من العظمة." ثم ضحكت آن.

شاركها أوين فورد الضحك أيضًا.

"أستطيع أن أقول لك بأنني لست بتلك العظمة أيضًا، ولكنني أحاول جاهدًا بلوغها. وكما تعلمين، صحفيٌّ مثلي لا يتمتع بالفرص اللامعة أبدًا. لقد أمضيت سنواتٍ وأنا أكتب قصصًا قصيرةً توضع في الصحف، ولكنني لم أختلي بنفسي لكتابة رواياتٍ عظيمةٍ أبدًا. ولكن مع عطلتي هذه التي تمتد لثلاثة أشهرٍ سأستطيع، وذلك فقط إن لاحت أمامي الفكرة الجوهرية. فتلك هي روح الكتب.

وفجأةً لمعت في بال آن فكرةً غريبةً جعلتها تنتفض من مكانها. ولكنها لم تتفوه بها، لأنهما قد وصلا إلى منزل مور. وعندما دخلا إلى الفناء، خرجت ليزلي من الباب الخلفي، وأخذت تحدّق في الظلام باحثةً عن ضيفها المنتظر.

كانت تقف في تلك البقعة التي غمرها الضوء الأصفر الدافئ المتسلل من شق الباب المفتوح. وكانت ترتدي فستانًا عاديًا من قماش الفوال القطني باللون الكريمي، وتعقد حزامًا قرمزي اللون على خصرها. كان اللون القرمزي يرافق ليزلي أينما ذهبت. وقد أخبرتها آن بأنها تشعر بالسعادة عندما ترى ذلك الوميض القرمزي الذي يشع حولها تمامًا كزهرةٍ برية. لقد رأت آن بأن ذلك اللون يعكس شخصية ليزلي المتوهِّجة وملامحها اللامعة. كان فستانها يكشف عن جيدها الناصع البياض، وعن يديها بسبب قصر أكمامه. لقد تكفّل الفستان حقًا بإظهار قوامها الممشوق في ظل تلك البقعة المضيئة. أما بخصوص شعرها فقد كان كألسنة اللهب.

كانت السماء تلك الليلة أرجوانيةً تلمع بالنجوم التي اتخذت المرفأ ملاذًا لها.

لقد سمعت آن تنفس الضيف غير المنتظم. وقد استطاعت أن ترى مدى دهشته وإعجابه بها.

سأل: "من تلك الحسناء الفاتنة؟"

قالت آن: "هذه السيدة مور. إنها جميلةٌ أليس كذلك؟"

أجاب بذهول: "أنا لم أر جمالًا كجمالها أبدًا. لم أكن مستعدًا لشيءٍ كهذا. يا لإبداع الرب. إنها تبدو كملاكٍ هبط من السماء. ولو كانت ترتدي ثوبًا من اللآلئ الأرجوانية، وتضع دبوسًا من الجمشت في شعرها لقلت بأنّها ملكة البحار السبع. كيف باستطاعتها أن تستقبل الضيوف؟"

قالت آن: "فلتعلم بأن الآلهة نفسها تعمل لتعيش، وأن ليزلي ليست إلهةً أبدًا. إنها مجرد امرأةٍ جميلةٍ جدًا تمامًا مثلنا. هل أخبرتك الآنسة براينت عن السيد مور؟"

"نعم، إنه يعاني من تلفٍ دماغيٍّ، أو شيءٍ من هذا القبيل، أليس

كذلك؟ ولكنها لم تقل شيئًا عن السيدة مور. فافترضت بأنها ستكون ربة منزلٍ كحال الأخريات اللاتي يستقبلن الضيوف لكسب المال."

قالت آن بحدة: "حسنًا، هذا تمامًا ما تفعله ليزلي. وهذا ليس بالأمر الممتع أبدًا. أتمنى ألا تنزعج من ديك. وإن فعلت فلا تظهر ذلك على وجهك، فذلك سيمزق قلبها. إنها مجرد طفلة كبيرة. وهذا بحد ذاته أمرٌ مزعجٌ في معظم الأحيان."

"أوه، بالطبع لن يزعجني الأمر، فأنا سأقضي معظم وقتي في رحاب الطبيعة. يا لمصيبتها! أظن بأنها تعيش حياةً شاقة."

"إنها كذلك، ولكنها تكره نظرات الشفقة."

تخطّت ليزلي عتبة الباب، واستقبلت أوين فورد بلطفٍ بارد، وأخبرته بنبرةٍ رسميةٍ بأن الغرفة وعشاءه جاهزان. ابتسم ديك ابتسامة سعادة، وهو يتفقّد حاجيّاته في الطابق العلوي. وهكذا كُتب على أوين فورد أن يصير سجينًا في المنزل القديم القابع بين أشجار الصفصاف.

***

24
كتاب حياة الكابتن جيم



قالت

آن لجيلبرت عندما وصلت إلى المنزل: "لدي فكرة أشبه بشرنقةٍ صغيرةٍ قد تكبر لتصبح فراشةً رائعةً بأزهى الألوان."

لقد جاء في وقتٍ أبكر مما كانت تتوقعه، كان جيلبرت يستمتع بفطيرة الكرز التي أعدَّتها سوزان. بينما كانت سوزان نفسها تحوم في الفناء كروح وصي قاتمةٍ إلى حد ما ولكنَّها محسنة. وكم أمتعتها رؤية جيلبرت وهو يأكل الفطيرة بالطريقة التي يفعلها دائمًا.

سألها: "ما هي فكرتك؟"

"لن أخبرك الآن، ليس حتى أرى ما إذا كان بإمكاني تحقيق الأمر."

"أي نوع من الأشخاص هو فورد؟"

"أوه، إنه لطيفٌ جدًا ووسيمٌ جدًا."

تدخَّلت سوزان باستمتاع: "لديه آذان جميلة أيها الطبيب العزيز."

"أعتقد بأن عمره يتراوح ما بين الثلاثين والخامسة والثلاثين على ما أعتقد، وهو يأمل في كتابة روايةٍ عظيمة. صوته لطيفٌ، وابتسامته مبهجة، وملابسه أنيقة. يبدو وكأن الحياة قد فاضت عليه من كنوزها."

جاء أوين فورد في الليلة التالية بعد أن أخبرته ليزلي بالأمر، وراقبوا

غروب الشمس في الحديقة ثم ذهبوا للإبحار قليلًا في القارب الصغير الذي أعدَّه جيلبرت للنزهات الصيفية.

لقد أحبوا أوين كثيرًا وكان لديهم هذا الشعور بأنهم يعرفونه منذ سنواتٍ عديدة وهو ما يميّز الماسونية في آل جوزيف. قالت سوزان عندما رحل: "إنه لطيف مثل أذنيه يا سيدتي العزيزة."

لقد أخبر سوزان بأنه لم يذق شيئًا مثل كعكة الفراولة التي أعدّتها، وقد ملك بكلمته هذه قلب سوزان الحساس إلى الأبد.

وقالت وهي تلملم آثار العشاء: "إنه حقًا غريب الأطوار، وهو غير متزوج. رجلٌ كهذا يمتلك الكون بين يديه. حسنًا، ربما يكون مثلي، لم يقابل الشخص المناسب بعد."

أصبحت سوزان رومانسيةً جدًا في تأملاتها وهي تغسل أطباق العشاء.

بعد ذلك بليلتين، أخذت آن أوين فورد إلى منطقة فوروينذز لتعرفه على الكابتن جيم. كانت حقول البرسيم على طول شاطئ المرفأ بيضاء تموج مع الريح الغربية، وكان لدى الكابتن جيم أحد أجمل مناظر غروب الشمس في المعرض، وكان قد عاد لتوّه من رحلة عبر الميناء.

"كان عليّ أن أذهب وأخبر هنري بولاك أنه يحتضر. كان الجميع يخشون إخباره. توقعوا أنه لن يتقبل الوضع، لأنه كان عازمًا على العيش، ولم يكن يضع نهاية لخطط الخريف. قالت زوجته أن طريقة إخباره بالأمر يجب أن تكون منطقيةً يستحملها قلبه، وأنني سأكون أفضل شخص يخبره بهذا وأكسر حاجز الجمود ذاك. هنري وأنا صديقان قديمان، لطالما أبحرنا في غراي نورس معًا لسنوات.

المهم، لقد ذهبت وجلست بجانب سرير هنري وقلت له بشكلٍ ممازح وبسيط، لأنه إذا كان يجب إخبار شيء ما، يجب إخباره أولًا بطريقةٍ جيّدة على أنه خير وقلت: "يا رفيق، أظن أنك تلقيت أوامر

الإبحار الخاصة بك هذه المرة." كنت أرتجف لأنه أمر مروّع أن تخبر رجلًا ليس لديه أي فكرة أنه يحتضر. ولكن يا سيدة بلايث، نظر هنري في وجهي، مع تلك العيون السوداء الغارقة في وجهه الحذق وقال: "أخبرني شيئًا لا أعرفه يا جيم بويد إن كنت تريد أن تعطيني معلومات. لقد عرفت ذلك منذ أسبوع." كنت مندهشًا جدًا... وتابع ضاحكًا: "عرفت ذلك منذ رأيتك تأتي إلى هنا ووجهك ممتقع مثل شاهد القبر، وتجلس هناك ويداك مشدودتان على معدتك، هذا كان واضحًا حتى للقط يا جيم بويد." سألته كالأحمق: "من أخبرك؟" أجاب: "لا أحد، قبل أسبوع من ليلة الثلاثاء كنت مستلقيًا هنا مستيقظًا، كنت أشك في ذلك، ولكن بعد ذلك تأكدت. لكنني كنت أجاهد من أجل زوجتي. وأود أن أكون قد بنيت تلك الحظيرة، لأن إيبين لن تفهمها أبدًا بشكل صحيح. ولكن على أية حال، الآن بعد أن خففت عن ذهنك يا جيم، ابتسم وأخبرني بشيء مثير للاهتمام."

حسنًا، وهكذا كان. لقد كانوا خائفين جدًا من إخباره وكان يعرف ذلك طوال الوقت. غريب كيف تنظر الطبيعة إلينا، أليس كذلك، ويتاح لنا معرفة ما يجب أن نعرفه عندما يحين الوقت؟

ألم أخبرك أبدًا عن الخيوط التي تتحدث عن اختراق خطاف السمكة أنف هنري يا سيدة بلايث؟"

"لا،"

"حسنًا، لقد ضحكت أنا وهو على هذا الأمر كثيرًا. حدث منذ ما يقرب ثلاثين عامًا. كان هو وعدة آخرين يصطادون الإسقمري يومًا ما. لقد كان يومًا رائعًا، لم نشاهد مثل هذه الكمية من الماكريل في الخليج، وفي حالة الإثارة العامة، توحَّش هنري وابتكر طريقة لإلصاق خطاف السمكة على أحد جانبي أنفه. حسنًا، كان هناك بارب على أحد الطرفين وقطعة كبيرة من الرصاص على الجانب الآخر، لذا لا يمكن سحبه.

أردنا نقله إلى الشاطئ في الحال، لكن هنري كان يلعب، وقال إنه سيتعرض للهجوم إذا ترك مدرسة كهذه لشيء أقل من الكزاز، ثم واصل الصيد، وسحب في قبضة اليد وهو يتأوه بين الأوقات. مرّت المدرسة أخيرًا وأدخلنا حمولة، حصلت على ملف وبدأت في محاولة التخلص من هذا الخطاف. لم يكن هناك أي سيدات في الجوار. لم يكن هنري رجلًا يلعن أو يشتم، لكنه سمع بعض الأمور من هذا النوع على طول الشاطئ في وقته، وقد أخرجهم جميعًا من ذاكرته وألقى بهم عليّ. أعلن أخيرًا أنه لا يستطيع تحمل ذلك، وأنني ليس في قلبي أي إحساس بالرحمة. لذلك توقفنا ونقلناه إلى طبيب في مدينة شارلوت، على بعد خمسة وثلاثين ميل، ولم يكن هناك شيء قريب منها مع هذا الخطاف المبارك الذي لا يزال يتدلّى من أنفه. عندما وصلنا إلى هناك، أخذ الطبيب كراب جيست ملفًا وأزال الخطاف كما حاولت أن أفعل، فقط لم يكن قادرًا على إخباره بذلك بسهولة أيضًا!"

أعادت زيارة الكابتن جيم لصديقه القديم إحياء العديد من الذكريات، وغرق في موجة الماضي القديم.

"كان هنري يسألني اليوم إذا كنت أتذكر الوقت الذي بارك فيه الأب تشينيكي العجوز قارب ألكسندر ماكاليستر." حكايةٌ غريبةٌ أخرى، وصحيحة مثل الإنجيل. "كنت في القارب بنفسي. وأبحرنا، أنا وهو أقصد، في قارب ألكسندر ماكاليستر عند شروق الشمس. كان هناك صبي فرنسي في القارب... كاثوليكي بالطبع.

أنتِ تعلمين أن الأب العجوز تشينيكي قد تحوّل إلى بروتستانت، لذا لم يكن الكاثوليك يستفيدون منه كثيرًا. حسنًا، جلسنا في الخليج تحت أشعة الشمس الحارقة حتى الظهر، الشكر للرب لم نُلسع منها. وعندما ذهبنا إلى الشاطئ، كان على الأب تشينيكي أن يذهب، لذلك قال بهذه الطريقة المهذبة: "أنا آسف جدًا لأنني لا أستطيع الخروج

معك بعد ظهر اليوم يا سيد ماكاليستر، لكنني أترك لكم مباركتي. ستمسكون بألفٍ عند الظهيرة." حسنًا، لم نصطد ألفًا، لكننا اصطدنا بالضبط تسعمئة وتسعة وتسعين، أكبر صيد لقارب صغير على الشاطئ الشمالي بأكمله في ذلك الصيف، رائع، أليس كذلك؟

قال ألكساندر ماكاليستر لأندرو بيترز: "حسنًا، وما رأيك في الأب تشينيكي الآن؟" قال أندرو: "حسنًا، أعتقد أن الشيطان القديم قد حصل على نعمة متبقية حتى الآن."

فعلًا!! كم ضحك هنري على ذلك اليوم!

سألت آن وقد رأت أن ينبوع ذكريات الكابتن جيم قد جفّ في الوقت الحاضر: "هل تعرف من هو السيد فورد أيها الكابتن جيم؟ أريدك أن تخمّن ذلك."

هز الكابتن جيم رأسه: "لم أكن بارعًا قط في التخمين يا سيدة بلايث، ولكن بطريقةٍ ما عندما دخل أخذت أفكر: "أشعر بأنه مألوف، ترى أين رأيته من قبل؟"

قالت آن بهدوء: "فكِّر في صباح أيلول منذ سنوات عديدة... فكِّر في سفينة تبحر في المرفأ... سفينة انتظرتها طويلًا ويئست من وصولها... فكِّر في اليوم الذي جاء فيه ويليام الملكي... وأول نظرة على عروس مدير المدرسة."

قفز الكابتن جيم من مكانه وكاد يصرخ: "إنهما عينا برسيس سلوين!!! لا! لا يمكنك أن تكون ابنها... لا بدَّ أن تكون..."

"حفيدها، أجل، أنا ابن أليس سلوين."

انقضَّ الكابتن جيم على أوين فورد وصافحه مرة أخرى.

"ابن أليس سلوين! يا إلهي... أهلًا وسهلًا بك! لقد تساءلت كثيرًا عن المكان الذي يعيش فيه أحفاد مدير المدرسة. كنت أعرف أنه لم يكن هناك أي طفل على الجزيرة. أليس... أليس... كانت الطفلة

الأولى التي وُلدت في هذا المنزل الصغير. لم يجلب أي طفل آخر الفرح على الإطلاق أكثر منها! تلك الصغيرة اللطيفة، لقد داعبتها ودللتها مئة مرة. كانت خطواتها الأولى معي أنا، وكان ذلك منذ ما يقرب الستين عامًا. هل ما زالت على قيد الحياة؟"

"لا، لقد وافتها المنية عندما كنت لا أزال صبيًا."

تنهد الكابتن جيم: "أوه! هذا لا يبدو منطقيًا جدًا... أن أسمع ذلك وأنا ما زلت على قيد الحياة. ولكن قلبي يقفز فرحًا لرؤيتك، لقد مرّ أمامي شريط شبابي للحظةٍ الآن، أنت لا تعرف النعمة التي جعلتني أشعر بها.

يعود الفضل للسيدة بلايث في هذا، إنها تفعل الكثير من أجلي حقًا."

ازدادت حماسة الكابتن جيم عندما اكتشف أن أوين فورد هو ما أسماه "رجل الكتابة الحقيقي"، لطالما نظر إليه على أنه كائن متفوق. علم الكابتن جيم أن آن كانت تبدع بكتاباتها، لكنه لم يأخذ هذه الحقيقة على محمل الجد.

اعتقد الكابتن جيم أن النساء مخلوقات مبهجة، ويجب أن يكون لهن حق التصويت، وأن يبارك كل شيء يريدونه قلوبهن... لكنه لم يصدق أنهن تستطعن الكتابة.

احتجّ: "انظر فقط إلى رواية الحب الحزين، كانت كاتبتها امرأة، وانظر إليها... مئة وثلاثة فصول، كان من الممكن سردها جميعًا في عشرة. المرأة التي تكتب لا تعرف أبدًا متى تتوقف... هذه هي المشكلة. الهدف من الكتابة الجيدة هو معرفة متى تتوقف."

قالت آن: "يريد السيد فورد أن يسمع بعض قصصك يا قبطان جيم. أخبره عن الكابتن الذي أصيب بالجنون وتخيَّل أنه هو الهولندي الطائر."

كانت هذه أفضل قصة للكابتن جيم. لقد كانت مزيجًا من الرعب والفكاهة، وعلى الرغم من أن آن سمعتها عدة مرات، إلّا أنها ضحكت من قلبها أحيانًا، وأحيان أخرى ارتجفت فيها بسبب الخوف كما فعل السيد فورد تمامًا.

تبع ذلك حكايات أخرى، لأن الكابتن جيم كان له مسامع كثيرة يرويها. وروى كيف أدارت سفينة بخارية سفينته، وكيف اعترض طريقه قراصنة الملايو، وكيف اشتعلت النيران في سفينته، وكيف ساعد سجينًا سياسيًا على الهروب من جمهورية جنوب إفريقيا، وكيف تحطمت سفينته مرة على المجدلية وتقطعت به السبل هناك لفصل الشتاء، وكيف فكّت قيود نمر على متن السفينة، وكيف تمرد طاقمه وتقطعت بهم السبل في جزيرة قاحلة... والعديد العديد من الحكايات الأخرى، منها المأساوية أو الكوميدية أو المرعبة التي رواها الكابتن جيم.

غموض البحار، سحر الأراضي البعيدة، إغراء المغامرة، ضحك العالم، كلّها شعر بها مستمعوه وأدركوها جيّدًا. استمع أوين فورد، ورأسه على يده، والرفيق الأول يخرخر على ركبته، وعيناه اللامعتان مثبتتان على وجه الكابتن جيم الخشن والبليغ.

عندما أعلن الكابتن جيم أخيرًا أن غزل الكلام يجب أن ينتهي في ذلك الوقت، سألت آن: "ألن تدع السيد فورد يرى كتاب حياتك أيها الكابتن جيم؟"

احتجّ الكابتن جيم، الذي كان يحتضر سرًا لإظهار ذلك، "أوه، لن يرغب بأن يؤرقه ذلك."

قال أوين: "لن أرغب بأكثر من رؤيته أيها الكابتن بويد. إذا كانت بنصف تشويق حكاياتك، فسوف تستحق القراءة."

وبتردّد واضح، أخرج الكابتن جيم كتاب حياته من مكتبته القديمة

وسلمه لأوين.

قال بلا مبالاة: "أعتقد أنك لن تهتم بخبرتي الكتابية القديمة، فأنا لم أحصل على الكثير من التعليم، فقط كتبت ذلك لتسلية ابن أخي جو. إنه دائمًا يطلب القصص. أتى إلى هنا البارحة، وقال لي وكأنه يلومني حيث كنت أحمل سمكة القدّ التي يبلغ وزنها عشرين رطلًا من قاربي: "عمي جيم، أليس سمك القد حيوان أخرس؟" كنت أقول له حينها أنه يجب أن يكون لطيفًا مع الحيوانات البكم، وألا يؤذها أبدًا بأي شكل. لكن جو لم يبدو راضيًا، ولم أكن راضيًا عن نفسي. عليك أن تكون حريصًا للغاية فيما تقوله لهذه المخلوقات الصغيرة. فهم سرعان ما يمسكون شيئًا عليك عكس ما قلته لهم."

أثناء حديثه، نظر الكابتن جيم إلى أوين فورد من زاوية عينه بينما كان الأخير يفحص كتاب الحياة، ولاحظ الآن أن ضيفه قد ضاع في صفحاته، والتفت مبتسمًا إلى خزانة ملابسه وشرع في صنع إبريق من الشاي.

فصل أوين فورد نفسه عن كتاب الحياة بقدر من التردد مثل البخيل الذي ينتزع نفسه من ذهبه، لفترة كافية لشرب الشاي، ثم عاد إليه متعطشًا لكلماته.

قال الكابتن جيم: "أوه، يمكنك أن تأخذ هذا الشيء معك إلى المنزل إذا كنت تريد ذلك" وكما لو أن هذا "الشيء" لم يكن أغلى ما يملكه.

وتابع: "يجب أن أنزل وأسحب قاربي لأعلى قليلًا. هناك ريح قادمة، هل لاحظت السماء الليلة؟

سماء الماكريل وذيول الأحصنة والمهيرة... تجعل السفن الطويلة تحمل الأشرعة القصيرة."

قبل أوين فورد عرض كتاب الحياة بكل سرور. وفي طريقهم إلى

المنزل، أخبرته آن بقصة مارغريت المفقودة.

قال: "هذا الكابتن العجوز هو رجل رائع... يا لها من حياة قادها! لماذا خاض هذا الرجل مغامرات في أسبوع واحد أكثر مما خاضه معظمنا في حياته كلها؟ هل تعتقدين حقًّا أن جميع حكاياته صحيحة؟"

"بل متأكدة من ذلك. أنا على يقين من أن الكابتن جيم لا يعرف الكذب أبدًا، وأيضًا، يقول كل الناس هنا أن كل شيء حدث تمامًا كما يرويه.

اعتاد أن يكون هناك الكثير من رفاقه القدامى على قيد الحياة للتصديق على كلامه. ربما هو آخر قبطان من جيله على جزيرة الأمير إدوارد. لقد انقرضوا تقريبًا الآن..."

***

25
الكتاب



جاء أوين فورد إلى المنزل الصغير في صباح اليوم التالي وهو يشعّ إشراقًا وحماسًا.

قال: "هذا كتابٌ جميلٌ جدًا يا سيدة بلايث. أيمكنني أن آخذه؟ حتى أتمكّن من استخدامه لكتابة قصةً سيهتز العالم من أجلها. هل تعتقدين بأن الكابتن جيم سيسمح لي بذلك؟"

صاحت آن: "بالطبع. أنا متأكدةٌ من أنه سيسعد بالأمر. أنا أعترف بأنني لم أصطحبك معي ليلة أمس سدًى. لطالما تمنى الكابتن جيم أن يتمكن أحدٌ ما من كتابة قصة حياته بدقةٍ متناهية."

"أترافقينني إلى منطقة فوروينذز هذا المساء يا سيدة بلايث؟ فأنا أريدك أن تخبريه بأنك قد قصصت على مسامعي قصة مارغريت الضائعة، وأريد أن أسأله عن قصة حياته، وإن كان بإمكاني أن أستخدم هذه القصة كخيطٍ رومانسيٍّ فأنسج بعضًا من القصص التي تتمحوَّر حول لذَّة الحياة."

كان الكابتن جيم يتململ فرحًا وحماسًا عندما أخبره أوين فورد عن خطته. فأخيرًا سيتحقق حلمه العزيز وسيصدر كتابٌ يحمل بين طياته

قصة حياته. وقد أعرب بسعادةٍ عن ضرورة كتابة قصة مارغريت الضائعة فيه."

قال بحزن: "هكذا سيظل اسمها خالدًا."

صرخ أوين بسرور: "بالطبع سأحرص على فعل ذلك. سنتعاون معًا، ستكون أنت روح الكتاب وأنا الجسد. أوه، سيلاقي الكتاب شهرةً واسعةً، أيها الكابتن جيم، تأكد من ذلك."

صاح الكابتن جيم: "لم أتخيّل بأن أول قصةٍ لي ستكتب بيد حفيد مدير المدرسة. آه يا فتى، كان جدُّك أعزَ أصدقائي. كنت أعتقد بأن لا أحد يشبهه، ولكنك قد خالفت توقعاتي. لقد أدركت الآن سبب انتظاري الطويل ذاك، إذ كنت أعتقد بأن قصتي لن تكتب إلا بأنامل كاتبٍ حقيقي. وها أنت ذا. إنك تنتمي لهذا المكان، وروح هذا الشاطئ الشماليّ قابعةٌ داخلك، أنت الوحيد الذي باستطاعته كتابة القصة."

أُقيمت التجهيزات التي نصَّت على أن الغرفة الصغيرة القابعة في المنارة ستكون ورشة عملٍ لأوين. إذ كان من الضروري أن يعيش الكابتن جيم بالقرب منه حتى يتناقشا معًا حول العديد من الأمور المتعلقة بالبحار وتقاليد الخليج والتي كان أوين يجهلها تمامًا."

بدأ أوين العمل على الكتاب صبيحة اليوم التالي، لقد كان منكبًا عليه بروحه وجسده. أمّا بالنسبة للكابتن جيم، فقد كان أسعد الرجال ذلك الصيف. لقد أمضى وقته وهو يمعن النظر إلى تلك الغرفة حيث يعمل أوين بروحه المقدسة. لقد تبادل أوين الأحاديث مع الكابتن جيم، دون أن يفصح له عن سطور المسودة."

قال: "انتظر حتى يتم نشره. أنا على يقينٍ من أنك ستغرم به."

أخذ الكابتن جيم يغرق في كنوز كتاب الحياة ذاك. إذ شرع يحلم ويفكر في مارغريت الضائعة حتى بدت له حيّة تتبختر بين صفحاته. ومع مرور الأيام، أخذ يغرق أكثر وأكثر في أمواجه. وقد

سمح لآن وليزلي بقراءة المسودات وانتقادها. أما الفصل النهائيّ فقد حظي باهتمام النقادّ، مما دفعهم لتسميته بالنهاية الشاعريّة على غرار اقتراح ليزلي.

لقد أثنت آن على نفسها بسبب نجاح فكرتها تلك. فقالت لجيلبرت: "عندما رأيت أوين للمرة الأولى، شيءٌ ما بداخلي صاح بأنه المنشود. فقد كان وجهه مليئًا بالعاطفة والمرح والفن. كل ملامحه تلك كانت كفيلةً بنسج كتابٍ كذاك. وكما تقول السيدة ريتشل، قدر كل واحدٍ منا مكتوبٌ قبل أن يولد."

أمضى أوين ذلك الصباح غارقًا في الكتابة، أما في فترة ما بعد الظهيرة فقد ذهب للتنزه مع عائلة بلايث. لم تكن ليزلي موجودةً لأنها ذهبت لتأخذ دور الكابتن جيم الذي كان يتحمل مسؤولية ديك عنها. استقلّوا القوارب عند المرفأ، وشقّوا الأنهار الثلاثة الجميلة، واحتفلوا في الحانة، وأكلوا الخبز والبلح عند الصخور، وقطفوا الفراولة عند الكثبان الرملية، وذهبوا لصيد سمك القدّ مع الكابتن جيم، حيث أخذ الرجال يصطادون الزقزاق الذي يسرح في حقول الشاطئ، والبط البرّي الذي يسبح عند الخليج. أما في الأمسيات، فكانوا إما يتجولون في الحقول المنخفضة القريبة من الشاطئ تحت القمر الفضي، أو يجلسون في غرفة المعيشة في المنزل الصغير حيث يلفحهم نسيم البحر البارد، وهم يتبادلون الأحاديث المرحة التي تسعدهم بحماس.

منذ ذلك اليوم الذي اعترفت فيه ليزلي لآن بما يخالجها، حتى أصبحت مخلوقةً أخرى. لم تبق هناك آثار لا لبرودتها ولا لمرارة قلبها ولا للحزن أبدًا. لقد تلاشت تلك الفتاة التي تعرضت للخداع وحلّت مكانها روح طفلةٍ بجسد أنثى. لقد أزهرت واكتمل طلعها، وفاح شذاها.

لم تكن سعيدةً كما حالها الآن، ولا متحمسةً تلعب أسفل شفق

الصيف كما الآن. وعندما لا تتواجد معهم يشعرون بالضياع، ويفتقدون مذاق أحاديثها. كانت روحها الجميلة تسطع وتضيء ظلمات حياتهم، وترسل أشعةً لتلك المصابيح الوردية المصنوعة من المرمر لتنير الغرفة ضياء. مرت ساعاتٌ بدت فيها عينا آن تتألم من روعة الأخرى. أما بالنسبة لأوين فورد، فكانت مارغريت في كتابه تتمتع بشخصية ليزلي مور، بدءًا من شعرها البني الناعم، وصولًا إلى وجهها المنير المشابه لجنيةٍ صغيرة. هكذا كانت تلك الفتاة التي تنام في دجى الليل عند الجزيرة المفقودة بعد أن سرقها البحر من مرفأ فوروينذز.

لقد بقي ذلك الصيف خالدًا في قلوب الجميع. فقد كان صيفًا مفعمًا بالحياة على غير العادة. ترك ذكرياتٍ جميلةً في رحاله. كان صيفًا شمسه دافئة، وطقسه منعش، أحضانه مليئة بالأصدقاء النشيطين، والمفعمين بالحيوية. كان صيفًا مليئًا بالكمال حقًا.

"أتمنى لو بقي لبعض الوقت." قالت آن لنفسها بحسرةٍ في يوم أيلوليّ، هبت فيه الريح فوق الخليج الأزرق معلنةً عن عنف الخريف.

في ذلك المساء أخبرهم أوين فورد بأنه قد أنهى كتابة الرواية، وأن عطلته قد انتهت.

قال: "أستطيع القول بأنني أنهيته. فقط بقي عليّ تدقيقه ومراجعته. لقد وضعت لمساتي الأخيرة هذا المساء. إذا تمكنت من العثور على ناشرٍ له، فسينشر إمّا في الصيف أو الخريف المقبل."

كان أوين متأكدًا بأنه سيجد ناشرًا للكتاب. فقد كان يعلم بمدى عظمة مضمونه، ومدى الشهرة التي سيكسبها. كتابٌ كهذا من شأنه أن يعيش حياةً أزلية. كان يعلم بأن ذلك سيجلب له شهرةً واسعةً وثروةً طائلة، ولكنه عندما كتب جملته الأخيرة، أحنى رأسه على المسودة، وبقي على تلك الحالة لفترةٍ طويلة. إذ لم يكن راضيًا عما كتبته أنامله.

***

26
اعتراف أوين فورد



قالت آن: "أنا آسفة جدًا لرحيل جيلبرت، لكنّه اضطرّ للذهاب لأنّ آلان ليونز الذي يقطن في جلين تعرّض لحادثٍ خطير. لن يعود على الأرجح إلى المنزل حتى وقتٍ متأخّر جدًا، لكنّه طلب منّي أن أخبرك أنّه سيستيقظ باكرًا بما يكفي لرؤيتك قبل أن تغادر. إنّه أمرٌ مزعجٌ للغاية، فلقد خطّطتُ أنا وسوزان لاحتفالٍ صاخبٍ جميل في ليلتك الأخيرة هنا."

كانت جالسة بجانب جدول الحديقة على المقعد الريفي الصغير الذي بناه جيلبرت. وقف أوين فورد أمامها، متّكئًا على عمودٍ برونزيّ اللون من خشب البتولا الأصفر. كان أوين شاحبًا جدًا وكان وجهه يحمل آثار الأرق الذي عاناه في الليلة السابقة. نظرت آن إليه وتساءلت عمّا إذا كان الصيف قد جلب له القوة التي من المفترض أن يُشعره بها. هل كدح بالعمل على كتابه؟ تذكّرت آن أنّه لمدّة أسبوع لم يكن يبدو بخير.

قال أوين ببطء: "أنا سعيدٌ لأنّ الطبيب ليس هنا، أردتُ أن أراكِ بمفردك يا سيّدة بلايث. هناك أمرٌ يجب أن أخبره لشخصٍ ما، وأعتقد

أنّه سيقودني إلى الجنون إن لم أخبر أحدًا به. لقد كنت أحاول منذ أسبوع أن أكون صريحًا في هذا، لكنّني لا أستطيع. أعلم أنني أستطيع أن أثق بك، كما وأنّني أعلم لأنّك ستتفهّمين، فامرأةٌ تملكُ عينينِ مثل عينيكِ تتفهّمُ دائمًا. أنتِ واحدةٌ من الناس الذين يخبرهم المرءُ بالأشياء بشكلٍ غريزيّ. سيّدة بلايث، أنا أحبّ ليزلي. أحبّها! تبدو هذه الكلمة ضعيفة للغاية، ولا تعبّر عن مشاعري الصادقة تجاهها!"

تغيّر صوته فجأةً بسبب العاطفة المكبوتة لكلامه. أدار رأسه بعيدًا وأخفى وجهه على ذراعه، وارتجف كلّه. جلست آن تنظر إليه شاحبةً ومذعورة. لم تفكّر في هذا قط! ومع ذلك، كيف لم يخطر الأمر في بالها من قبل؟ يبدو الآن أمرًا فطريًّا ولا مفرّ منه. صارت تتساءل كيف كانت عمياء ولم تلاحظ حبّ أوين لليزلي. لكنّ مثل هذه الأمور لا تحدث في فوروينذز. ففي مكانٍ آخر في العالم، قد تتسبب المشاعر البشرية في تحدّي الأعراف والقوانين البشريّة، ولكن هذا لا يحدث هنا بالتأكيد. لقد استقبلت ليزلي الكثير من نزلاء الصيف لمدّة عشر سنوات، ولم يحدث شيء مثل هذا. لكن ربما لم يكونوا مثل أوين فورد. ولم تكن ليزلي المفعمة بالحيوية في هذا الصيف هي نفس الفتاة الباردة المتجهمة في السنوات الأخرى التي مضت. آه، كان يجب أن يفكّر أحدٌ في هذا! لماذا لم تفكّر الآنسة كورنيليا في ذلك؟ كانت الآنسة كورنيليا مستعدّةً دائمًا بما يكفي لتدقّ ناقوس الخطر عندما يتعلّق الأمر بالرجال.

شعرت آن باستياءٍ غير معقول من الآنسة كورنيليا، وصارت تئنُّ قليلًا. بغضّ النظر عمّن يُلام، لقد حدثت المصيبة. وليزلي، ماذا عن ليزلي؟ شعرت آن بقلقٍ بالغٍ حيال ليزلي.

سألت بهدوء: "هل تعرف ليزلي هذا، يا سيّد فورد؟"

"لا، لا، إلّا إذا خمّنتْ ذلك. أنتِ بالتأكيد لا تعتقدين أنني سأكون

نذلًا ووغدًا بما يكفي لإخبارها يا سيّدة بلايث. أحببتها رغمًا عنّي، هذا كلّ ما في الأمر، وبؤسي أعظم ممّا أستطيع تحمّله."

سألته آن: "هل هي مهتمّةٌ بك؟" في اللحظة التي سألت فيه ذلك السؤال شعرت أنّه ما كان عليها أن تسأله. ردّ أوين فورد على ذلك باحتجاجٍ شديد.

"لا، لا، بالطبع لا. لكن يمكنني أن أجعلها تهتمّ لو كانت حرّة، أنا متأكّدٌ أنني أستطيع فعل ذلك."

فكّرت آن أنّ ليزلي مهتمّة وأنّ أوين يعرف ذلك. ثمّ قالت بصوتٍ عالٍ، بتعاطفٍ ولكن بحزم: "لكنّها ليست حرّة، يا سيّد فورد. والأمر الوحيد الذي يمكنك القيام به هو الذهاب بعيدًا في صمت وتركها لتعيش حياتها."

تأوّه أوين: "أعلم، أعلم." وجلس على الضفة المعشبة وحدّق بيأسٍ في الماء الكهرمانيّ اللون تحته. وتابع: "أعلم أنّه ليس هناك أيّ شيء لأفعله، لا شيء سوى أن أقول بطريقةٍ تقليديّة "وداعًا يا سيّدة مور، أشكركِ على لطفكِ معي هذا الصيف." تمامًا كما كنت سأقولها لربّة المنزل الجذابة والنشيطة والحريصة التي كنت أتوقّعها عندما أتيت. ثمّ سأدفع نقود إقامتي مثل أيّ نزيلٍ صادق وأذهب! آه، الأمر بسيطٌ للغاية. لا شكّ، ولا حيرة، إنّه طريق سهلٌ ومستقيم! وسوف أسلك هذا الطريق، لا داعي للخوف من أنني لن أفعل ذلك يا سيّدة بلايث. لكنّه سيكون من الأسهل السير على سكك المحاريث شديدة السخونة."

جفلت آن من الألم الذي كان في صوته. ولم يكن هناك ما يكفي من الكلام الذي سيكون مناسبًا للوضع لتقوله. كان اللوم غير وارد، ولم تكن هناك حاجة للنصيحة، ولن ينفع التعاطف أمام عذاب الرجل الشديد. لم تستطع أن تشعر معه إلّا بمتاهةٍ من الشفقة والندم. شعرت

بأنّ قلبها يؤلمها من أجل ليزلي! ألم تتألّم تلكَ الفتاة المسكينة بما يكفي ليحدث الآن هذا ويزيد الطين بلّة؟

استأنف أوين بحبّ: "لن يكون من الصعب أن أذهب وتركها إذا كانت سعيدة، لكنّ التفكير في حياتها المميتة، وإدراك أنّني أتركها لتعيش حياة كهذه، هذا الأسوأ على الإطلاق! كنتُ سأضحّي بحياتي لأجعلها سعيدة، ولا يمكنني فعل أيّ شيءٍ حتى لمساعدتها، لا شيء أبدًا. إنها مرتبطةٌ إلى الأبد بهذا البائس المسكين، ليس لديها ما تتطلّع إليه سوى التقدّم في السن في سلسلةٍ من السنوات المملّة الفارغة، التي لا معنى لها. مجرد التفكير في الأمر يدفعني إلى الجنون. لكن يجب أن أمضي في حياتي، دون أن أراها أبدًا، ولكن مدركًا دائمًا المصاعب التي تواجهها. إنّه أمرٌ شنيع، شنيعٌ حقًّا!"

قالت آن بحزن: "إنها مسألةٌ صعبةٌ للغاية، نحن بصفتنا أصدقائها، نعلم جميعًا كم هو صعبٌ عليها."

قال أوين بتمرّد: "وهي فتاةٌ تحبُّ الحياة وتستحقّها. جمالها هو جزءٌ صغير من روعتها، إنها أجمل امرأةٍ عرفتها في حياتي. يا لجمال ضحكتها! لقد سعيتُ طوال الصيف لاستحضار تلك الضحكة لمجّرد بهجة سماعها. وعيناها زرقاوان مثل الخليج في الخارج. لم أر قطّ مثل تلك الزرقة، ولا حتّى تلك الشُقرة! هل رأيتِ من قبل شعرها مسدولًا يا سيّدة بلايث؟"

"كلّا."

"لقد رأيته مرّةً واحدة. لقد نزلت إلى بوينت لأذهب للصيد مع الكابتن جيم ولكن كان من الصعب جدًا الخروج في ذلك الطقس، لذا عدت. كانت قد استغلّت فرصة أن تكون بمفردها في فترة ما بعد الظهيرة لغسل شعرها، وكانت تقف على الشرفة تحت أشعة الشمس لتجفّفه. أسدلته حتى وصل إلى قدميها وبدا كأنّه ينبوعٌ من الذهب

اللامع. عندما رأتني أسرعت إلى الداخل، ولمست الريح شعرها ولفته حولها ما جعلها تبدو كأنّها داناي أميرة آرغوس في غيمتها. بطريقةٍ ما، عاد إليّ شعور حبّي لها، وأدركت أنّني أحببتها منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها تقف تجاه الظلام في وهج الضوء. وعليها أن تكمل حياتها هنا، تلاطف وتريح "ديك"، تكافح وتدّخر لتعيش فقط، بينما أقضي حياتي متشوّقًا لها عبثًا، ومحرومًا، بهذه الحقيقة بالذات، من تقديم حتى القليل من المساعدة التي قد يقدّمها أحد الأصدقاء لها. مشيت على الشاطئ الليلة الماضية، حتى الفجر تقريبًا، وبُحتُ للبحر بكلّ شيء مرارًا وتكرارًا. ومع ذلك، على الرغم من كلّ ما حدث، لا أستطيع أن أشعر بالأسف لقدومي إلى فوروينذز. فعلى الرغم من أنّ كلّ شيء سيء، يبدو لي أنّه سيكون الأسوأ عدم معرفتي بليزلي أبدًا. إنّه عذابٌ أليمٌ أن أحبّها وأتركها، لكنّني لا أستطيع أن أتصوّر عدم حبّها. أفترض أنّ كلّ هذا يبدو جنونيًا للغاية، فكلّ هذه المشاعر الرهيبة تبدو دائمًا حمقاء عندما نصفها بكلماتنا غير الملائمة. ليس من المفترض أن نتحدّث عنها، خُلقت فقط لنشعر بها ونتحمّلها. ما كان يجب أن أتحدّث، لكنّ الكلام قد ساعدني قليلًا. لقد منحني على الأقلّ القوّة للذهاب بعيدًا صباح الغد بكرامة، دون إثارة أيّة ضجّة. ستكتبين لي بين الحين والآخر، وتعطيني أخبارًا عنها، ألن تفعلي ذلك يا سيّدة بلايث؟"

قالت آن "نعم، آه، أنا آسفةٌ جدًّا لأنّك ذاهب، سنفتقدك كثيرًا. لقد كنّا جميعًا أصدقاء! لو لم يحدث هذا لكان بإمكانك العودة في فصول الصيف القادمة. ربّما ستأتي بين الفترة والأخرى عندما تنسى، ربّما..."

قال أوين باختصار: "لن أنسى أبدًا، ولن أعود أبدًا إلى فوروينذز."

ومع ظهور الشفق، ساد الصمت على الحديقة. بعيدًا، كانت أمواج البحر تلامس الشاطئ بلطفٍ وهدوء. بدت رياح المساء في أشجار الحور حزينةً وغريبة، بدت كأنّها بعض الأحلام المحطّمة للذكريات

القديمة. وكانت أمامهم أشجار أسبن صغيرة ونحيفة مقابل نباتات الذرة في والسماء الغربية التي كان لونها يميل إلى اللون الزمرديّ واللّون الورديّ الشاحب، والتي أظهرت كلّ ورقةٍ وغصنٍ في جمالٍ ساحرٍ وغامض.

مشيرًا إليها وبنبرة رجلٍ ينهي محادثةً معيّنةً قال أوين: "أليس هذا جميلًا؟"

قالت آن بهدوء: "إنّها جميلةٌ لدرجة أنّها تؤلمني، لطالما كانت تؤلمني الأشياء المثاليّة كهذه. أتذكّر أنني أطلقت عليها اسم" الألم الغريب" عندما كنت طفلة. ما السبب الذي يجعل مثل هذا الألم يبدو متلازمًا مع الكمال؟ هل هو ألم النهاية، عندما ندرك أنّه لا يمكن أن يكون في نهاية الطريق سوى التقهقر؟"

قال أوين شاردًا: "ربّما اللانهائيّة المسجونة فينا هي التي تطلب اللانهائية كما يتم التعبير عنها في ذلك الكمال المرئيّ."

دخلت الآنسة كورنيليا من البوابة الصغيرة بين التنوب في الوقت المناسب لسماع ملاحظة أوين الأخيرة وقالت: "يبدو أنّك تعاني من نزلة برد. من الأفضل أن تدلك بعض الشحم على أنفك عندما تذهب إلى الفراش." أحبّت الآنسة كورنيليا أوين، لكنّها كانت مسألة مبدأ أن تتقبّل أسلوب ادّعاءٍ أو تصنّعٍ من رجلٍ مثله.

كانت الآنسة كورنيليا تمثّل دور الكوميديا التي لا تقترب أبدًا من مأساة الحياة. ضحكت آن بطريقةٍ هيستيريّة، رغم أنّ أعصابها كانت متوتّرةً إلى حدٍّ ما، وحتّى أوين ابتسم. بالتأكيد، كانت مشاعر الشغف والعاطفة تتلاشى بطريقةٍ ما في حضور الآنسة كورنيليا. ومع ذلك، لم يكن هناك يأسٌ وظلمٌ وألمٌ بالنسبة لآن كما كان يبدو قبل لحظاتٍ قليلة. لكنّه لم يستطع النوم في تلك الليلة.

***

27
على الحاجز الرمليّ



غادر

أوين فورد فور ويندز في صباح اليوم التالي. وفي المساء، ذهبت آن لرؤية ليزلي، لكنّها لم تجد أحدًا. كان المنزل مقفلًا ولم تكن أيّة نافذةٍ مضاءة. بدا وكأنّه منزلٌ مهجورٌ لا حياة فيه. لم تخرج ليزلي في اليوم التالي، ما جعل آن تعتقد أنّها علامةٌ سيّئة.

كان لدى جيلبرت مناسبةٌ للذهاب في المساء إلى خليج الصيد، وذهبت آن معه إلى بوينت، عازمةً على البقاء لفترةٍ مع الكابتن جيم. لكنّ الضوء العظيم، الذي امتدّ من خلال ضباب مساء الخريف، كان تحت إشراف آليك بويد وكان الكابتن جيم بعيدًا.

سألها جيلبرت: "ماذا ستفعلين؟ هل تريدين الذهاب معي؟"

"لا أريد الذهاب إلى الخليج، لكنّني سأعبر القناة معك، وأتجوّل على الشاطئ الرمليّ حتّى تعود. الشاطئ الصخريّ زلقٌ وكئيبٌ للغاية الليلة."

وحدها على الحاجز الرمليّ، سلّمت آن نفسها لسحر الليل المخيف. كان الجوّ دافئًا بالنسبة لشهر أيلول، وكان آخر فترة الظهيرة ضبابيًّا للغاية، لكنّ البدر قد خفّف جزئيًا من الضباب وحوّل الميناء

والخليج والشواطئ المحيطة به إلى عالمٍ غريبٍ ورائعٍ وخياليّ من الضباب الفضيّ الباهت، والذي من خلاله كان كل شيءٍ يشبه الأشباح. بدا المركب الشراعيّ الأسود للقبطان جوشيا كروفورد وهو يبحر في القناة محمّلًا بالبطاطا إلى موانئ بلونوز، كأنّه سفينةٌ شبحيّة متّجهة إلى أرضٍ مجهولة، لا يمكن الهرب منها، ولا يمكن الوصول إليها أبدًا. كانت نداءات النوارس غير المرئية فوق الرؤوس كصرخات أرواح البحارة المنكوبين. وكانت رغوة المياه التي حملتها الأمواج والتي انفجرت على الرمال، أشياءً خرافيّة تَسرق من كهوف البحر. كانت الكثبان الرمليّة الكبيرة عمالقةً نائمين لبعض الحكايات الشماليّة القديمة. وكانت الأضواء التي تلمع عبر الميناء هي المنارات الخادعة على أحد سواحل أرض الخيال. أسعدت آن نفسها بمئات الأوهام وهي تتجوّل في الضباب. كان أمرًا ممتعًا، ورومانسيًا وغامضًا أن تتجوّل هنا بمفردك على هذا الشاطئ المسحور.

لكن هل كانت وحيدة؟ كان هناك شيء ما يلوح في الأفق أمامها، وكان شكله يتّضح أكثر فأكثر، وفجأةً تحرّك نحوها عبر الرمال المموّجة.

صاحت آن بدهشة: "ليزلي! ماذا تفعلين هنا في الليل؟"

حاولت ليزلي الضحك وهي تقول: "إذا كان الأمر هكذا، فماذا تفعلين أنتِ هنا؟" باءت محاولتها بالفشل. بدت شاحبةً جدًّا ومتعبة. لكنّ خصلات الشعر تحت قبعتها القرمزية كانت تتدلّى حول وجهها وعينيها مثل حلقاتٍ صغيرةٍ من الذهب البرّاق.

"أنا في انتظار جيلبرت، لقد ذهب إلى الخليج. كنت أنوي البقاء في المنارة، لكنّ الكابتن جيم ليس هناك."

قالت ليزلي بقلق: "حسنًا، لقد جئت إلى هنا لأنّني أردت أن أمشي وأمشي وأمشي. لم أستطع المشي على الشاطئ الصخري، فلقد كان

المدّ مرتفعًا للغاية وكانت الصخور تسجنني. كان علي المجيء إلى هنا، أو كنت سأصاب بالجنون على ما أعتقد. جدفت بنفسي إلى القناة في منزل الكابتن جيم. إنّني هنا منذ ساعة. تعالي، تعالي، دعينا نمشي. لا أستطيع الوقوف مكتوفة الأيدي. آه يا آن!"

رغم أنّها قد عرفت الجواب جيدًا، إلّا أنّ آن سألتها: "ليزلي عزيزتي، ما الخطب؟"

"لا يمكنني إخبارك، لا تسأليني. لا أمانع في معرفتك لهذا السر، أتمنّى لو كنتِ تعلمين، لكن لا يمكنني إخبارك، لا يمكنني إخبار أحد. لقد كنت حمقاء، إنّه أمرٌ مؤلم للغاية أن تكوني حمقاء يا آن. لا يوجد ما هو أكثر ألمًا من هذا في العالم."

ضحكت بمرارة، ووضعت آن ذراعها حولها.

"ليزلي، هل المشكلة هي أنّكِ علمتِ باهتمامك بالسيد فورد؟"

استدارت ليزلي بشغف.

صرخت: "كيف عرفتِ؟ آن، كيف عرفت؟ هل يبدو ذلك على وجهي؟ هل يمكن للجميع رؤية ذلك؟ هل الأمر بهذه البساطة؟"

"لا، لا. أنا لا أستطيع أن أخبرك كيف عرفت. لقد خطر ببالي بطريقةٍ ما. ليزلي، لا تنظري إليّ بهذه الطريقة!"

سألتها ليزلي بنبرةٍ شرسة وخافتة: "هل تحتقرينني؟ هل تعتقدين أنّني خبيثة وغير صالحة؟ أم تعتقدين أنني مجرد امرأةٍ حمقاء؟"

"لا أعتقد أنّك أيّا من هذه الصفات. تعالي يا عزيزتي، دعينا فقط نتحدث عمّا حدث بطريقةٍ منطقيّة، مثلما قد نتحدّث عن أي أزمةٍ أخرى من أزمات الحياة الكبرى. لقد كنتِ تفكّرين في الأمر وتسمحين لنفسك بالانجراف إلى فكرةٍ مَرَضيّة. أنتِ تعلمين أنّ لديكِ ميلًا بسيطًا لفعل ذلك تجاه كلّ ما يحدث بشكلٍ خاطئ، وقد وعدتني أنّك ستواجهين هذه العادة وتكسرينها."

تمتمت ليزلي: "لكن، آه هذا محرجٌ للغاية. لم أرِد أن أحبّه، وأحببته في حين أنّه لا يحقّ لي أن أحبّ أحدًا لأنّني مرتبطةٌ بشخصٍ آخر."

"لا شيءَ مخجل في ذلك. لكنّني آسفةٌ جدًّا لأنّك تهتمّين بأوين، لأنّ هذا في الحقيقة سيجعلك أكثر تعاسة."

قالت ليزلي وهي تتكلّم بحماس: "لم يكن اهتمامي به مقصودًا، لو كان الأمر على هذا النحو لكان بإمكاني منعه. لم أتخيّل قطّ هذا الأمر حتى ذلك اليوم قبل أسبوع، عندما أخبرني أنّه أنهى كتابه ويجب أن يرحل قريبًا. ثمّ حينئذٍ عرفت. شعرت كما لو أنّ شخصًا ما قد ضربني بقوّة. لم أقل شيئًا، لم أستطع التحدث، لكنّني لا أعرف كيف كان شكلي في تلك اللحظة. أخشى أن يكون وجهي قد خانني. آه، كنت سأموت من العار لو اعتقدتُ أنّه يعرف، أو يشكّ حتّى في ذلك."

كانت آن صامتةً بشكلٍ بائس، مشوّشةً باستنتاجاتها من محادثتها مع أوين. تابعت ليزلي حديثها، كما لو أنّها شعرت بالراحة في الكلام.

"لقد كنت سعيدةً للغاية طوال هذا الصيف يا آن، أسعد ممّا كنت عليه في حياتي. اعتقدت أنّ السبب في ذلك هو أنّه قد تمّ توضيح كلّ شيءٍ بيني وبينك، وأنّ صداقتنا هي التي جعلت الحياة تبدو جميلةً وحافلة مرّةً أخرى. وكان ذلك حقًّا السبب، ولكنّه لم يكن السبب الوحيد، آه بالطبع لم يكن. أعرف الآن لماذا كان كلّ شيءٍ مختلفًا تمامًا. والآن انتهى كلّ شيء، وقد رحل. كيف يمكنني أن أعيش يا آن؟ عندما عدت إلى المنزل هذا الصباح بعد رحيله، شعرتُ فجأةً بالعزلة."

آن التي شعرت دائمًا بألم صديقاتها بشدّة لدرجة أنّها لم تستطع التحدّث بكلمات مريحة بطلاقة قالت: "لن يبدو الأمر صعبًا للغاية يا عزيزتي." ثمّ تذكّرت كيف أنّ الخطب حسنة النيّة قد آذتها في حزنها، فشعرت بالخوف.

قالت ليزلي بائسة: "آه، يبدو لي أنّ الأمر سيزداد صعوبةً طوال

الوقت. ليس لديّ ما أتطلّع إليه. سيأتي صباحٌ بعد صباح ولن يعود، لن يعود أبدًا. آه، عندما أفكّر أنّني لن أراه مرّةً أخرى، أشعر كما لو أنّ يدًا وحشيّة عظيمة تقبض على أوتار قلبي وتعذبها. ذات مرّة، منذ زمنٍ بعيد، كنت أحلم بالحبّ واعتقدتُ أنّه لا بدَّ أن يكون جميلًا، أمّا الآن اتضّح لي أنّه بهذا الشكل! عندما ذهب صباح أمس كان بارد المشاعر وغير مبال. قال: "وداعًا، سيّدة مور" بأبرد نبرةٍ في العالم، كما لو أنّنا لم نكن حتّى أصدقاء، كما لو أنّني لم أكن أعني له شيئًا على الإطلاق. أعلم أنّني لا أعني له، لم أكن أريده أن يهتمّ، لكنّه ربّما كان أكثر لطفًا في السابق."

كانت آن تتمنّى أن يأتي جيلبرت. كانت عالقةً بين تعاطفها مع ليزلي وضرورة تجنّب أيّ شيءٍ من شأنه أن يخون ثقة أوين. لقد عرفت لماذا كان وداعه باردًا جدًّا، ولماذا لم يكن في ذلك الوداع الودّ الذي تتطلبه صداقتهما الطيّبة، لكنّها لم تستطع إخبار ليزلي.

قالت المسكينة ليزلي: "كان هذا خارجًا عن سيطرتي يا آن، لم يكن الأمر بإرادتي."

" أعلم ذلك."

"هل تلومينني بشدّة؟"

"أنا لا ألومك على الإطلاق."

"ولن تخبري جيلبرت؟"

"ليزلي! هل تعتقدين أنّني سأفعل مثل هذا الأمر؟"

"آه، لا أعرف، أنتِ وجيلبرت كأنّكما زميلين. لا أعلم كيف باستطاعتك إخباره كلّ شيء."

"نعم أخبره كلّ شيء يتعلّق بمخاوفي، لكنّني لا أخبره أسرار أصدقائي."

"لا أستطيع أن أقبل بأن يعرف، لكنّني سعيدةٌ لأنّك تعلمين. سأشعر

بالذنب إذا كان هناك أي شيءٌ أشعر بالخجل من إخباركِ به. أتمنّى ألا تكتشف الآنسة كورنيليا ذلك. أشعر أحيانًا كما لو أنّ عيناها البنيّتان المخيفتان تقرآن أفكاري. آه، أتمنّى ألّا يزول هذا الضباب أبدًا، أتمنّى البقاء فيه إلى الأبد، مختبئةً عن كلّ كائنٍ حي. لا أرى كيف يمكنني الاستمرار في الحياة. كان هذا الصيف حافلًا للغاية. لم أشعر بالوحدة أبدًا ولا حتّى للحظة. قبل أن يأتي أوين، كانت هناك لحظاتٌ مروّعة، عندما أكون معكما أنتِ وجيلبرت، ثمّ اضطرّ إلى ترككما. كنتما تذهبان سويًّا، وأنا أذهب وحيدة.

بعد أن جاء أوين كان هناك دائمًا للذهاب معي إلى المنزل، كنّا نضحك ونتحدّث كما تفعلين أنتِ وجيلبرت. لم تكن هناك لحظاتٌ أشعر فيها بالوحدة والحسد. أمّا الآن! آه نعم، لقد كنت حمقاء. دعينا ننهي الحديث عن حماقتي. لن أزعجك بها مرّةً أخرى أبدًا."

لم تكن لدى آن أيّة نيّةٍ لترك ليزلي تتجوّل بمفردها على الحاجز الرملي في مثل هذه الليلة وفي مثل هذا المزاج فقالت: "ها هو جيلبرت، وأنتِ ستعودين معنا، هناك متّسعٌ كبيرٌ في قاربنا لثلاثة أشخاص، وسنربط الإطار بالخلف."

قالت ليزلي المسكينة بضحكةٍ مريرةٍ أخرى: "آه، أفترض أنّني يجب أن أعوّد نفسي لأكون الشخص الغريب مرّةً أخرى. سامحيني يا آن، كان ذلك كلامًا بغيضًا. يجب أن أكون شاكرة، وأنا كذلك، لأنّ لديّ صديقان حميمان يسعدان أن يعتبراني ثالثة. لا تمانعي خطاباتي البغيضة، يبدو أنّني أصبحت عبارةً عن كتلةٍ من الألم في هيئة إنسان، وكلّ شيءٍ يؤلمني."

قال جيلبرت عندما وصل هو وآن إلى المنزل: "بدت ليزلي هادئةً جدًّا الليلة، أليس كذلك؟ ما الذي كانت تفعله هناك على الحاجز وحدها؟"

"آه، لقد كانت متعبة، وأنت تعلم أنّها تحب الذهاب إلى الشاطئ بعد يومٍ سيئ مع ديك."

تأمّل جيلبرت قائلًا: " للأسف أنّها لم تقابل فورد منذ فترةٍ طويلة وتتزوجه. كانا سيشكّلان زوجين مثاليّين، لا توافقينني الرأي؟"

خافت آن من أن يعرف جيلبرت الحقيقة إذا استمرّ في توتيرها هكذا، فقالت: "أرجوك يا جيلبرت، لا تتحوّل الآن إلى وسيط زواج."

احتجّ جيلبرت على ذلك متفاجئًا بنبرة صوتها فقال: "اهدأي يا فتاتي آن، أنا لا أقوم بالتوفيق بينهما، كنت أفكّر فقط فيما كان يمكن حدوثه."

قالت آن: "حسنًا، لا تفعل. إنّها مضيعةٌ للوقت."

ثم أضافت فجأة: "آه يا جيلبرت، أتمنّى لو كان الجميع سعداء مثلنا."



28
الاحتمالات والنهايات



كانت الآنسة كورنيليا تضع صحيفة ديلي إنتربرايز لتبدأ بالخياطة وقالت: "كنت أقرأ أخبار الوفيّات."

كان المرفأ أسودًا وكئيبًا تحت سماء تشرين الثاني الغاضبة. تتشبث الأوراق الرطبة الذابلة بعتبات النوافذ؛ لكنّ المنزل الصغير كان مبهجًا مع ضوء النار كان مظهره ربيعيًّا مع سراخس آن ونبتة إبرة الراعي.

قالت ليزلي ذات يوم: "أشعر دائمًا أنّه فصل الصيف عندما أكون في هذا المنزل يا آن." وكلّ الضيوف الذين كانوا في بيت الأحلام شعروا بنفس الشعور.

قالت الآنسة كورنيليا: "يبدو أنّ صحيفة الإنتربرايز تنشر الكثير من أخبار الوفيّات هذه الأيام، فيها دائمًا عدّة عواميد منها، وأقرأ كلّ سطر منها. أعتبر هذه إحدى هواياتي، لا سيّما عندما يكون فيها بعض الشعر الأصليّ. إليكِ واحدًا منهم اخترته لكِ:

لقد صعدت إلى السماء،
لن ترجع أبدًا.
كانت تعزف وتغنّي بفرح

أغنية الديار، الديار الحبيبة.

من يقول ليس لدينا أيّة موهبةٍ شعريّةٍ على الجزيرة! هل سبق لكِ أن شهدتِ وفاة مجموعةٍ من الناس الطيبين يا عزيزتي آن؟ إنّه أمرٌ مثيرٌ للشفقة. إليكِ عشر نعايا، وكلّ واحدٍ منهم قديس وعارض أزياء، حتى الرجال. هذا هو بيتر ستيمسون العجوز، الذي بزعمهم ترك مجموعةً كبيرةً من الأصدقاء ليحزنون على خسارته المفاجئة. يا إلهي، آن يا عزيزتي، كان ذلك الرجل في الثمانين من عمره، وكلّ من عرفه كان يتمنّى وفاته في آخر ثلاثين عام. اقرأي النعوات عندما تكونين كئيبةً يا عزيزتي آن، خاصةً نعوات الأشخاص الذين تعرفيهم. إذا كان لديك أيّ حسٍّ فكاهيّ، ستخفّف من حزنك، صدّقيني. أتمنّى لو كان لديّ الفرصة لكتابة نعي لبعض الناس. أليست كلمة "نعي" قبيحةً وفظيعة؟ باتريك بالذات الذي تحدثت عنه كان له وجه يشبه تلك الكلمة ببشاعته. لم أكن قد رأيته من قبل ولكنّني فكّرتُ في كلمة نعي فور رؤيته. أعرف كلمةً واحدة أبشع منها، وهي كلمة أرملة. يا ربّ، آن عزيزتي، قد أكون عازبة عجوز، ولكنّني مرتاحةٌ في ذلك، لن أكون أبدًا أرملةً لأيّ رجل."

قالت آن ضاحكة: "إنّها بالفعل كلمةٌ قبيحة، كانت مقبرة آفونلي مليئةً بشواهد القبور القديمة "مكرّس لذكرى فلان، أرملة الراحل فلان." لطالما جعلني أفكّر في أشياء بالية وعفنة. لماذا عددٌ كبيرٌ من الكلمات المرتبطة بالموت غير مقبولٍ إلى هذا الحدّ؟ أتمنّى لو تُلغى عادة تسمية الجثة بـ "الرفات." أنا أرتجف بشدّة عندما أسمع صوت متعهّد دفن الموتى في جنازة يقول: "يرجى من كلّ من يرغب في رؤية الرفات السير على هذا النحو." دائمًا ما يعطيني انطباعًا رهيبًا بأنّني على وشك مشاهدة مأدبة لآكلي لحوم البشر."

قالت الآنسة كورنيليا بهدوء: "حسنًا، كل ما أتمناه هو ألّا يناديني أحدٌ عندما أموت "أختنا الراحلة." لقد كرهت العمل مع تلك الأخويّة

قبل خمس سنوات عندما كان هناك مبشر متجول يعقد اجتماعات في غلين. لم يعجبني منذ البداية. شعرت أنّه يخفي أمرًا ما، وكنتُ محقّة. كان يتظاهر بأنّه مشيخيّ كما زعم، وكان طوال الوقت ميثوديًّا. لقد تظاهر بأنّه أخٌ للجميع، كان لديه الكثير من العلاقات. أمسك يدي بحرارةٍ ذات ليلة، وقال متوسلًا: "أختي العزيزة براينت، هل أنتِ مسيحيّة؟" نظرت إليه قليلًا، ثمّ قلت بهدوء: "أخي الوحيد يا سيّد فيسك، دُفن منذ خمسة عشر عامًا، ولم يكن لي أخٌ غيره منذ ذلك الحين. بالنسبة لكوني مسيحيّة، فآمل وأؤمن أنّني قد كنت كذلك عندما كنت ما زلت طفلة صغيرة." شعر بأنّني سحقته، صدّقيني. ضعي في اعتبارك يا عزيزتي آن أنّني لا أقسو على جميع المبشّرين هكذا. لقد حظينا بعض الرجال الجادّين، الذين فعلوا الكثير من الخير وأربكوا المذنبين القدامى. لكنّ هذا الرجل الذي يُدعى فيسك لم يكن واحدًا منهم. ضحكتُ كثيرًا بمفردي ذات مساء. طلب فيسك من جميع المسيحيين الوقوف، ولم أقف صدّقيني! لم أحبّ هذه الأشياء. لكنّ معظمهم وقفوا، ثمّ طلب من كلّ من أراد أن يصبح مسيحيًّا أن يقف. لم يتحرّك أحدٌ لمدّة، لذلك بدأ فيسك ترنيمةً بأعلى صوته. كان آكي بيكر الصغير المسكين جالسًا أمامي مباشرةً في مقعد ميليسون. كان خادمَ منزل، يبلغ من العمر عشر سنوات، وكان ميليسون يجبره على العمل حتّى يُهلكه. كان المسكين الصغير دائمًا متعبًا جدًّا لدرجة أنّه كلّما ذهب إلى الكنيسة أو إلى أيّ مكانٍ يمكنه الجلوس فيه لبضع دقائق، نام على الفور. كان ينام طوال الاجتماع، وكنت ممتنّةً لرؤية الطفل المسكين يحصل على قسطٍ من الراحة. حسنًا، عندما ارتفع صوت فيسك رافعًا رأس إلى السماء وعندما انضمّ إليه الباقون، استيقظ إيكي المسكين. كان يعتقد أنه مجرّد غناءٍ عاديّ وأنّه يجب على الجميع الوقوف، لذلك سار على قدميه بسرعةٍ كبيرة، مدركًا أنّ ماريا ميليسون

ستوبّخه لنومه خلال الاجتماع. رآه فيسك، وتوقّف وصرخ: "نجت روحٌ أخرى! سبحان الله!" وكان إيكي المسكين خائف، نصف مستيقظ ويتثاءب، لم يفكّر أبدًا في روحه. لم يكن لدى الطفل المسكين وقتٌ للتفكير في أيّ شيءٍ سوى جسده الصغير المرهق والمنهك.

تابعت الآنسة كورنيليا: "ذهبت ليزلي ذات ليلة وبدأ ذلك الرجل فيسك بمخاطبتها مباشرةً. آه، صدّقيني، لقد كان يقلق بشدّة على أرواح الفتيات الجميلات! وقد جرح مشاعرها، لذلك لم تذهب مرّةً أخرى. ثم صلّى كل ليلةٍ بعد ذلك علنًا، أن يليِّن الله قلبها القاسي. أخيرًا، ذهبتُ إلى السيّد ليفيت، الذي كان القسّ حينها، وأخبرته أنّه إذا لم يطلب من فيسك التوقّف، فسوف أقوم في اليوم التالي ليلًا وأُلقي كتاب الترتيلة عليه عندما يذكر تلك "الشابة الجميلة، غير التائبة" وصدّقيني كنت سأفعل ذلك. لقد أوقف السيد ليفيت ذلك، لكنّ فيسك استمر في اجتماعاته حتّى أنهى تشارلي دوغلاس مسيرته المهنيّة في غلين. كانت زوجة السيد تشارلي في كاليفورنيا طوال فصل الشتاء. لقد كانت كئيبةً للغاية في الخريف، كانت كآبتها لأسبابٍ دينيّة، وكان ذلك متوارثًا في عائلتها، فلقد كان والدها قلقًا جدًّا من الاعتقاد بأنّه ارتكب الخطيئة التي لا تغتفر حتّى مات في المصحّ. لذلك عندما اكتئبت روز دوجلاس، أرسلها تشارلي لزيارة أختها في لوس أنجلوس. لقد تحسَّنت تمامًا وعادت إلى المنزل تمامًا حينما كانت صحوة فيسك الدينية على قدمٍ وساق. نزلت من القطار في غلين، وهي تبتسم من قلبها، وأوّل ما رأته يحدّق في وجهها من سقيفة المخبأ السوداء، كان رجلًا يسألها حاملًا خطاباتٍ بيضاء كبيرة، بارتفاع قدمين، "إلى أين تذهبين؟ إلى الجنة أم الجحيم؟" كانت تلك إحدى أفكار فيسك، وقد جعل هنري هاموند ينفِّذها. صرخت روز وأغمي عليها، وعندما عادوا إلى منزلها كانت أسوأ من أيّ وقتٍ مضى. ذهب تشارلي دوغلاس إلى السيد ليفيت

وأخبره أنّ كلّ فردٍ من عائلة دوغلاس سيغادر الكنيسة إذا بقي فيسك هناك لفترةٍ أطول. كان على السيّد ليفيت أن يستسلم، لأنّ عائلة دوجلاس كانت تدفع له نصف راتبه، لذلك غادر فيسك، واضطررنا إلى الاعتماد على أناجيلنا مرّةً أخرى للحصول على تعليماتٍ حول كيفيّة الوصول إلى الجنة. بعد رحيله، اكتشف السيّد ليفيت أنّه كان مجرّد ميثودي متنكّر، وشعر بالمرض الشديد، صدّقيني. كان السيد ليفيت مقصّرًا في بعض النواحي، لكنّه كان مشيخيًا جيدًا ومخلصًا."

قالت آن: "بالمناسبة، تلقيّت رسالةً من السيد فورد أمس، طلب منّي أن أذكّرك به."

قالت الآنسة كورنيليا باقتضاب: "لا أريد ذكراه."

قالت آن في دهشة: "لماذا؟ اعتقدتُ أنّه يعجبكِ."

"حسنًا، لقد كان يعجبني بطريقةٍ ما، لكنّني لن أسامحه أبدًا على ما فعله مع ليزلي. تلك الطفلة المسكينة يتحطّم قلبها لرحيله، كما لو أنّها لم تكن تعاني بما يكفي من المتاعب، وهو بلا شكٍّ يتجوّل في تورنتو، ويستمتع كما كان يفعل دائمًا. تمامًا مثلما يتصرّف الرجال."

"آه كيف عرفت يا آنسة كورنيليا؟"

"يا إلهي، آن عزيزتي أليست لدي عينان؟ وأنا أعرف ليزلي منذ أن كانت طفلة. غرقت عيناها بنوعٍ جديدٍ من حسرة القلب طوال الخريف، وأنا أعرف أنّ ذلك الكاتب كان السبب بطريقةٍ ما. لن أسامح نفسي أبدًا لكوني قد ساهمتُ في إحضاره إلى هنا. لكنّني لم أتوقّع أبدًا أنّه سيكون هكذا. اعتقدتُ أنّه سيكون مثل الرجال الآخرين الذين استقبلتهم ليزلي الذين كانوا جميعهم شبابًا حمقى ومغرورين لم تكن ترغب ليزلي بأحد منهم. حاول أحدهم مغازلتها مرّةً واحدة ولكنّها رفضته. كان الأمر سيّئًا للغاية، وأنا متأكّدة من أنّه لم ينسى ما حدث أبدًا منذ ذلك الحين. لذلك لم أفكّر أبدًا في أيّ خطر."

قالت آن على عجل: "لا تدعي ليزلي تشكّ في أنّكِ تعرفين سرّها، أعتقد أنّ ذلك سيؤذيها."

"صدقّيني يا عزيزتي آن، أنا لم أولد بالأمس. آه، فلينتقم الله من أولئك الرجال! واحدٌ منهم دمّر حياة ليزلي في البداية، والآن يأتي رجلٌ آخر ويجعل حياتها أكثر بؤسًا. آن، هذا العالم مكانٌ فظيع، صدّقيني."

قالت آن أحد الاقتباسات حالمة:

"هناك خطبٌ ما في هذا العالم
سيحلُّ لغزه تدريجيًّا."

قالت الآنسة كورنيليا بحزن: "إذا كان سيحلّ ذلك اللغز، فسيحدث ذلك في عالمٍ لا يوجد فيه أيّ رجال."

سأل جيلبرت أثناء دخوله: "ماذا فعل لكِ الرجال الآن؟"

"الأذى، الأذى! ما الذي يفعلونه غير الأذى؟"

"حواء هي التي أكلت التفاحة يا آنسة كورنيليا."

ردّت الآنسة كورنيليا بثقة: "والذي أغراها كان ذكر."

بعد انتهاء معاناتها الأولى، وجدت ليزلي أنه في النهاية، من الممكن الاستمرار في الحياة كما يفعل معظمنا، بغض النظر عن شكل عذاب كلّ فردٍ منّا. حتّى من المحتمل أنّها استمتعت بلحظاتٍ من ذلك، عندما كانت واحدةً من أفراد الفرح في بيت الأحلام الصغير. ولكن إن كانت آن تأمل يومًا في أن تنسى أوين فورد، فتخدعها اللهفة الخفيّة في عيون ليزلي كلّما ذكرت اسمه. كان يُرثى لتلك اللّهفة في عينيها، لذلك كانت آن دائمًا تخبر الكابتن جيم أو جيلبرت ببعض الأخبار من رسائل أوين عندما تكون ليزلي معهم. كان شحوب الفتاة واحمرار وجنتيها في مثل تلك اللحظات، يتحدّث ببلاغةٍ شديدة عن العاطفة التي ملأت كيانها. لكنّها لم تتحدّث عنه قطّ إلى آن، أو تذكر تلك الليلة على الحاجز الرمليّ.

ذات يوم، مات كلبها العجوز وحزنت عليه بشدة.

قالت بحزن لآن: "لقد كان صديقي منذ فترةٍ طويلة، كان الكلب القديم لِديك، حصل عليه قبل أن نتزوّج بعامٍ أو نحو ذلك. تركه معي عندما أبحر على فور سيسترز. تعلّق كارلو بي جدًّا، وساعدني حبّه عندما كنت وحدي خلال تلك السنة الأولى الرهيبة بعد وفاة والدتي. عندما سمعتُ أنّ ديك سيعود، خشيتُ ألّا يهتمّ بي كارلو كثيرًا ويعود لحبّه لديك. لكنّه لم يُبدِ أيّ اهتمامٍ بديك، على الرغم من أنّه كان مولّعًا به من قبل. كان يغضب ويتذمّر منه كما لو كان غريبًا، وكنت سعيدة، فلقد كان من الجميل أن يحبّني أحدهم وحدي. لقد كان هذا الكلب العجوز مصدر راحةٍ لي يا آن. لقد أصبح ضعيفًا جدًّا في الخريف لدرجة أنّني كنت أخشى أنّه لن يتمكن من أن يعيش طويلًا، لكنّني كنت آمل أن أتمكّن من الاعتناء به خلال الشتاء. لقد بدا جيّدًا هذا الصباح، كان مستلقيا على البساط أمام النار. ثمّ قام وتسلّل إليّ فجأةً، ووضع رأسه في حضني وأعطاني نظرةً محبّة بعينيه الكبيرتين اللطيفتين، ثم ارتجف ومات. سأفتقده بشدّة."

قالت آن: "دعيني أعطيك كلبًا آخر يا ليزلي، سوف أحضر كلب غوردون جميل كهديةٍ لجيلبرت بمناسبة عيد ميلاده. اسمحي لي أن أعطيك واحدًا أيضًا."

هزّت ليزلي رأسها.

"ليس الآن، شكرًا لك يا آن. لا أشعر برغبةٍ في امتلاك كلبٍ آخر الآن. يبدو أنّه ليست لديّ أيّة عاطفة متبقيّة تجاه كلبٍ آخر. ربّما في الوقت المناسب سأدعك تعطيني واحدًا، أنا حقًّا بحاجةٍ إلى واحدٍ كنوعٍ من الحماية. ولكن كنت أشعر أنّ كارلو ليس مجرّد كلب، لن يكون من اللائق ملء مكانه على عجل، كان زميلي العزيز العجوز."

ذهبت آن إلى آفونلي قبل أسبوعٍ من عيد الميلاد وبقيت حتى بعد

العطلة. جاء جيلبرت من أجلها، وكان هناك احتفالٌ سعيد بالعام الجديد في المرتفعات الخضراء، عندما اجتمع آل باري وآل بلايث وآل رايت لتناول العشاء الذي كلّف ماريلا والسيدة ريتشل التحضير الكثير والكثير من التفكير. عندما عادوا إلى فوروينذز، كان المنزل الصغير على وشك الانجراف تقريبًا، بسبب العاصفة الثالثة من الشتاء التي أثبتت أنّ الجوّ كان عاصفًا بشكلٍ هائل، فقد اجتاحت المرفأ، وشكّلت جبالًا ثلجيّة ضخمة من كلّ ما واجهته. لكنّ الكابتن جيم كان قد جرف الثلوج من أمام الأبواب والممرّات، ونزلت الآنسة كورنيليا وأضرمت النار في الموقد.

"من الجيّد رؤيتك ثانيةً يا عزيزتي آن! لكن هل رأيتِ مثل هذه الثلوج من قبل؟ لا يمكنك رؤية منزل مور على الإطلاق إلّا إذا صعدتِ إلى الطابق العلويّ. ستكون ليزلي سعيدةً للغاية بعودتك. لقد كادت أن تُدفن حيّةً هناك. لحسن الحظ يمكن لِديك أن يجرف الثلج ويعتقد أنّها متعةٌ كبيرة. أرسلت لي سوزان لتخبرك أنّها ستكون في هنا غدًا. إلى أين أنت ذاهبٌ الآن أيّها الكابتن؟"

"أظن أنّني سأذهب إلى غلين وأجلس قليلًا مع العجوز مارتن سترونج. إنّه يحتضر وهو وحيد، ليس لديه الكثير من الأصدقاء فلقد كان مشغولًا طوال حياته لدرجة أنّه لم يكن لديه الوقت الكافي لتكوين صداقاتٍ مع الناس. في المقابل، لقد جنى الرجل أموالًا طائلة."

قالت الآنسة كورنيليا بهدوء: "حسنًا، إن اعتقد أنّه لا يستطيع أن يجني المال ويكوّن صداقات في نفس الوقت، وفضّل التمسك بالأموال، إذًا لا ينبغي له الآن أن يشتكي عدم وجود الأصدقاء."

خرج الكابتن جيم، لكنّه تذكّر شيئًا ما في الفناء وعاد للحظة.

"لديّ رسالةٌ من السيّد فورد، يا سيّدة بلايث، ويقول إنّ الكتاب الذي ألّفه عن الحياة قد تمّ قبوله وسيُنشر في الخريف المقبل. شعرتُ

بالسعادة عندما تلقّيت الأخبار وصرتُ أفكّر بأنّني أخيرًا سأراه مطبوعًا."

قالت الآنسة كورنيليا بحنان: "هذا الرجل مجنونٌ فيما يتعلّق بموضوع كتاب الحياة الخاص به، أنا شخصيًّا أعتقدُ أنّ هناك الكثير من الكتب في العالم الآن."

***

29
خلافٌ بين جيلبرت وآن



في ذلك اليوم من شهر آذار، وضع جيلبرت الكتاب الطبيّ الثقيل، الذي كان يقرأه بتمعّن حتى جعله تزايد ظلام الغسق يتوقّف. انحنى إلى الخلف في كرسيّه وحدّق متأمّلًا من النافذة. كان ذلك في أوائل الربيع أي ربّما في أبشع وقتٍ من السنة. حتى غروب الشمس لم يستطع إحياء المناظر الطبيعيّة شبه الميتة والرطبة وجليد المرفأ الأسود الفاسد الذي كان ينظر إليه. لم تكن هناك أيّة علامةٍ على الحياة، باستثناء غرابٍ أسود كبير كان يحلّق منفردًا فوق حقلٍ كئيب. فكّر جيلبرت مليًّا وبهدوء بذلك الغراب. هل لديه عائلة؟ هل لديه أنثى سوداء ولكن لطيفة تنتظره في الغابة وراء غلين؟ أم أنّه كان يافعًا ولامعًا يملك في رأسه أفكارًا عن المغازلة؟ أم أنّه كان غرابًا عازبًا ساخرًا، يعتقد أنّ الأسرع في السفر من يسافر بمفرده؟ مهما كان، سرعان ما اختفى في الظلام واستدار جيلبرت لينظر إلى داخل المنزل لرؤية المنظر الأكثر بهجة.

لمع ضوء النار في أرجاء الغرفة متلألئًا على معاطف ليأجوج ومأجوج البيضاء والخضراء، وعلى الرأس البني الأملس للكلب

الجميل المستلقي على السجادة ليتدفأ، وعلى إطارات الصور المعلّقة على الجدران، وعلى أزهار النرجس البريّ الموضوعة عند حافّة النافذة، وعلى آن نفسها، جالسةً بجانب طاولتها الصغيرة، وإلى جانبها عدّة الخياطة الخاصة بها ويداها مشبوكتان على ركبتيها بينما كانت ترسم في خيالها قلاع النار في إسبانيا التي اخترقت أبراجها الشاهقة سحابةً مقمّرة، وسفن غروب الشمس تبحر من "جنة الله" مباشرةً إلى مرفأ فوروينذز مع حمولةٍ ثمينة. كانت آن مرّةً أخرى غارقةً بالأحلام، رغم أنّ الخوف كان يرافقها ليلًا ونهارًا ليجعل رؤاها كئيبةً ومخيفة.

اعتاد جيلبرت أن يعتبر نفسه "رجلًا عجوزًا متزوّجًا"، لكنّه لا يزال ينظر إلى آن بعيني عاشقٍ مرتبك. لم يستطع أن يصدّق تمامًا حتّى الآن أنّها كانت ملكه حقًّا. قد يكون هذا في النهاية مجرّد حلم، جزءًا لا يتجزأ من بيت الأحلام السحري هذا. لا يزال يتصرّف بهدوءٍ أمامها ويزين كلماته معها، لئلّا ينكسر السحر ويتبدّد الحلم.

قال ببطء: "آن، اقتربي قليلًا، أريد أن أتحدّث معك عن أمرٍ ما."

نظرت إليه آن عبر الظلام الذي كسره ضوء النار.

سألته بمرح: "ما الأمر؟ تبدو مهيبًا بطريقةٍ مخيفة يا جيلبرت. أنا حقًّا لم أفعل أيّ أمرٍ شقيٍّ اليوم. اسأل سوزان."

"لا أريد التحدّث عنكِ أو عنّا، بل عن ديك مور."

تفاجأت آن وردّدت: "ديك مور؟ ما الذي تريد قوله عن ديك مور؟"

"لقد كنت أفكّر فيه كثيرًا مؤخرًا. هل تتذكّرين أنّني عالجته في الصيف الماضي من تلك الدمامل التي كانت على رقبته؟"

"نعم نعم."

"انتهزتُ الفرصة لفحص الندوب على رأسه بدقّة. لطالما اعتقدتُ أنّ ديك كان حالةً مثيرةً للاهتمام للغاية من وجهة نظرٍ طبيّة. مؤخرًا، كنتُ أدرس تاريخ نقب الجماجم والحالات التي تم استخدامها فيها.

لقد توصلت إلى استنتاجٍ يا آن مفاده أنّه إذا تمّ نقل ديك مور إلى مستشفى جيّد وأجريت عملية النقب في عدّة أماكن في جمجمته، فقد يمكنه استعادة ذاكرته وقدراته."

احتجّت آن قائلة: "جيلبرت! بالتأكيد أنت لا تقصد ذلك!"

"بالطبع أقصد ذلك. ولقد قرّرت أنّه من واجبي طرح الموضوع على ليزلي."

صرخت آن بشدّة: "جيلبرت بلايث، لن تفعل أيّ شيءٍ من هذا القبيل. آه يا جيلبرت، لن تفعل ذلك، لا يجب أن تفعل ذلك. لا يمكنك أن تكون قاسيًا للغاية. عِدني أنّك لن تطرح الموضوع عليها."

"لماذا يا فتاتي آن؟ لم أفترض أنّك ستأخذين الأمر على هذا النحو. كوني منطقيّة."

"لن أكون منطقيّة، لا يمكنني أن أكون منطقيّة، أنا بالفعل منطقيّة. أنت الذي لست منطقيًّا. جيلبرت، هل فكّرت يومًا ما الذي قد يعنيه لليزلي إذا استعاد ديك مور حواسه وذاكرته؟ فقط توقّف وفكّر! إنّها غير سعيدة بما فيه الكفاية الآن، لكنّ الحياة كممرّضة ديك وخادمته أسهل ألف مرّةٍ من الحياة كزوجة له. أعلم، أعلم! إنّه أمرٌ لا يمكن تصوّره، لكن لا تتدخّل. اترك الأمر كما هو لعلّه خير."

"لقد فكّرت جيدًا في هذا الجانب من القضيّة يا آن. لكنّني أعتقد أنّ الطبيب ملزمٌ بوضع عقل المريض وجسده فوق كلّ الاعتبارات الأخرى، بغضّ النظر عن العواقب. أعتقد أنّ واجبه السعي لاستعادة الصحة والعقل، إذا كان هناك أيّ أملٍ في ذلك."

صرخت آن: "لكنّ ديك ليس مريضك في هذا الصدد. إذا سألتك ليزلي عمّا إذا كان من الممكن القيام بأيّ شيءٍ من أجله، فقد يكون من واجبك أن تخبرها بما تعتقده حقًّا. لكن ليس لديك الحقّ في التدخل."

"أنا لا أسمّي ذلك تدخّلًا، أخبرَ العمّ ديف ليزلي قبل اثني عشر عامًا

أنّه لا يمكن فعل شيءٍ من أجل ديك، وهي بالطبع تصدّق ذلك."

صرخت آن بشعورٍ بالانتصار: "ولماذا أخبرها العمّ ديف ذلك، إذا لم يكن صحيحًا؟ ألا يعرف الكثير عن حالته مثلك؟"

"لا أعتقد ذلك، على الرغم من أنّني قد أبدو مغرورًا وجريئًا لقول ذلك. وأنت تعلمين جيّدًا مثلي أنّه متحيز ضد ما يسمّيه "هذه المفاهيم الجديدة المشوشة للقطع والنحت" حتّى أنّه يعارض إجراء جراحة الزائدة الدوديّة."

تغيّرت ملامح آن بشكلٍ كامل وقالت: "إنّه على حقّ، أنا نفسي أعتقد أنّكم أيّها الأطباء المعاصرون مغرمون تمامًا بإجراء التجارب على لحم ودم الإنسان."

قال جيلبرت: "لن تكون رودا ألونبي امرأةً على قيد الحياة اليوم لو كنتُ أخشى إجراء تجربةٍ معيّنة، لكنّني جازفت وأنقذت حياتها."

صرخت آن: "لقد سئمت وتعبت من سماع قصّة رودا ألونبي." لم تكن آن عادلةً في كلامها، لأنّ جيلبرت لم يذكر اسم السيّدة ألونبي أبدًا منذ اليوم الذي أخبر فيه آن عن نجاحه في إنقاذه حياتها، ولا يمكن لومه على حديث الآخرين عن ذلك النجاح.

شعر جيلبرت بأنّ آن قد جرحت مشاعره.

قال جيلبرت بجديّة ونبرةٍ حادّةٍ قليلًا: "لم أكن أتوقّع منك أن تفكّري في هذه المسألة بهذه الطريقة يا آن." ثمّ نهض وتقدّم نحو باب المكتب. كانت تلك أوّل مرّةٍ يوشكان فيها على الشجار.

لكنّ آن تبعته فورًا وسحبته.

"جيلبرت، لا تغضب الآن، اجلس هنا وسأعتذر لك بطريقةٍ جميلة. ما كان يجب أن أقول ذلك، لكن آه، لو كنت تعلم..."

فكّرت آن في الوقت المناسب أنّها كانت على وشك خيانة سر ليزلي، فأكملت جملتها قائلةً بقسوة: "لو كنت تعلم ما تشعر به المرأة

حيال ذلك."

"أعتقد أنني أعرف ذلك حقًا، فلقد نظرت إلى الأمر من كلّ وجهة نظر وأوصلني ذلك إلى استنتاج مفاده أنّه من واجبي أن أخبر ليزلي أنّني أؤمن بإمكانيّة إعادة ديك إلى ما كان عليه سابقًا، هناك تنتهي مسؤوليّتي وسيكون لها أن تقرّر ما ستفعله."

"لا أعتقد أنّ لديك أيّ حقٍّ في تحميلها مثل هذه المسؤولية. لديها ما يكفي لتتحمّله، وهي امرأةٌ فقيرة، فكيف يمكنها تحمّل كلفة عمليّةٍ كهذه؟"

أصرّ جيلبرت بعناد: "هذا القرار لها."

"أنت تعتقد أنّه يمكن علاج ديك، لكن هل أنت متأكّدٌ من ذلك؟"

"كلّا بالتأكيد. لا أحد يستطيع أن يكون متأكدًا من شيءٍ من هذا القبيل. ربّما هناك آفاتٌ في الدماغ، ولا يمكن إزالة تأثيرها أبدًا. ولكن إذا كان فقدانه للذاكرة وغيرها من القدرات يرجع فقط إلى الضغط على مراكز الدماغ في مناطق معيّنة من العظام الضعيفة كما أعتقد، إذًا يمكن علاجه."

أصرّت آن: "لكنّ هذا مجرّد احتمال! الآن، لنفترض أنّك أخبرتَ ليزلي وقرّرت إجراء العمليّة، ستكلّفها الكثير. سيتعيّن عليها اقتراض المال، أو بيع ممتلكاتها الصغيرة. وافترض أنّ العملية فشلت وبقي ديك على حاله. كيف ستكون قادرةً على سداد الأموال التي اقترضها، أو كسب لقمة العيش لنفسها ولهذا المخلوق الكبير العاجز إذا باعت المزرعة؟"

"آه، أعلم أعلم، لكنّ من واجبي أن أخبرها ولا يمكنني الاقتناع بغير ذلك."

تأوّهت آن: "آه، أنا أعرف عناد آل بلايث، لكن لا تفعل هذا على مسؤوليّتك الخاصة، استشر الطبيب ديف."

قال جيلبرت بنبرةِ رجلٍ منزعج: "لقد استشرته مسبقًا."
"وماذا قال؟"
"باختصار، قال أنّ الوضع جيّدٌ هكذا كما تقولين ولا داعي لتغييره. بصرف النظر عن تحيّزه ضد الجراحة الجديدة، أخشى أنّه ينظر إلى حالة ديك من وجهة نظرك، فطلب منّي ألا أفعل ذلك، لمصلحة ليزلي."
صرخت آن شاعرةً بالانتصار: "حسنًا الآن، أعتقد يا جيلبرت أنّه يجب عليك الالتزام بحكم رجلٍ في الثمانين من عمره تقريبًا، ورأى الكثير وأنقذ العديد من الأرواح بنفسه فبالتأكيد يجب أن يكون رأيه مهمًّا أكثر من رأي مجرّد صبيّ."
"شكرًا لك."
"لا تضحك، إنّني جديّةٌ للغاية."
"هذه فقط وجهة نظري، وأنا جادٌّ فيها. إنّه رجلٌ يشكّل عبئًا ولا حول له ولا قوّة، وقد يعود منطقيًّا ومفيدًا."
قاطعته آن بهدوء: "لقد كان مفيدًا جدًّا من قبل."
"قد يُعطى فرصةً لفعل الخير وإصلاح الماضي. لا تعرف زوجته هذا، لكنّني أعرف. لذلك من واجبي أن أخبرها أنّ هناك مثل هذا الاحتمال. وباختصار، هذا هو قراري."
"لا تقل أنّه قرارٌ يا جيلبرت. استشر شخصًا آخر، اسأل الكابتن جيم ما يعتقده حيال ذلك."
"حسنًا، لكنني لن أتعهّد بالالتزام برأيه يا آن. هذا أمرٌ يجب على الرجل أن يقرّره بنفسه. لن يكون ضميري مرتاحًا أبدًا إذا التزمت الصمت حول هذا الموضوع."
اشتكت آن: "ضميرك! أفترض أنّ العمّ ديف لديه ضميرٌ أيضًا، أليس ذلك صحيح؟"

"نعم. لكنّني لست مسؤولًا عن ضميره. هيّا يا آن، إذا لم تكن هذه القضيّة تخصّ ليزلي، فكنتِ ستتّفقين معي، وأنتِ تعلمين أنّني محقٌّ في هذا."

تعهّدت آن محاولةً تصديق الأمر بنفسها: "كلّا لن أتّفق معك. يمكنك أن تجادلني طوال الليل يا جيلبرت، لكنّك لن تقنعني. فقط اسأل الآنسة كورنيليا عن رأيها في الأمر."

"استعانتك بالآنسة كورنيليا هي تعزيز دليل على أنّك محصورةٌ للغاية يا آن. ستقول: "تمامًا مثلما يتصرّف الرجل" وتغضب بشدّة. هذا لا يهمّ، إنّ الأمر لا يحتاج الآنسة كورنيليا لتسويته، يجب على ليزلي وحدها أن تقرّر ذلك."

قالت آن وهي تكاد تبكي: "أنت تعرف جيّدًا كيف ستقرّر ذلك. لديها مُثل للواجب أيضًا. لا أرى كيف يمكنك تحمّل مثل هذه المسؤولية على عاتقك، أنا لا أستطيع."

قال جيلبرت مقتبسًا:

"لأنّ الحقّ هو الحقّ في اتّباع الحقّ
كانت الحكمة في ازدراء العاقبة"

سخرت آن منه: "آه، أنت تعتقد أنّ سطرين من الشعر حجّةٌ مقنعة! أنت تتصرّف حقًّا مثل الرجال."

ثمّ ضحكت على الرغم من نفسها، فلقد شعرت أنّها تتكلّم مثل السيدة كورنيليا.

قال جيلبرت بجديّة: "حسنًا، إذا لم تقبلي كلام الشاعر تينيسون، فربّما تؤمنين بكلماتٍ أعظم منه. "ستعرفون الحقيقة والحقيقة ستجعلكم أحرارًا" أؤمن بتلك الكلمات يا آن من كلّ قلبي. إنّها بالنسبة لي أعظم آيةٍ في الإنجيل أو في أيّة مؤلّفاتٍ أخرى، وهي الأكثر صدقًا إذا كانت هناك مقارنةٌ بين درجات الصدق. وأوّل واجبٍ على الرجل

أن يقول الحقيقة كما يراها ويؤمن بها."

تنهّدت آن: "في هذه الحالة، لن تجعل الحقيقة ليزلي المسكينة حرّة. من المحتمل أن ينتهي الأمر بعبوديّةٍ أكثر مرارةً لها. آه يا جيلبرت، لا أستطيع الاعتقاد أنّك على حق."

***

30
ليزلي تقرّر



أدّى انتشار نوعٍ خبيثٍ من الإنفلونزا في غلين ونزولًا إلى قرية الصيد إلى إبقاء جيلبرت مشغولًا للغاية في الأسبوعين التاليين لدرجة أنّه لم يكن لديه الوقت للقيام بالزيارة الموعودة للكابتن جيم. كانت آن تأمل أنّه تخلّى عن فكرة ديك مور، وبعد أن عقدت العزم على تجاهل القضيّة لتجنّب المشاكل، لم تقل المزيد عن هذا الموضوع، لكنّها فكّرت في الأمر باستمرار.

كانت آن تفكّر وقالت لنفسها: "أتساءل عمّا إذا كان من المناسب لي أن أخبره أنّ ليزلي تهتمّ بأوين، لن يدعها تشكّ في أنّه يعرف، لذلك لن يتألّم كبرياؤها وقد يقنعه هذا السر أنّه يجب أن يدع ديك مور وشأنه. هل أفعل ذلك؟ كلّا، في النهاية لا أستطيع البوح بالسر، فالوعد مقدّس، وليس لديّ الحق في خيانة سرّ ليزلي. آه ولكنّني لم أشعر أبدًا بالقلق من أيّ أمرٍ في حياتي كما أفعل حيال هذه القضيّة. إنّها تفسد الربيع، إنّها تفسد كلّ شيء."

في إحدى الأمسيات اقترح جيلبرت فجأةً أن ينزلا لزيارة الكابتن جيم. وافقت آن بقلبٍ حزين، وانطلقا. أسبوعان من أشعة الشمس

اللطيفة قد حوّلا المشهد الكئيب الذي طار فوقه غراب جيلبرت المرّة الماضية إلى منظرٍ رائعٍ للغاية يجعلك تظنّ لوهلةٍ أنّ ما حدث هو سحرٌ حقيقيّ. كانت التلال والحقول جافّةً وبنيّة اللون ودافئة، جاهزة لتنفجر بالبراعم وتزهر. اهتزّ الميناء بالضحك مرّةً أخرى، وكان طريقه الطويل مثل شريطٍ أحمر لامع، وفي الأسفل عند الرمال، كان حشدٌ من الأولاد الذين أوحت رائحتهم أنّهم كانوا في الخارج يصطادون الأسماك، يحرقون عشب التلال الرملية السميك والجاف من الصيف السابق. اندلعت النيران فوق الرمال، ولمعت شراراتها قبالة الخليج المظلم في الخلف، وأنارت القناةَ وقرية الصيد. لقد كان مشهدًا خلّابًا من شأنه أن يسعد عينيّ آن في أوقاتٍ أخرى، لكنّها لم تكن مستمتعةً بهذا المشي، تمامًا مثل جيلبرت. كانا للأسف يفتقران لعلاقتهما الحسنة المعتادة واتّفاقهما في الذوق ووجهة النظر. ظهر رفض آن للمشروع بأكمله في الرفع المتغطرس لرأسها والأدب المدروس لملاحظاتها. وكان جيلبرت جاهزًا للتحدّث بكلّ عناد آل بلايث، لكنّ كانت عيناه توحيان بالقلق. قصد أن يفعل ما يعتقد أنّه واجبه، لكنّ التواجد في الخارج مع آن كان ثمنًا باهظًا يجب دفعه. إجمالًا، كان كلاهما مسرورًا عندما وصلا إلى المنارة، ونادمين على كونهما مسرورين.

وضع الكابتن جيم بعيدًا شبكة الصيد التي كان يعمل بها، ورحّب بهم بفرح. في تلك الأمسية الربيعيّة وتحت ضوء المنارة، بدا الكابتن أكبر سنًّا ممّا رأته آن. أصبح شعره أكثر شيبًا، وارتجفت يده العجوز القويّة قليلًا، لكنّ عينيه الزرقاوتين كانتا صافيتين وعازمتين، وعكستا قوّته وشجاعته.

استمع الكابتن جيم في صمتٍ مذهولًا بينما قال جيلبرت ما جاء ليقوله. كانت آن التي عرفت كيف كان الرجل العجوز يعشق ليزلي، متأكّدةً تمامًا من أنّه سينحاز لها، على الرغم من أنّها لم تكن تأمل كثيرًا

في أن يؤثر ذلك على جيلبرت. لذلك فوجئت عندما أعطى الكابتن جيم، ببطءٍ وحزن ولكن دون تردّد، رأيه بأنّه يجب إخبار ليزلي.

صاحت بتوبيخ: "آه يا كابتن جيم، لم أكن أعتقد أنّك ستقول ذلك. اعتقدت أنّك لا تريد أن تسبّب لها المزيد من المتاعب."

هزّ الكابتن جيم رأسه.

"لا أريد ذلك، وأعرف شعورك حيال هذا الموضوع يا سيّدة بلايث تمامًا مثلما أشعر. ولكن لا ينبغي أن نتّبع مشاعرنا في حياتنا، كلّا، وإلّا سنقع في المشاكل في الكثير من الأحيان. لا نملك سوى طريق واحدة آمنة وعلينا تحديد مسارنا من خلال ما هو الصواب القيام به. أنا أتّفق مع الطبيب، إذا كانت هناك فرصة لِديك، فيجب إخبار ليزلي بها. في رأيي، لا جانبان لذلك."

قالت آن وهي تستسلم يائسةً: "حسنًا، انتظرا حتى تمسككما الآنسة كورنيليا."

وافقها الكابتن جيم: "ستوبّخنا كورنيليا بلا شكّ. أنتنّ أيّتها النساء مخلوقاتٌ جميلة يا سيّدة بلايث، لكنّكنّ غير منطقيّات. أنتِ سيّدةٌ مثقّفةٌ للغاية وكورنيليا ليست كذلك، لكنّك تصبحين مثلها عندما يتعلّق الأمر بذلك. أنا لا أعلم أنّ ذلك يؤثر عليكِ سلبيًّا. أعتقد أنّ المنطق شيءٌ صعبٌ وقاسي. الآن، سأقوم بإعداد كوبٍ من الشاي وسنشربه ونتحدّث عن أمورٍ ممتعة لتهدئة أذهاننا قليلًا."

على الأقلّ، هدّأ شاي الكابتن جيم ومحادثاته عقل آن لدرجة أنّها لم تجعل جيلبرت يعاني بشدّة في طريق العودة إلى المنزل كما كانت تنوي أن تفعل عمدًا. لم تشر إلى موضوع النقاش على الإطلاق، لكنّها تجاذبت أطراف الحديث بطريقةٍ وديّة حول الأمور الأخرى، وفهم جيلبرت أنّها قد غفرت له لكنّها ما زالت معارضةً لقراره.

قالت آن بحزن: "يبدو الكابتن جيم ضعيفًا ومنحنيًا للغاية هذا

الربيع. لقد جعله الشتاء يشيخ. أخشى أنّه سيبحث قريبًا عن مارغريت المفقودة، لا يمكنني تحمّل التفكير في الأمر."

وافق جيلبرت على ذلك قائلًا: "لن تبقى فوروينذز كما هي عندما يبحر الكابتن جيم."

في المساء التالي ذهب إلى المنزل أعلى النهر. تجوّلت آن بحزنٍ حتّى عودته.

عندما جاء سألته: "حسنًا، ماذا قالت ليزلي؟"

"لم تتكلّم كثيرًا، أعتقد أنّها شعرت بالدوار نوعًا ما."

"وهل ستجري له العمليّة؟"

"ستفكّر في الأمر وتقرر قريبًا جدًا."

جلس جيلبرت ضجِرًا على الكرسيّ المريح أمام النار. بدا متعبًا، فلم يكن من السهل عليه أن يخبر ليزلي. ولم يكن ممتعًا تذكّر الرعب الذي ثار في عينيها عندما فهمت معنى ما قاله لها. الآن، بعدما سبق السيف العذل، كان محاطًا بالشكوك في حكمته.

نظرت إليه آن بندم. ثمّ جلست على السجادة بجانبه ووضعت رأسها وشعرها الأحمر اللامع على ذراعه.

"جيلبرت، لقد كنت بغيضةً في تصرّفي حيال هذا الأمر. لن أكون هكذا بعد الآن. من فضلك ناديني بذاتِ الشعر الأحمر وسامحني."

وحينها فهم جيلبرت أنّه بغضّ النظر عمّا سيحدث، لن تقول له "ألم أقل لك؟" لكنّه لم يشعر بالارتياح التامّ. الواجب في الكلام مختلفٌ تمامًا عن الواجب في الفعل، خاصةً عندما يواجه الفاعل بعينيّ امرأةٍ حزينة.

شيءٌ ما ألهم آن بالابتعاد عن ليزلي للأيام الثلاثة القادمة.

في المساء الثالث، نزلت ليزلي إلى المنزل الصغير وأخبرت جيلبرت أنّها اتّخذت قرارها. أرادت أخذ ديك إلى مونتريال

وإجراء العملية له.

كانت شاحبةً للغاية ويبدو أنها لبست ثوب العزلة. لكنّ عينيها فقدتا المظهر الذي كان يطارد جيلبرت. فكانت عيناها باردتين ولامعتين. وشرعت في مناقشة التفاصيل معه بطريقةٍ واضحة وكأنّها تناقش الأعمال. كانت هناك خططٌ يجب وضعها والعديد من الأمور التي يجب التفكير فيها. عندما حصلت ليزلي على المعلومات أرادت أن تعود إلى المنزل، وأرادت آن أن تمشي معها جزءًا من الطريق.

قالت ليزلي باقتضاب: "من الأفضل لكِ ألاّ تمشي معي، جعل المطر اليوم الأرض رطبة. تصبحين على خير."

قالت آن بحسرة: "هل فقدت صديقتي؟ إذا نجحت العمليّة وعاد ديك مور إلى طبيعته، فسوف تتراجع صحة ليزلي النفسيّة، وستصبح بعيدةً للغاية عنّا."

قال جيلبرت: "ربّما ستتركه."

"لن تفعل ليزلي ذلك أبدًا يا جيلبرت، لديها إحساسٌ كبيرٌ بالواجب. أخبرتني ذات مرّة أنّ جدّتها ويست دائمًا ما أثارت إعجابها بحقيقة أنّه عندما تتحمل أيّة مسؤوليّة يجب ألّا تتنصل منها أبدًا، بغضّ النظر عن العواقب المحتملة. هذه واحدةٌ من قواعدها الأساسيّة، وأعتقد أنّها عادةٌ قديمة الطراز."

"لا تكوني ساخرة يا فتاتي آن. أنتِ تعلمين أنّكِ لا تعتقدين أنّها قديمة الطراز، أنتِ تعلمين أن لديك نفس فكرة تقديس المسؤوليّات نفسك، وأنتِ على حقّ. التهرّب من المسؤوليّات هو لعنة حياتنا الحديثة وسرّ كلّ الاضطرابات والاستياء المنتشر في العالم."

سخرت آن: "هكذا قال الواعظ." ولكن في ظلّ استهزاءها، شعرت أنّه كان على حقّ، وكان قلبها يتحطّم من أجل ليزلي.

بعد أسبوع، نزلت الآنسة كورنيليا بسرعةٍ إلى المنزل الصغير. كان

جيلبرت بعيدًا واضطرّت آن لتحمّل تأثير الصدمة وحدها.

بالكاد انتظرت الآنسة كورنيليا أن تخلع قبّعتها قبل أن تبدأ.

قالت: "آن، هل ما سمعته صحيحًا؟ هل أخبر الطبيب بلايث ليزلي بإمكانيّة شفاء ديك، وأنّها ستأخذه إلى مونتريال لإجراء عمليّةٍ جراحيّةٍ له؟"

قالت آن بشجاعة: "نعم، هذا صحيحٌ تمامًا يا آنسة كورنيليا."

قالت الآنسة كورنيليا بعنف: "حسنًا، إنّها قسوة غير إنسانيّة. اعتقدت أنّ الطبيب بلايث رجل محترم، لم أكن أعتقد أنّه من الممكن أن يكون مذنبًا في هذا الأمر."

قالت آن: "اعتقد الطبيب بلايث أنّ من واجبه أن يخبر ليزلي بوجودِ فرصةٍ لِديك." وأضافت بولاءٍ لجيلبرت: "أنا أتّفق معه."

قالت الآنسة كورنيليا: "آه، لا، لا تتّفقين معه، يا عزيزتي. لا يمكن لأيّ شخصٍ في قلبه بعض الرحمة والعاطفة، أن يتّفق معه."

"وافقه الكابتن جيم."

صرخت الآنسة كورنيليا: "لا تخبريني ما قاله ذلك العجوز المغفّل وأنا لا أهتم بمن يتّفق معه. فكّري، فكّري فيما يعنيه ذلك لتلك الفتاة المسكينة المطاردة والمضطهدة."

"نحن نفكّر في الأمر. لكنّ جيلبرت يعتقد أنّ الطبيب يجب أن يضع صحّة عقل المريض وجسمه قبل كلّ الاعتبارات الأخرى."

قالت الآنسة كورنيليا التي غلب حزنها غضبها: "يتصرّف تمامًا مثل الرجال. لكنّني كنت أتوقّع أشياء أفضل منكِ يا آن." ثمّ شرعت في قصف آن بنفس الحجج التي هاجمت بها الأخيرة جيلبرت، ودافعت آن بشجاعةٍ عن زوجها بالأسلحة التي استخدمها للدفاع عن نفسه. كان الشجار طويلًا، لكنّ الآنسة كورنيليا أنهته أخيرًا.

وقالت وهي على وشك البكاء: "إنّه عارٌ جسيم، هذا فقط ما هو

عليه، عارٌ جسيم. ليزلي المسكينة!"

ناشدتها آن: "ألا تعتقدين أنّه ينبغي النظر إلى ديك قليلًا أيضًا؟"

"ديك! ديك مور! إنّه سعيدٌ بما فيه الكفاية. إنه أفضل تصرّفًا وأكثر شهرةً في المجتمع الآن ممّا كان عليه من قبل. لأنّه كان سكّيرًا وربّما أسوأ. هل سيطلقون له العنان مرّةً أخرى ليفلت ويفترس؟"

محاصرةً بخصمٍ من الخارج وخائنٍ في الداخل، قالت آن المسكينة: "قد يتغيّر ويصبح شخصًا جيّدًا."

"يتغيّر! حصل ديك مور على هذه الإصابات التي دهورت صحّته وهو في شجارٍ مخمور. إنّه يستحقّ قدره، وعاقبه الله على أعماله. لا أعتقد أنّه ينبغي على الطبيب أن يصلح ما أراد الله حدوثه."

"لا أحد يعرف كيف أصيب ديك يا آنسة كورنيليا. ربّما لم يكن في شجارٍ مخمور على الإطلاق. ربّما يكون قد تعرض للنهب والسرقة."

قالت الآنسة كورنيليا: " إن كان الإنسان لا يصلح لأمرٍ ما فلن يستطيع فعله حتّى لو حاول ذلك. حسنًا، جوهر ما تخبرينني به هو أنّ الأمر تمّت تسويته وليس هناك فائدةٌ من الحديث. إذا كان الأمر كذلك، فسوف أمسك لساني. لا أحبّذ صرف طاقتي في الكلام عبثًا. عندما يكون من المؤكّد حدوث أمرٍ ما، فأنا أستسلم. لكنّني أودّ التأكّد أوّلًا من أنّه سيحدث. الآن، سأكرّس طاقتي لإراحة ليزلي والحفاظ على صحتها. ربّما لا يمكن فعل أيّ شيءٍ من أجل ديك."

***

31
الحقيقة تحرّر



بعد أن حسمت ليزلي رأيها فيما يجب أن تفعله، شرعت في القيام بذلك بدقّةٍ وبسرعة. ومهما كانت قضايا الحياة والموت التي قد تنتظرها، يجب الانتهاء أوّلًا من تنظيف المنزل. نظّفت ليزلي بمساعدة الآنسة كورنيليا المنزل الرماديّ أعلى الجدول الذي أصبح لامعًا لا تشوبه شائبة. بعد كلام الآنسة كورنيليا مع آن، ثمّ مع جيلبرت والكابتن جيم مع تأكّدها من عدم إزعاجهما بكافّة التفاصيل، لم تتحدّث أبدًا عن الأمر إلى ليزلي. تقبّلت حقيقة عمليّة ديك، وذكرتها عند الضرورة بطريقةٍ راقية، وتجاهلتها عندما لم يكن من الضروريّ ذكرها.

لم تحاول ليزلي أبدًا مناقشة موضوع العمليّة، وكانت باردةً جدًّا وهادئة خلال أيام الربيع الجميلة هذه. نادرًا ما كانت تزور آن، وعلى الرغم من أنّها كانت دائمًا مهذبة وودودة، إلّا أنّ لطفها حينئذٍ كان بمثابة حاجزٍ بينها وبين أهل المنزل الصغير، فتوقّفت عن حبّ النكات القديمة والضحك وغيرها من الأمور الشائعة بين الأصدقاء.

رفضت آن أن تشعر بالأذى، وكانت تعلم أنّ ليزلي كانت في قبضة رعبٍ شنيع وهو الرهبة التي أبعدتها عن كلّ ما هو مرتبطٌ بالسعادة

وساعات المتعة. فعندما تسيطر عاطفةٌ عظيمةٌ على روح الإنسان، تختفي كلّ المشاعر الأخرى. لم ترتعد ليزلي مور أبدًا طوال حياتها برعبٍ لا يطاق من المستقبل مثل الآن، لكنّها مضت قدمًا بثباتٍ في المسار الذي اختارته كما سار الشهداء القدامى في طريقهم المختار، مدركين أنّ نهاية الأمر ستكون العذاب الشديد.

تمت تسوية مسألة المال بسهولةٍ أكبر ممّا كانت آن تخشى. اقترضت ليزلي المال اللازم من الكابتن جيم، وبناءً على إصرارها، أخذ المزرعة الصغيرة رهنًا.

قالت الآنسة كورنيليا لآن: "هذا همٌّ أُزيل عن ذهن الفتاة المسكينة وعن ذهني أيضًا. الآن، إذا كان ديك جيّدًا بما يكفي للعمل مرّةً أخرى، فسيكون قادرًا على كسب ما يكفي لدفع الفائدة على ذلك؛ وإذا لم يصبح بحالةٍ جيّدة، فأعرف أنّ الكابتن جيم سيدير ذلك بطريقةٍ ما دون أن يجعل ليزلي تدفع. أخبرني أنّه تقدّم في السن وأنّه لا يملك ولدًا، وأنّ ليزلي لن تأخذ هديّةً من رجلٍ حيّ، لكنّها ستأخذ هديّةً من رجلٍ ميّت. لذلك سيكون كلّ شيءٍ على ما يرام. أتمنّى أن تتمّ تسوية كلّ شيءٍ بشكلٍ مُرضٍ. أمّا بالنسبة إلى ديك البائس، فلقد كان مروّعًا في الأيّام القليلة الماضية. كان الشيطان يلبسه، صدّقيني! لم أستطع أنا وليزلي الاستمرار في عملنا بسبب الحيل التي كان يقوم بها. ذات يوم، طارد كلّ بطّها حول الفناء حتّى مات معظمه. ولم يكن ليفعل شيئًا واحدًا من أجلنا. في بعض الأحيان، كما تعلمين، كان مفيدًا جدًّا، حيث كان يجلب دلاءً من الماء والخشب. لكن هذا الأسبوع إذا أرسلناه إلى البئر، فسيحاول النزول إليه. فكّرت ذات مرّة، أنّه إذا أنزل رأسه أوّلًا، فستتمّ تسوية كلّ شيءٍ بطريقةٍ جيّدة.

"آنسة كورنيليا!"

"الآن، لستِ بحاجةٍ إلى أن تتفاجئي يا عزيزتي آن، كان أيّ شخصٍ

سيفكرّ بتلك الطريقة. إذا استطاع أطباء مونتريال أن يجعلوا من ديك مور مخلوقًا عاقلًا فستكون تلك أعجوبة."

أخذت ليزلي ديك إلى مونتريال في وقتٍ مبكر من شهر أيّار. ذهب جيلبرت معها لمساعدتها واتّخاذ الترتيبات اللازمة لها. عاد إلى المنزل بتقريرٍ مفاده أنّ جراح مونتريال الذي استشاروه اتّفق معه على أنّ هناك فرصةً جيّدة لتعافي ديك.

علّقت الآنسة كورنيليا بسخرية: "يا له من خبرٍ مريح!"

تنهّدت آن فقط، لم تكن ليزلي ودودةً عند افتراقهما.

لكنّها وعدت بمراسلة آن. وبعد عشرة أيّامٍ من عودة جيلبرت، وصلت رسالةٌ من ليزلي كتبت فيها أنّ العمليّة أجريت بنجاح وأنّ ديك كان يتعافى جيّدًا.

سألت آن: "ماذا تقصد بقولها بنجاح؟ هل تعني أنّ ديك قد استعاد ذاكرته حقًّا؟"

قال جيلبرت: "غير محتمل، لأنّها لم تقل شيئًا عن ذلك. إنّها تستخدم كلمة بنجاح من وجهة نظر الجرّاح. تمّ إجراء العمليّة وتبعتها نتائج طبيعيّة، ولكن من السابق لأوانه معرفة ما إذا كان ديك سيستعيد قدراته تدريجيًّا، بشكلٍ كليٍّ أو جزئيّ. من غير المرجّح أن تعود إليه ذاكرته دفعةً واحدة، بل ستكون العمليّة تدريجية إذا حدثت أصلًا. هل هذا كلّ ما كتبته؟"

"نعم إنّها رسالةٌ قصيرةٌ جدًّا. فتاةٌ مسكينة، لا بدّ أنّها تحت ضغطٍ رهيب. جيلبرت بلايث، هناك الكثير من الأمور التي أتوق لأقولها لك، لكنّها ستكون لئيمة."

قال جيلبرت بابتسامةٍ حزينة: "إن الآنسة كورنيليا تقولها عوضًا عنك، فهي توبّخني في كلّ مرّةٍ أواجهها، وتبيّن لي أنّها لا تعتبرني أحسن من المجرمين بكثير، وتعتقد أنّه من المؤسف جدًّا أنّ الطبيب

ديف قد سمح لي أن أعمل بدلًا عنه وأنجز مهامّه، كما أنّها أخبرتني أنّ الطبيب الميثودي فوق المرفأ كان يستحقّ ذلك أكثر منّي. إنّها تدين كلّ شيء."

قالت سوزان: "إذا كانت كورنيليا براينت مريضة، فلن تستدعي الطبيب ديف أو الطبيب الميثوديّ، بل كانت ستخرجك من سريرك الذي كسبته بشقّ الأنفس في منتصف الليل يا عزيزي الطبيب، وتخرجك من راحتك بسبب بؤسها، وبعد ذلك، على الأرجح، ستقول أنّ فاتورتك باهظة. لكن لا تهتمّ بها يا عزيزي الطبيب، فلا بدّ أن يكون في العالم جميع أنواع البشر ليصبح عالمًا."

لم تتفوّه ليزلي بأيّة كلمةٍ أخرى لبعض الوقت. تسلّلت أيّام أيّار في تتابعٍ جميل واخضرّت شواطئ ميناء فوروينذز وأزهرت. في أحد أيّام أواخر شهر أيّار، عاد جيلبرت إلى المنزل لتلتقي به سوزان في ساحة الإسطبل.

قالت بغموض: "أخشى أنّ شيئًا ما قد أزعج زوجتك يا عزيزي الطبيب. لقد تلقّت رسالةً بعد ظهر هذا اليوم، ومنذ ذلك الحين وهي تتجوّل في الحديقة وتتحدّث مع نفسها. أنت تعلم أنّه ليس من الجيّد لها أن تقف على قدميها كثيرًا يا عزيزي الطبيب. لم تكن ترى أنّه من المناسب إخباري ما كان في تلك الرسالة وأنا لستُ متطفّلة أو فضوليّةً يا عزيزي الطبيب، ولم أكن كذلك أبدًا، لكن من الواضح أنّ شيئًا ما أزعجها، والغضب يؤذي صحّتها."

سارع جيلبرت بقلقٍ إلى الحديقة. هل حدث مكروهٌ في المرتفعات الخضراء؟ لكنّ آن لم تكن تبدو مضطربة وهي جالسة على المقعد بجوار الجدول، رغم أنّها بالتأكيد كانت متحمّسة للغاية. كانت عيناها الرماديّتان تلمعان، وكان خدّاها قرمزيّان.

"ماذا حدث يا آن؟"

ضحكت آن بطريقةٍ غريبة.

"أعتقد أنّك بالكاد ستصدّق ذلك عندما أخبرك يا جيلبرت. لا زلت لا أصدّق ذلك. كما قالت سوزان في ذلك اليوم، أشعر وكأنّني ذبابةٌ قادمة للعيش في الشمس في حالة ذهول. كلّ هذا لا يصدّق، لقد قرأت الرسالة مرّاتٍ كثيرة وفي كلّ مرّةٍ كنت أقرأ الكلام نفسه. لا أصدّق عينيّ! آه يا جيلبرت، لقد كنت محقًّا. أستطيع أن أرى ذلك بوضوحٍ كافٍ الآن، وأنا أشعر بالخجل الشديد من نفسي. هل ستسامحني حقًّا؟"

"آن، سأهزّك إذا لم تتماسكي، وستخجل ريدموند منكِ. ماذا حدث؟"

"لن تصدّق، لن تصدّق ذلك."

قال جيلبرت متظاهرًا أنه سيذهب: "أنا ذاهبٌ للاتصال بالعمّ ديف."

"اجلس يا جيلبرت، سأحاول إخبارك. لقد تلقّيت رسالة، وآه يا جيلبرت، إنها

مذهلة، مذهلةٌ بشكلٍ لا يصدّق. لم نفكّر أبدًا، لم يحلم أحدٌ منّا مطلقًا بهذا."

قال جيلبرت وهو يجلس بهدوء: "أفترض أنّ الشيء الوحيد الذي يجب فعله في حالةٍ مثل هذه هو التحلّي بالصبر والتعامل مع الأمر بطريقةٍ مباشرة. من الذي أرسل لكِ؟"

"ليزلي، وآه يا جيلبرت..."

"ليزلي! يا للعجب! ماذا كتبت؟ ما الأخبار عن ديك؟"

حملت آن الرسالة ورفعتها، بهدوءٍ دراميّ في لحظة.

"لا وجود لِديك! الرجل الذي اعتقدنا أنّه ديك مور، والذي اعتقد الجميع في فوروينذز أنّه ديك مور لمدّة اثني عشر عامًا، هو ابن عمّه

جورج مور، من نوفا سكوشا، والذي يبدو أنّه لطالما كان يشبهه بشكلٍ لافتٍ للغاية. مات ديك مور من الحمّى الصفراء قبل ثلاثة عشر عامًا في كوبا."

***

32
الآنسة كورنليا تناقش القضية



" وهل تقصدين إخباري يا عزيزتي آن أنّه اتضّح لكم أنّ ديك مور ليس ديك مور أبدًا ولكنه شخصًا آخر؟ هل هذا هو السبب الذي اتصلتِ بي اليوم من أجله؟"

"نعم يا آنسة كورنيليا. إنّه أمر مذهلٌ للغاية، أليس كذلك؟"

قالت الآنسة كورنيليا بلا حولٍ ولا قوّة: "إنّه تمامًا مثل الرجال." خلعت قبّعتها بأصابعها المرتجفة، لمرّةٍ واحدةٍ في حياتها كانت الآنسة كورنيليا مندهشةً بلا شكّ.

قالت: "يبدو أنّني لا أستطيع فهم ذلك يا آن. لقد سمعتك تقولين ذلك، وأنا أصدّقك لكن لا يمكنني تقبّل الأمر. مات ديك مور، لقد كان ميتًا طوال هذه السنوات، وليزلي حرّة؟"

قالت آن: "نعم، لقد حرّرتها الحقيقة. كان جيلبرت محقًّا عندما قال أنّ هذه الآية هي أعظم آيةٍ في الإنجيل."

"أخبريني بكلّ التفاصيل يا عزيزتي آن. منذ مكالمتكِ وذهني مشوّشٌ صدّقيني." لم تكن كورنيليا برواينت أبدًا مندهشةً هكذا من قبل.

"ليس هناك الكثير لقوله، فلقد كانت رسالة ليزلي قصيرة ولم تخض

في التفاصيل. استعاد هذا الرجل جورج مور ذاكرته وأصبح يعرف هويّته. يقول إنّ ديك أصيب بالحمّى الصفراء في كوبا، وكان على سفينة فور سيستيرز الإبحار بدونه، وبقي جورج هناك ليعتني به، لكنّه توفيّ بعد ذلك بوقتٍ قصيرٍ جدًّا.

"لم يكتب جورج لِليزلي لأنّه كان ينوي العودة إلى المنزل وإخبارها بنفسه."

"ولماذا لم يفعل؟"

"أفترض أنّ حادثه كان السبب. يقول جيلبرت إنّه من المحتمل جدًّا أنّ جورج مور لا يتذكّر شيئًا عن الحادث أو عما أدّى إليه، وقد لا يتذكّره أبدًا. ربّما حدث بعد وقتٍ قصيرٍ جدًّا من وفاة ديك. قد نكتشف المزيد من التفاصيل عندما تكتب ليزلي مرّةً ثانية."

"هل قالت ماذا ستفعل؟ متى ستعود إلى المنزل؟"

"قالت إنّها ستبقى مع جورج مور حتّى يتمكّن من مغادرة المستشفى. لقد كتبت إلى أقاربه في نوفا سكوشا. يبدو أنّ قريب جورج الوحيد هي أختٌ متزوّجةٌ أكبر منه بكثير، كانت على قيد الحياة عندما أبحر جورج في فور سيستيرز، لكنّنا بالطبع لا نعرف ماذا حدث منذ ذلك الحين. هل رأيتِ جورج مور يا آنسة كورنيليا؟"

"نعم لقد رأيته، بدأت أتذكّر كلّ شيء. لقد كان هنا يزور عمّه أبنر قبل ثمانية عشر عامًا، عندما كان هو وديك يبلغان من العمر سبعة عشر عامًا تقريبًا. لقد كانا أبناء عمٍّ وأبناء خالة، فقد كان والداهما أخوين وكانت والدتاهما أختين توأمين، وقد بدا الاثنان متشابهَين بشكلٍ رهيب." أضافت الآنسة كورنيليا بازدراء: "بالطبع لم يكن الشبه بينهما شبهًا غريبًا كالذي تقرأين عنه في الروايات حيث يتشابه شخصان إلى حدٍّ كبيرٍ لدرجة أنّ أحدهما يستطيع أن يحلّ مكان الآخر أو ألّا يستطيع الأقارب والأعزاء التمييز بينهما،

بـل فـي تلـك الأيّـام كان بإمكانـكِ أن تدركـي بسـهولةٍ أيّهمـا جـورج وأيّهمـا ديـك، إذا رأيتهمـا معًـا وعن قـرب، لكن يصعـب تمييزهما إن كانـا بعيدَيـن. لقـد قامـا بالكثيـر مـن الحيل علـى النـاس واعتقـدا أنّ الأمـر ممتـعٌ للغايـة، كانا شـقيّين. كان جورج مـور أطول قليـلًا وأكثر بدانـةً مـن ديـك علـى الرغم مـن أنّ لم يكـن أيٌّ منهمـا بدينًـا، بل كان كلاهمـا هزيـل. كان لـون بشـرة ديـك أغمـق مـن لـون بشـرة جورج، وكان شـعره أفتـح بقليـل، لكـن كانـا متشـابهين تمامًـا فـي الملامـح، وكان لـدى كلاهمـا عينيـن غريبتين، واحـدة زرقاء والأخرى عسـليّة. لـم يكونـا متشـابهين كثيرًا فـي أيّ طريقةٍ أخـرى. كان جورج شـخصًا لطيفًـا حقًّـا، علـى الرغـم من أنّـه كان وغـدًا بسـبب الأذى الـذي كان يسـبّبه، وقـال البعـض إنـه كان يحب الشـرب حتـى في ذلـك الوقت. لكنّ الجميع أحبّه أكثر من ديك.

أمضى قرابة شهر هنا، لكنّ ليزلي لم تره قطّ، فلقد كانت في الثامنة أو التاسعة من عمرها فقط وأتذكّر الآن أنّها أمضت ذلك الشتاء كلّه على المرفأ مع جدّتها ويست. كان الكابتن جيم بعيدًا أيضًا، وكان هذا هو الشتاء الذي كان فيه محطّمًا بسبب مجدالينز. لا أفترض أنّه أو ليزلي قد سمعا عن ابن عمٍّ من نوفا سكوشا يشبه ديك كثيرًا.

لم يفكّر فيه أحدٌ قطّ عندما أحضر الكابتن جيم ديك، أو يجب أن أقول جورج إلى المنزل. بالطبع، اعتقدنا جميعًا أنّ ديك قد تغيّر بشكلٍ كبير فقد أصبح كسولًا وبدينًا للغاية. لكنّنا نعزو ذلك إلى ما حدث له، ولا شكّ في أنّ هذا هو السبب، فكما قلت، لم يكن جورج سمينًا في البداية أيضًا. ولم تكن هناك طريقةٌ أخرى يمكن أن نخمّنها، لأنّ الرجل فقد صوابه كليًّا.

لا أستطيع أن أرى أنّه لا عجب في أنّنا جميعًا خدعنا، لكنّه أمرٌ مذهل. وقد ضحّت ليزلي بأفضل سنوات حياتها من أجل الاعتناء

برجلٍ لم يفعل لها أيّ جميلٍ! آه، تبًّا للرجال! بغضّ النظر عمّا يفعلونه، يكون ما فعلوه أمرًا خاطئًا، وبغضّ النظر عن هويّتهم، يكونون الأشخاص الخطأ. إنّهم يثيرون غضبي."

قالت آن: "جيلبرت والكابتن جيم رجال، وبفضلهما عرفنا الحقيقة أخيرًا."

اعترفت الآنسة كورنيليا على مضض: "حسنًا، أعترف بذلك، أنا آسفة لأنّني انتقدت الطبيب، إنّها المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بالخجل من كلامٍ قلته لرجل. لكنّني لا أعرف كيف سأخبره بذلك، ينبغي أن يدرك ذلك بنفسه. حسنًا، عزيزتي آن، إنّها رحمةٌ من الربّ ألا يستجيب لجميع صلواتنا. لقد كنت أصلّي بشدّة طوال الوقت ألا تنجح عمليّة ديك. بالطبع لم أقل ذلك بوضوح، ولكن هذا ما كان في ذهني، ولا شك في أنّ الربّ يعرف ما في أذهاننا."

"حسنًا، لقد استجاب لما في قلبك، فلقد تمنّيتِ حقًّا ألا تزداد صعوبة الأمور على ليزلي. أخشى أنّني كنت أتمنى سرًا في قلبي ألّا تنجح العمليّة، وأنا أشعر بالخجل الشديد من ذلك."

"كيف تبدو ليزلي بعدما حدث؟"

"إنّها تكتب كامرأةٍ في حالة ذهول. أعتقد أنها مثلنا، بالكاد تفهم ذلك حتى الآن. تقول أنّ كلّ شيءٍ يبدو وكأنّه حلمٌ غريبٌ بالنسبة إليها. هذا هو الأمر الوحيد الذي قالته عن نفسها."

"فتاةٌ مسكينة! أعتقد أنّه عندما تُزال السلاسل عن السجين، يشعر بالغرابة ويضيع بدونها لفترةٍ من الوقت. عزيزتي آن، ما زلتُ أفكّر بأمرٍ ما. ماذا عن أوين فورد؟ كلانا يعرف أنّ ليزلي كانت مغرمةً به. هل فكّرتِ يومًا أنّه ربّما مولّعٌ بها؟

اعترفت آن وهي تشعر بأنها قد تقول الكثير: "لقد فكّرتُ في ذلك ذات مرّة."

"حسنًا، لم يكن هناك أيّ سببٍ يجعلني أعتقد أنّه مغرمٌ بها، ولكن بدا لي أنّه يجب أن يكون كذلك. الآن يا عزيزتي آن، الله يعلم أنّني لست وسيطة زواج، وأحتقر كلّ هذه الأعمال، لكن لو كنت مكانك وأكتب إلى ذلك الرجل فورد، لكنتُ ذكرتُ له ما حدث بطريقةٍ عاديّة."

قالت آن غير مهتمّةٍ لكلام الآنسة كورنيليا: "بالطبع سأذكر ذلك عندما أكتب له." بطريقةٍ ما، كان هذا أمرًا لا يمكنها مناقشته مع الآنسة كورنيليا. ومع ذلك، كان عليها أن تعترف بأنّ نفس الفكرة كانت تجوب في ذهنها منذ أن سمعت عن حريّة ليزلي، لكنّها لن تدنّسها بحريّة التعبير.

"بالطبع لا داعي للاستعجال يا عزيزتي، لكنّ ديك مور مات منذ ثلاثة عشر عامًا وقد أهدرت ليزلي ما يكفي من حياتها من أجله، سنرى فقط ما سيحدث. أمّا بالنسبة لجورج مور هذا، الذي ذهب وعاد إلى الحياة عندما اعتقد الجميع أنّه مات، فأنا أشعر بالأسف عليه حقًّا، يبدو أنّه لن يتأقلم في أيّ مكان."

"إنّه لا يزال شابًا، وإذا تعافى تمامًا كما هو مرجّح، فسيكون قادرًا على توفير مكانٍ لنفسه مرّةً أخرى. لا بدّ أنّ الأمر غريبٌ جدًّا بالنسبة إليه. يا له من مسكين. أعتقد أنّه لا يتذكّر أيًّا من تلك السنوات التي مرّت منذ تعرّضه للحادث."

***

33
عودة ليزلي



بعد أسبوعين، عادت ليزلي مور وحدها إلى المنزل القديم حيث أمضت الكثير من السنوات المريرة. ومع ظهور شفق حزيران، ذهبت عبر الحقول إلى مزرعة آن، وظهرت فجأةً مثل الأشباح في الحديقة العطرة.

صرخت آن في دهشة: "ليزلي! من أين أتيتِ؟ لم نكن نعلم أنّكِ قادمة. لماذا لم تكتبي لنا؟ كنّا التقينا بك."

"بطريقةٍ ما، لم أستطع الكتابة يا آن. بدت محاولة قول أيّ شيءٍ بالقلم والحبر غير مجدية، وأردت أن أعود بهدوءٍ ودون أن يلاحظ أحد."

وضعت آن ذراعيها حول ليزلي وقبّلتها، فقبّلتها ليزلي. بدت شاحبةً ومتعبة، وتنهّدت قليلًا وهي ترمي بنفسها على العشب بجانب سريرٍ كبيرٍ من أزهار النرجس البريّ التي كانت تتلألأ تحت الشفق الفضيّ الباهت كالنجوم الذهبيّة.

"وهل عدتِ إلى المنزل وحدك يا ليزلي؟"

"نعم. جاءت أخت جورج مور إلى مونتريال وأخذته معها إلى

المنزل. كان المسكين يشعر بالأسف لفراقي رغم أنني كنت غريبةً عنه عندما عادت ذاكرته لأوّل مرّة. لقد تعلّق بي في تلك الأيّام الصعبة الأولى عندما كان يحاول أن يدرك أنّ موت ديك لم يحدث بالأمس كما بدا له. كان الأمر صعبًا للغاية بالنّسبة إليه ولقد ساعدته قدر ما استطعت. كان الأمر أسهل بالنسبة إليه عندما جاءت أخته، فلقد بدا له أنّ آخر مرّةٍ كان قد رآها فيه كانت منذ أيّامٍ فقط. ولحسن الحظ لم تتغيّر كثيرًا، فلقد ساعده ذلك أيضًا."

"كلّ ما حدث غريبٌ ورائع يا ليزلي، أعتقد أنّ لا أحد منّا استوعب ذلك حتّى الآن."

"نعم، لا أستطيع ذلك. عندما دخلتُ إلى المنزل منذ ساعة، شعرتُ أنّه لا بدّ أن يكون هذا حلمًا، لا بدّ أن يكون ديك هناك بابتسامته الطفوليّة، كما كان لفترةٍ طويلة. آن، أظنّ أنني ما زلت مذهولة. لست سعيدةً أو آسفة، لا أشعر سوى كما لو أنّ شيئًا ما قد تمزّق فجأةً من حياتي وترك فجوةً رهيبة.

أشعر كما لو أنّني لا أستطيع أن أكون نفسي، كما لو كنت قد تحوّلت إلى شخصٍ آخر، ولم أستطع التعوّد على ما حصل. إنّني أشعر بالوحدة بشكلٍ رهيب، وبالدوار، والعجز.

من الجيّد رؤيتك مرّةً أخرى تبدين كما لو كنتِ منقذتي. آه يا آن، أنا خائفة من القيل والقال والأسئلة. عندما أفكّر في ذلك، أتمنّى ألّا أكون بحاجةٍ إلى العودة إلى المنزل على الإطلاق.

كان الطبيب ديف في المحطّة عندما خرجتُ من القطار وأعادني إلى المنزل. المسكين يشعر بسوءٍ شديدٍ لأنّه أخبرني منذ سنواتٍ أنّه لا يمكن فعل شيءٍ من أجل ديك. قال لي اليوم: "لقد اعتقدت ذلك بصدقٍ يا ليزلي، لكن كان يجب أن أخبركِ ألّا تعتمدي على رأيي. كان يجب أن أطلب منك الذهاب إلى أخصائيّ. لو كنتُ قد فعلتُ ذلك،

لكنت قد أنقذتكِ من سنواتٍ مريرةٍ كثيرة، ولكنتُ قد أنقذتُ جورج مور المسكين من إهدار الكثير من السنوات. ألوم نفسي كثيرًا يا ليزلي."
أخبرته ألّا يفعل ذلك، فلقد فعل ما اعتقد أنّه صائب. لقد كان دائمًا لطيفًا معي، ولم أستطع تحمّل رؤيته قلقًا بشأن ذلك."

"وماذا عن ديك؟ أقصد جورج. هل استعاد ذاكرته بالكامل؟"

"عمليًّا نعم. بالطبع هناك الكثير من التفاصيل التي لا يمكنه تذكّرها حتّى الآن، لكنّه يتذكر المزيد والمزيد كلّ يوم. خرج ليمشي في المساء بعد دفن ديك. كان يملك أموال ديك وكان يعتني به. كان ينوي إعادة الأموال إليّ، بالإضافة إلى رسالتي. يعترف بأنّه ذهب إلى مكانٍ كان البحارة يتردّدون إليه ويتذكّر الشرب ولا شيء آخر. لن أنسى أبدًا يا آن اللحظة التي تذكّر فيها اسمه. رأيته ينظر إليّ بذكاء ولكن بحيرةٍ أيضًا فقلت: "هل تعرفني يا ديك؟" أجابني: "لم أرَكِ من قبل. من أنتِ؟ اسمي ليس ديك. أنا جورج مور، وتوفيّ ديك بالأمس من الحمّى الصفراء! أين أنا؟ ماذا حدث لي؟" أغميَ عليّ يا آن. ومنذ ذلك الحين شعرت وكأنّني في حلم."

"سوف تتكيّفين قريبًا مع هذه الحالة الجديدة يا ليزلي. وأنت شابّة والحياة أمامكِ، ستكون لديكِ الكثير من السنوات الجميلة."

"ربّما سأتمكن من النظر إلى الأمر بهذه الطريقة بعد فترة يا آن. الآن أشعر بأنّني متعبةٌ للغاية وغير مبالية للتفكير في المستقبل. أنا يا آن، أنا وحيدةٌ وأفتقد ديك.

أليس هذا غريبًا جدًّا؟ أتعلمين، لقد كنت متعلّقةً حقًّا بالمسكين ديك، أفترض أنّني يجب أن أقول جورج وليس ديك، لقد تعلّقت به تمامًا كما كنت سأتعلّق بطفلٍ عاجزٍ يعتمد عليّ في كلّ شيء.

لم أعترف بذلك أبدًا، لقد شعرت بالخجل حقًّا لأنّني كما ترين كنت قد كرهت ديك واحتقرتُه كثيرًا قبل رحيله. وعندما سمعتُ أنّ

الكابتن جيم سيعيده إلى المنزل، توقّعت أنّني سأشعر بالشعور نفسه معه، لكنّ ذلك لم يحدث قطّ رغم أنّني واصلت بغضه عندما كنت أتذكّر كيف كان يعاملني قبل رحيله. منذ أن عاد إلى المنزل شعرت بالشفقة فقط، وكنت أتأذى وأغضب كلّما شعرت بها. افترضت حينها أنّ السبب هو أنّ الحادث الذي تعرّض له جعله عاجزًا للغاية لذلك تغيّر. لكنّني أعتقد الآن أنّ السبب في ذلك هو وجود شخصيّةٍ مختلفةٍ حقًّا. عرف كارلو ذلك يا آن، أعرف الآن أنّ كارلو عرف ذلك.

لطالما اعتقدت أنّه من الغريب ألّا يعرف كارلو ديك، فعادةً ما تكون الكلاب مخلصةً جدًّا. لكنّه علم أنّه لم يكن سيّده الذي عاد، على الرغم من أنّه لم يدرك أحدٌ منّا ذلك. كما تعلمين، لم أرَ جورج مور قطّ. أتذكّر الآن أنّ ديك ذكر مرّةً أنّ له قريبًا في نوفا سكوشا يشبهه كثيرًا كأنّه توأمه، لكنّني كنت قد نسيت هذا الحديث، وعلى أيّ حال لم أكن لأظنّ أنّه ذو أهميّة. كما ترين، لم يخطر ببالي أبدًا أن أتساءل عن هويّة ديك، فقد بدا لي أنّ أيّ تغييرٍ فيه كان نتيجةً للحادث لا أكثر.

آه يا آن، لا يمكنني أن أنسى أبدًا تلك الليلة في شهر نيسان التي أخبرني جيلبرت فيها أنّه يعتقد أنّ ديك قد يُعالَج! بدا لي أنّني كنت سجينةً في قفص تعذيبٍ بشع، ثمّ فُتح واستطعت الخروج منه. كنت ما زلت مقيّدةً بالسلاسل إلى القفص لكنّني لم أكن فيه. وفي تلك الليلة شعرت أنّ يدًا لا ترحم كانت تشدّني إلى القفص للعودة إلى تعذيبٍ أكثر فظاعةً من السابق. لم ألُم جيلبرت، لأنّني شعرت أنّه كان على حقّ، وكان لطيفًا جدًّا معي فلقد قال إنّه إذا قرّرتُ عدم المخاطرة بالعمليّة نظرًا لتكلفتها وعدم التأكد من نجاحها، فلن يلومني على الأقل. لكنّني عرفت كيف يجب أن أقرّر ولم أستطع مواجهة الأمر. كنت أمشي طوال الليل مثل امرأةٍ مجنونة، محاولةً إجبار نفسي على مواجهة الواقع. لم أستطع يا آن، اعتقدت أنّني لم أستطع. وعندما طلع

الفجر، قرّرت ألا أترك الوضع كما هو عليه. وأعلم أنّ هذا كان خُبثًا منّي. كنتُ سأنال عقابًا على خبثي لو كنت قد التزمتُ بذلك القرار. لم أغيّر رأيي طوال ذلك اليوم، لكن بعد ظهر ذلك اليوم، كان عليّ أن أصعد إلى غلين لأتسوّق قليلًا. لقد كان ذلك أحد الأيام التي يكون فيها ديك هادئًا ونعسانًا، لذلك تركته بمفرده. لقد ذهبت لوقتٍ أطول قليلًا ممّا كنت أتوقّعه، فاشتاق ديك إليّ وشعر بالوحدة.

وعندما وصلتُ إلى المنزل، ركض للقائي تمامًا كطفلٍ صغير، مع ابتسامةٍ سعيدةٍ على وجهه. بطريقةٍ ما يا آن، تراجعت عن قراري بعد ما حدث. لم أستطع تحمّل تلك الابتسامة على وجهه المسكين البريء. شعرت وكأنّني أحرم طفلًا من فرصة النّمو والتطوّر. كنت أعلم أنّني يجب أن أمنحه فرصته مهما كانت العواقب، لذلك جئتُ وأخبرت جيلبرت. آه يا آن، لا بدّ أنّكِ ظننت أنّني كرهتك في تلك الأسابيع قبل رحيلي. لم أقصد أن أتصرّف معك بتلك الطريقة، لكنني لم أستطع التفكير في أيّ شيءٍ باستثناء ما كان عليّ فعله، ولم أكن أرَ أمامي أيّ شيءٍ أو أيّ شخص."

"أعلم يا ليزلي، فهمتُ ذلك. والآن انتهى كلّ شيء، انكسرت السلسلة، ولم يعد هناك قفص."

كرّرت ليزلي بتأمّلٍ وهي تقتلع الحشائش بيديها السمراوتين النحيفتين: "لا يوجد قفص، لكن، لا يبدو كما لو كان هناك أيّ شيءٍ آخر يا آن. هل تتذكّرين ما قلته لكِ عن حماقتي تلك الليلة على الحاجز الرمليّ؟ أجد أنّ المرء لا يتغلّب على كونه أحمقًا بسرعةٍ كبيرة. أعتقد أحيانًا أنّ هناك أشخاصًا يبقون حمقى إلى الأبد، وأن يكون المرء أحمقًا من هذا النوع، يكاد يكون بمثل سوء كونه كلبًا في سلسلة."

كانت آن تعلم أمرًا معيّنًا لم تكن ليزلي تعرفه، ولم تشعر بأنّها مجبرةٌ على إهدار الكثير من التعاطف فقالت: "سيكون شعورك مختلفًا تمامًا

بعد أن تتخطيّ التعب والحيرة."

وضعت ليزلي شعرها الذهبيّ الرائع على ركبة آن.

قالت: "على أيّة حال، أنتِ معي، لا يمكن للحياة أن تكون بلا معنى تمامًا مع صديقةٍ مثلك. ربّتي على رأسي يا آن تمامًا كما لو كنت فتاةً صغيرةً، عامليني كأنّكِ أمّي واسمحي لي أن أفكّ لساني العنيد لأخبركِ قليلًا عما عنت لي صداقتنا منذ تلك الليلة التي قابلتك فيها على الشاطئ الصخريّ."

***

34
وصول سفينة الأحلام إلى الميناء



ذات

صباح، كان شروق شمس ذهبي عاصف يتصاعد فوق الخليج مخلّفًا موجات من الضوء، وطائر اللقلق المرهق يحلّق فوق حانة ميناء فوروينذز في طريقه من أرض نجوم المساء. وتحت جناحه، كان مخلوقًا صغيرًا نائمًا ذا عينين مرصعة بالنجوم. كان اللقلق متعبًا، ونظر إليه بحزن... كان يعلم أنه كان في مكانٍ ما بالقرب من وجهته، لكنه لم يستطع رؤيته بعد.

كان لبيت الضوء الأبيض الكبير الواقع على جرف الحجر الرملي الأحمر مزايا خلّابة، ولكن ما من طائر لقلقٍ مسؤولٍ نبيه كان ليترك طفلًا حديث الولادة هناك. بدا المنزل الرمادي القديم المحاط بالصفصاف في وادي نهر الزهرة واعدًا أكثر، لكنه لم يكن يبدو كذلك تمامًا بالنسبة له. أما المسكن الأخضر الذي بعده، فمن الواضح أنه غير واردٍ له على الإطلاق.

ثم أشرق وميض نورٍ للّقلق. لقد رأى المكان ذاته، منزل أبيض صغير يقع بين أغصان غابةٍ هادئة، مع دوامة من الدخان تتصاعد من مدخنة مطبخه، بدا وكأنه مخصصًا للأطفال الرضع. تنفس اللقلق

الصعداء، ونزل بهدوءٍ نحوه.

بعد نصف ساعة، ركض جيلبرت في القاعة طارقًا باب الغرفة الاحتياطية بقوّة. أجابه صوت نعس، فقال: "ماريلا، لقد أرسلتني آن لأخبرك أن رجلًا صغيرًا قد وصل إلى الحياة. لم يجلب معه الكثير من الأمتعة، لكن من الواضح أنه يقصد البقاء."

وفي لحظةٍ اعترت علامات الخوف وجه ماريلا الشاحب من خلف الباب.

قالت ماريلا بصراحة: "بحق السماء!! أنت لا تقصد أن تخبرني أن كل شيء تمّ يا جيلبرت. لماذا لم تنادوني؟"

"لم تسمح لنا آن بإزعاجك عندما لا تكون هناك حاجة لذلك، ولم يتم استدعاء أحد إلا منذ حوالي ساعتين. لم يكن هناك أي خطرٍ يهدده هذه المرة."

"و... و... جيلبرت!! هل سيعيش هذا الطفل؟"

"بالتأكيد سيفعل. إنه يزن عشرة أرطال، و... استمعت إلى أنفاسه، لا بأس في رئتيه، تقول الممرضة أن شعره سيكون أحمر، وآن غاضبة منها، أما أنا فالدهشة تعتريني من رأسي حتى أخمص قدماي."

كان ذلك يومًا رائعًا في بيت الأحلام الصغير.

قالت آن شاحبة ومفعمة بالحيوية: "لقد تحقق أفضل حلم على الإطلاق. آه يا ماريلا، بالكاد أجرؤ على تصديق ذلك بعد ذلك اليوم الرهيب في الصيف الماضي. كنت أعاني من وجع قلب منذ ذلك الحين، لكنه ذهب الآن."

قالت ماريلا: "هذا الطفل سيحل مكان جوي."

"أوه، لا، لا، لا يا ماريلا. لا يمكن ذلك أبدًا، لا شيء يمكن أن يحلّ مكان جوي. لديها مكانها الخاص عزيزتي وطفلتي الصغيرة. كانت قد عاشت لأكثر من عام. كانت تتجول على قدميها الصغيرتين وتلتقط

بضع كلمات. يمكنني رؤيتها بوضوحٍ أمامي الآن يا ماريلا. أوه، أعلم الآن أن الكابتن جيم كان على حق عندما قال إن الله سيدبر الأمور بشكل أفضل من أن تغدو طفلتي أغرب بالنسبة لي عندما أضع مولودي الذي بعدها. لقد تعلمت ذلك في العام الماضي. لقد تابعت تطورها يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع، وسأفعل ذلك دائمًا. سأعرف فقط كيف تنمو من سنة إلى أخرى، وعندما أقابلها مرة أخرى سأعرفها، لن تكون غريبة. آه ماريلا، انظري إلى أصابع قدميه اللطيفة! أليس من الغريب أن شكلهما هكذا؟"

قالت ماريلا بحدة: "سيكون الأمر غريبًا لو لم تكن كذلك."

بعد أن انتهى كل شيء بأمان، عادت ماريلا إلى هدوئها مرة أخرى.

"أو، أعلم! لكن يبدو كما لو أنه لا يمكن تشطيبها تمامًا، كما تعلمون... هم كذلك، حتى أظافرهم الصغيرة. ويديه، أوه انظري فقط إلى يديه يا ماريلا."

اعترفت ماريلا: "تبدو وكأنها يد خيرٍ علينا يا عزيزتي."

"انظرِ كيف يمسك بإصبعي! أنا متأكدة من أنه يعرفني بالفعل. فهو يبكي عندما تأخذه الممرضة بعيدًا. آه يا ماريلا، هل تعتقدين... حسنًا أنت لا تعتقدين، أليس كذلك... أنت لا تعتقدين أن شعره سوف يكون أحمر!!!"

قالت ماريلا: "لا أرى الكثير من الشعر من أي لون الآن، لو كنت مكانك، ما كنت لأقلق بشأن ذلك حتى يظهر عليه."

"ماريلا! لديه شعر، انظري إلى تلك الخصلة الصغيرة على رأسه. على أي حال، تقول الممرضة أن عينيه ستكونان عسليتين ووجهه مثل وجه جيلبرت تمامًا."

قالت سوزان: "ولديه ألطف أذنان صغيرتان يا سيدتي العزيزة، أول شيء فعلته هو النظر إلى أذنيه. الشعر مخادع والأنوف والعينان، كلّها

أمور تتغير، ولا يمكنك معرفة ما ستصبح عليه لاحقًا، لكن الأذنين هي الأذنين من البداية إلى النهاية. فقط انظري إلى شكلهما خلف رأسه اللطيف. لن تحتاجي أبدًا إلى أن تخجلي من أذنيه يا سيدتي العزيزة."

كانت فترة راحة آن بعد ولادتها سريعة وسعيدة. جاء الناس وجلّلوا الطفل اللطيف، فقد انحنى الناس أمام مُلك المولود الجديد منذ فترة طويلة قبل أن يركع حكماء الشرق إجلالًا للفتاة الملكية لمذود بيت لحم. حيث وجدت ليزلي نفسها وسط الظروف الجديدة في حياتها، وحلّقت فوقها مثل مادونا الجميلة ذات التاج الذهبي. رعتها الآنسة كورنيليا بمهارة مثل أي أم في إسرائيل. أمسك الكابتن جيم المخلوق الصغير في يديه البنيتين الكبيرتين وحدق فيه بحنان، بعيون رأت طفلًا مميزًا لم يولد مثله من قبل.

سألت الآنسة كورنيليا: "ماذا ستسميانه؟"

أجاب جيلبرت: "لقد اختارت آن اسمًا له بالفعل."

قالت آن بنظرة بذيئة على جيلبرت: "جيمس ماثيو، نسبةً لأفضل رجلين عرفتهما."

ابتسم جيلبرت.

"لم أكن أعرف ماثيو جيدًا، لقد كان خجولًا جدًا فلم نتمكن نحن الأولاد من التعرف عليه، لكنني أتفق معك تمامًا في أن الكابتن جيم هو أحد أندر وأرقى الأرواح التي خلقها الله. إنه مسرور جدًا لحقيقة أننا أطلقنا اسمه على فتانا الصغير، إنه يليق به بشدّة."

قالت الآنسة كورنيليا: "يبدو جيمس ماثيو كاسمٍ سوف يخلّد في التاريخ ولن يُنسى بسهولة. أنا سعيدة لأنك لم تطلقي عليه أحد تلك الأسماء الرومانسية المستجدة التي سيخجل منها عندما يكبر. وقد اتصلت السيدة ويليام درو في غلين لتخبرنا بمجيء طفلتها بيرتي شكسبير. إنه رائع، أليس كذلك؟ وأنا سعيدة لأنك لم تواجهي الكثير

من المشاكل في اختيار الاسم. يمرّ بعض الناس بوقتٍ عصيب في هذه المرحلة. فعندما وُلد أول ولد لستانلي فلاجز، دارت الكثير من المناقشات حول تسمية الطفل، وكان على الروح الصغيرة المسكينة أن تنتظر لمدة عامين بدون اسم. ثم جاء الأخ الأكبر "الطفل الكبير" ونادى الآخر بالـ "الطفل الصغير." فأخيرًا، أطلقوا اسم "بيتر الطفل الكبير" و "إسحاق الطفل الصغير"، على اسم الجدين، وقاموا بتعميدهما معًا. وحاول كل منهما معرفة ما إذا كان لا يمكن أن يعوي الآخر. أتعرفين أن عائلة ماكنابس من غلين لديهم اثنا عشر صبيًا؟ وكلاهما أكبرهم وأصغرهم يدعى نيل، نيل الكبير ونيل الصغير في نفس العائلة."

ضحكت آن قائلة: "لقد قرأت في مكان ما أن الطفل الأول هو قصيدة ولكن العاشر هو نثر مبتذل للغاية. ربما اعتقدت السيدة ماكناب أن إنجاب اثني عشر طفلًا كان مجرد قصة قديمة أعيد سردها."

قالت الآنسة كورنيليا بحسرة: "حسنًا، هناك شيء يمكن قوله للعائلات الكبيرة مثلهم. لقد كنت طفلة وحيدة لمدة ثماني سنوات وأمضيت وقتًا طويلًا أدعو لأحصل على أخ وأخت. طلبت مني أمي أن أصلي من أجل أحدهما وأدعو له دون أن أراه، صدقوني. حسنًا، ذات يوم أتت إلي العمة نيلي وقالت " كورنيليا، يوجد أخ صغير لك في الطابق العلوي في غرفة أمك. يمكنك الصعود لرؤيته." كنت متحمسة للغاية وسعيدة وذهبت بأقصى سرعتي إلى الطابق العلوي. ورفعت السيدة فلاغ العجوز الطفل لي لأراه. يا إلهي يا عزيزتي آن، لم أشعر بخيبة أمل أبدًا كهذه. كما ترين، كنت أصلي من أجل شقيقي الذي يصغرني بعامين."

سألت آن وسط ضحكتها: "كم من الوقت استغرقتِ للتغلب على خيبة الأمل هذه؟"

"حسنًا، كان لدي غلٌّ تجاه هذا القدر الذي لقيته، قضيت أسابيع لم

أكن حتى أستطيع النظر إلى الطفل. ولم يكن أحد يعرف السبب لأنني لم أخبر ذلك أبدًا. ثم بدأ يصبح لطيفًا حقًا وبتّ أنظر إليه وهو يمدّ يديه تجاهي بلطف. لكنني لم أتصالح معه حقًا حتى جاء أحد أصدقاء المدرسة لرؤيته ذات يوم وقالت إنها تعتقد أنه صغير جدًا بالنسبة لعمره. لقد أصبت بالغليان للتو، فنظرت إليها مباشرة وأخبرتها أنها لا تعرف ما تعنيه اللطافة للطفل، وأن طفلنا أجمل طفل في العالم. وبعد ذلك وجدت نفسي مغرمةٌ به. وماتت أمي قبل أن يبلغ من العمر ثلاث سنوات وكنت أنا الرفيقة والأخت والأم له على حد سواء.

يا للفتى الصغير المسكين، لم يكن قويًا أبدًا، ومات وهو لم يتجاوز العشرين من عمره. كنت مستعدةً لأضحي بأي شيءٍ من أجل أن يعيش فقط يا آن..."

أطلقت الآنسة كورنيليا تنهيدةً عميقة بعد حديثها. كان جيلبرت قد نزل، أما ليزلي، التي كانت تلقي الآيات على جيمس ماثيو الصغير وهي تحمله قبالة النافذة، فوضعته نائمًا في سلته وذهبت في طريقها. بمجرد أن خرجت بأمان من مرمى السمع، انحنت الآنسة كورنيليا وقالت في همسة المتآمر:

"عزيزتي آن، لديّ رسالة من أوين فورد أمس. إنه في فانكوفر الآن، لكنه يريد أن يعرف ما إذا كان بإمكاني أن أستقبله في نُزُلي لمدة شهر لاحقًا. أنت تعرفين ما يعني ذلك، آمل أن يكون ما نتصرفه صحيح."

قالت آن بسرعة: "لا علاقة لنا بذلك، لن نتمكن من منعه من القدوم إلى فورويندز إذا أراد ذلك." لم يعجبها الشعور الذي أعطتها إياه ثرثرة الآنسة كورنيليا من باب التصرف وما شابه، ولكنها قررت أن تخضع للأمر بضعفٍ ودون التفكير به كثيرًا.

وقالت: "لا تدعي ليزلي تعرف أنه سيأتي حتى يفعل، فإذا اكتشفت ذلك، أنا متأكدة من أنها ستختفي في الحال. إنها تنوي الذهاب في

الخريف على أي حال، لقد قالت لي ذلك من قبل. إنها ذاهبة إلى مونتريال لتتولى التمريض وتفعل ما بوسعها في سبيل ذلك."

قالت الآنسة كورنيليا وهي تومئ برأسها: "أوه حسنًا يا عزيزتي! هذا كل شيء. لقد قمنا أنا وأنت بدورنا، وعلينا أن نترك الباقي للقدر."

***

35
سياساتٌ في فورويندز



عندما خرجت آن مجددًا من فترة ما بعد الولادة، كانت جزيرة الأمير إدوارد، وكذلك كل كندا، في خضم حملة ما قبل الانتخابات العامة. وجد جيلبرت، الذي كان محافظًا متحمسًا، نفسه عالقًا في الدوامة، حيث كان هناك طلب كبير على إلقاء الخطب في مختلف التجمعات بالمقاطعة. ولم تكن الآنسة كورنيليا توافق على اختلاطه بالسياسة وأخبرت آن بذلك.

"لم يفعل الطبيب ديف ذلك أبدًا. سيجد الطبيب بلايث أنه يرتكب خطأً، صدقيني. السياسة شيء لا يجب على أي رجل محترم التدخل فيه."

سألت آن: "وهل تُترك حكومة البلد للأوغاد وحدهم إذًا؟"

قالت الآنسة كورنيليا مشيرةً إلى شرف الحرب: "نعم، طالما أنهم أوغاد محافظين، فالرجال والسياسيون يشربون من الكأس نفسه. فنصيحتي للطبيب بلايث هي الابتعاد عن السياسة. أول شيء عليك أن تعلمينه هو أنه سيجري انتخابات بنفسه وسيذهب إلى أوتاوا لمدة نصف عام ويترك عيادته للذهاب خلف ذلك."

قالت آن: "آه حسنًا، دعينا لا نكون متشائمين، بدلًا من ذلك، لننظر إلى جيم الصغير. أليس جميلًا؟ فقط انظري إلى الدمامل في مرفقيه. سنقوم بتربيته ليكون محافظًا جيدًا، أنت وأنا يا آنسة كورنيليا."

قالت الآنسة كورنيليا: "ربّيه ليكون رجلًا صالحًا، إنها مزيّة نادرة وقيمة. على الرغم من أنك لا تهتمين لذلك، لكنني لا أرغب في رؤيته كتابعٍ سياسي. أما بالنسبة للانتخابات، فقد نكون ممتنين لأننا لا نعيش في المنطقة العليا من الميناء. فالأجواء هناك مضطربة هذه الأيام. كل عوائل إيليوت وكرافورد وماكليستر يسيرون في طريق حربٍ سياسي. أما هذا الجانب فهو مسالم وهادئ، ويرى عددًا قليلًا من الرجال.

لدى الكابتن أحدًا ليتبعه أيضًا، لكن رأيي أنه يخجل من ذلك، لأنه لم يتحدث أبدًا عن السياسة. ليس هناك أي شك في عودة حزب المحافظين أنفسهم بأغلبية كبيرة مرة أخرى."

كانت الآنسة كورنيليا مخطئة. ففي صباح اليوم التالي للانتخابات، وصل الكابتن جيم إلى المنزل الصغير ليخبرنا بالأخبار. إن ميكروب السياسات الحزبية متجسد في رجل عجوز مسالم، حتى أن خدود الكابتن جيم كانت متوهجة وعيناه تومضان بكل نيرانه القديمة.

"سيدة بلايث، إن الليبراليون يفوزون بأغلبية ساحقة. بعد ثمانية عشر عامًا من سوء إدارة حزب المحافظين، ستتاح الفرصة لهذا البلد المنهك أخيرًا."

ضحكت آن، التي لم تكن متحمسة كثيرًا للأخبار وقالت: "لم أسمع أنك تلقي مثل هذا الخطاب الحزبي المرير من قبل أيها الكابتن جيم. لم أكن أعتقد أن لديك الكثير من السموم السياسية في داخلك."

كان جيم الصغير قد قال "واو-جا" هذا الصباح. فما هي الإمارات والقوى، صعود وسقوط السلالات، الإطاحة بحبيبة أو حزب المحافظين، مقارنة بهذا الحدث المعجزة؟

قال الكابتن جيم بابتسامة مهينة: "لقد تراكمت لفترة طويلة، اعتقدت أنني كنت مجرد تابعٍ معتدل، ولكن عندما وردت الأخبار بأننا كنا في الداخل، اكتشفت كيف كنت كذلك حقًا."

"أنت تعرف أنني والطبيب مع حزب المحافظين."

"آه حسنًا، هذا هو الشيء السيئ الوحيد الذي أعرفه عنكما يا سيدة بلايث. إن كورنيليا من حزب المحافظين أيضًا. اتصلت في طريقي من غلين لإخبارها بالأخبار."

"ألم تعلم أنك حملت حياتك بين يديك بمجازفتك تلك؟"

"نعم، لكنني لم أستطع مقاومة الأمر."

"كيف كانت ردّة فعلها؟"

"هادئة نسبيًا يا سيدة بلايث، هادئة نسبيًا. لقد قالت: "حسنًا إن القدر يُرسل مواسم الإذلال إلى بلدٍ على شكل أفراد. وأنت كتابع بارد وجائع لعدة سنوات... اشبع بهذه الأخبار لأنها لن تطول." قلت لها: "حسنًا يا كورنيليا، تعتقد ميبي بروفيدنس أن كندا بحاجة إلى تعويذة حقيقية طويلة من الإذلال." أوه سوزان، هل سمعت الخبر؟ الليبراليون هنا."

كانت سوزان قد جاءت لتوها من المطبخ، ترافقها رائحة الأطباق اللذيذة التي بدت وكأنها تحوم حولها دائمًا.

قالت بغير مبالاة: "أحقًا! حسنًا، لم أستطع أن أرى أبدًا ما الجديد، لكن مخبوزاتي كانت تنتفخ بنفس الشكل الجيد عندما كان التابعون موجودين كما هو الحال عندما لم يكونون كذلك، الأمر سيّان. وإذا كان هناك أي حفلة، فإن سيدتي العزيزة ستجعلها تمطر قبل نهاية الأسبوع، وتنقذ حديقة مطبخنا من الدمار الكامل، هذا هو الحزب الذي ستصوّت له سوزان. في هذه الأثناء، هل يمكن أن تأتي فقط وتعطيني رأيك في اللحوم للعشاء؟ أخشى أن يكون الأمر صعبًا للغاية، وأعتقد أنه من الأفضل تغيير جزارنا وكذلك حكومتنا."

بعد أسبوع، وفي إحدى الأمسيات، مشت آن إلى مقصدها لمعرفة ما إذا كان بإمكانها الحصول على بعض الأسماك الطازجة من الكابتن جيم وتركت جيم الصغير لأول مرة. لقد كانت مأساة. ماذا لو بكى؟ ماذا لو لم تعرف سوزان بالضبط ماذا تفعل من أجله؟ كانت سوزان هادئة وباردة.

"لقد تعاملت معه بقدر خبرتك يا سيدتي العزيزة، أليس كذلك؟"

"نعم معه، ولكن ليس مع الأطفال الآخرين. لقد سبق واعتنيت بثلاثة أزواج من التوائم عندما كنت طفلة يا سوزان. وعندما كانوا يبكون، كنت أعطيهم النعناع أو زيت الخروع بهدوء. إنه لمن الغريب الآن أن أتذكر كم استخفّيت مع كل هؤلاء الأطفال وويلاتهم."

قالت سوزان: "أوه حسنًا، إذا بكى جيم الصغير، سأصفق فقط بكيس ماء ساخن على بطنه الصغير."

قالت آن بقلق: "ليس حارًا جدًا، كما تعلمين. أوه، هل من الحكمة حقًا أن أذهب؟"

"لا تقلقي يا عزيزتي. فسوزان ليست المرأة التي تحرق رجلًا صغيرًا. ليحميه الرب، لن يكون لديه حتى فكرة عن البكاء."

استسلمت آن للأمر أخيرًا واستمتعت بالسير إلى مقصدها وسط الظلال الطويلة لغروب الشمس. لم يكن الكابتن جيم في غرفة المعيشة بالمنارة، ولكن كان هناك رجل آخر، رجل وسيم في منتصف العمر، ولديه ذقن ويبدو قويًا وفخمًا. عندما جلست، بدأ يتحدث معها كما لو كانت أحد معارفه القدامى. لم يكن هناك شيء خاطئ فيما قاله أو الطريقة التي قاله بها، لكن "آن" استاءت بالأحرى من مثل هذا الاستحسان اللطيف الآتي من شخصٍ غريبٍ تمامًا. كانت ردودها فاترة، وأقلّ مما تتطلبه اللياقة. لا شيء يخيفها، فقد تحدث رفيقها لعدة دقائق، ثم اعتذر وذهب. كان من الممكن أن تقسم آن أنه كان هناك

وميض في عينه أزعجها. من كان هذا المخلوق؟ كان هناك شيء مألوف فيه بشكل غامض لكنها كانت متأكدة من أنها لم تره من قبل.

سألت عندما جاء الكابتن جيم: "من كان هذا الذي خرج للتو أيها الكابتن؟"

أجاب الكابتن: "مارشال إليوت."

صاحت آن: "مارشال إليوت!!!! آه أيها الكابتن جيم... لم يكن... نعم، كان صوته... أوه، لم أكن أعرفه... وكنت أهينه تمامًا! لماذا لم يخبرني؟ لا بد أنه رأى أنني لم أكن أعرفه."

"لا عليكِ، لن ينتقد ما حصل بكلمة، على العكس سيتخذه كموقف فكاهة بالتأكيد. لن يسخر من الأمر بالطبع بل سيجده ممتعًا. لا ألومك، فقد حلق مارشال لحيته وشعره، فحزبه على وشك دخول الانتخابات كما تعلمين. حتى أنا لم أتمكن من التعرف عليه في المرة الأولى التي رأيته فيها. حينها كان خارجًا من متجر كارتر فلاج في غلين الليلة التالية ليوم الانتخابات، مع حشد من الآخرين وهم في انتظار الأخبار. وحوالي الساعة الثانية عشرة، رنّ الهاتف، وأنبأ بنصر الليبراليون. نهض مارشال وخرج للتو، لم يهتف أو يصرخ، ترك الآخرين ليفعلوا ذلك، وكادوا يفجرون سقف متجر كارتر من صراخهم. بالطبع، أحبط كل حزب المحافظين في متجر ريموند راسل ولم يكن هناك الكثير من الهتاف. ذهب مارشال مباشرة أسفل الشارع إلى الباب الجانبي لمحل حلاقة أوغسطس بالمر. كان أوغسطس نائمًا، لكن مارشال ظلّ يدق الباب حتى قام ونزل راغبًا في معرفة سبب كل هذا الضجيج.

قال مارشال: "تعال إلى متجرك وقم بأفضل عمل قمت به في حياتك، يا جوس. إن الليبراليون موجودون وستقوم بالحلاقة لعددٍ كبيرٍ من التابعين قبل شروق الشمس."

كان جوس غاضبًا مثل بركانٍ لأنه تم جره من السرير، ولكن أكثر ما

كان يغضبه أنه كان ضدهم، لأنه من حزب المحافظين. وأقسم أنه لن يحلق أي رجل بعد الثانية عشرة ليلًا.

قال مارشال: "ستفعل ما أريدك أن تفعله، يا بني، أو سأقلبك على ركبتي وأعطيك واحدة من تلك الضربات التي اعتادت والدتك أن تفعلها."

كان ليفعل ذلك بالطبع، وجوس يعرف ذلك حقّ المعرفة، لأن مارشال قوي مثل الثور وجوس كالأقزام الضعفاء. لذلك استسلم وسحب مارشال إلى المتجر وذهب إلى العمل. وكان يقول: "الآن سأحلق لك، ولكن إذا قلت كلمة واحدة لي عن دخول التابعين أثناء قيامي بذلك، فسأجزّ عنقك بهذه الشفرة، لطالما اعتقدت أنت بأن جوس الصغير اللطيف يمكن أن يكون متعطشًا للدماء، أليس كذلك؟ فليظهر الآن ما يمكن أن تفعله السياسة الحزبية للرجل."

ظلَّ مارشال هادئًا وتخلص من شعره ولحيته وعاد إلى المنزل. عندما سمعته مدبرة منزله العجوز يصعد إلى الطابق العلوي، اختلست نظرة خاطفة من باب غرفة نومها لمعرفة ما إذا كان هو أو الصبي المستأجر. وعندما رأت رجلًا غريبًا يسير في القاعة حاملًا شمعة في يده، صرخت وأغمي عليها. كان عليهم إرسال الطبيب ليرجعها لحالتها الطبيعية، وقد مرت عدة أيام قبل أن تتمكن من تقبل منظر مارشال دون أن ترتعش في كل مرّةٍ تنظر فيها إليه."

لم يكن لدى الكابتن جيم ولا حتى سمكة واحدة. إذ كان نادرًا ما يخرج في قاربه ليصطاد في ذلك الصيف، ولم يعد يقوم بتلك الرحلات الطويلة في البحار. لقد أمضى معظم وقته جالسًا بجانب نافذته المطلة على البحر، ناظرًا للخارج، ورأسه متكئًا على يده. وكذلك فعل الليلة لعدة دقائق صامتة، متابعًا بعض ذكرياته مع الماضي دون أن تزعجه آن. ثم أشار إلى قزحية الغرب:

"هذا جميل، أليس كذلك أيتها السيدة بلايث؟ ولكن كنت أتمنى لو رأيتِ شروق الشمس هذا الصباح. لقد كان شيئًا رائعًا... خلابًا. لقد رأيت جميع أنواع شروق الشمس يأتي فوق هذا الخليج. في جميع أنحاء العالم، سيدتي بلايث، ومن بينهم لم أرَ مشهدًا أفضل من شروق الشمس في الصيف فوق هذا الخليج.

لا يمكن للرجل اختيار وقت موته يا سيدتي بلايث، فعلى الرجل أن يذهب عندما يعطي الكابتن العظيم أوامره بالإبحار. ولكن لو كان بإمكاني أن أختار وقتي لاخترته عندما يأتي شروق الصباح عبر تلك المياه. لقد شاهدتها كثيرًا وفكَّرت في أي شيء يمكن أن يفوتني خلال هذا المجد الأبيض العظيم... أعتقد أنني سأجد مارغريت المفقودة هناك يا سيدة بلايث."

غالبًا ما تحدث الكابتن جيم إلى آن عن مارغريت المفقودة منذ أن أخبرها بالقصة القديمة.

ارتجف حبُّه لها في كل نغمةٍ من كلماته، ذلك الحب الذي لم يضعف أو يُنسى أبدًا.

"على أي حال، آمل أن تكون سكرات الموت خفيفة عليّ عندما يحين وقتي. لا أعتقد أنني جبان يا سيدتي بلايث، لقد نظرت إلى وجهي كموت قبيح أكثر من مرة دون خوف. لكن فكرة الموت المستمرة تمنحني شعورًا غريبًا بالرعب."

ناشدت آن بصوت مختنق، وهي تربت على يده البنية القديمة، التي كانت قوية جدًّا، لكنها أصبحت الآن ضعيفة للغاية: "لا تقل هكذا أرجوك أيها الكابتن جيم، لا تنطق ببعدك عنّا، كيف سنحتمل العيش من دونك!!"

ابتسم الكابتن جيم بحُلُم.

"سوف تتعايشين مع الأمر يا سيدتي، ولكنك لن تنسي هذا الرجل

العجوز تمامًا يا سيدة بلايث، لا، لا أعتقد أنك ستنسينه تمامًا. فعرقنا وجذورنا مرتبطة، ودائمًا ما تتذكر بعضها البعض. أعتقد أن ذكراي ستكون غير مؤذية، أحب أن تكون ذكراي هكذا لأصدقائي، أن تكون دائمًا ممتعة لهم، كما آمل وأؤمن.

لن يمر وقت طويل جدًا الآن قبل أن تناديني مارغريت الضائعة، للمرة الأخيرة. وسأكون مستعدًا تمامًا للإجابة. لقد تحدّثت مازحًا عن هذا لأن هناك خدمة صغيرة أريد أن أطلبها منك. هذا مايت قطي المسكين."

مد الكابتن جيم يده ملتقطًا الكرة الذهبية الكبيرة الدافئة المخملية المتمددة على الأريكة. قام هذا الرفيق بفك مخالبه مثل زنبرك بصوت لطيف، مع نصف خرخرة، ونصف مواءة وهو ويمد كفوفه في الهواء، ثم ينقلب ويلف نفسه مرة أخرى. وتابع: "سيفتقدني عندما أبدأ رحلتي هذه. لا يمكنني تحمُّل التفكير في ترك المخلوق المسكين ليموت جوعًا، كما لو حدث لي من قبل. إذا حدث أي شيء لي، هل ستهتمين به أيتها السيدة بلايث؟"

"بالتأكيد سأفعل."

"حسنًا، هذا كل ما كان يدور في خاطري. إن جيم الصغير على وشك الحصول على بعض الأشياء الغريبة التي حظيتُ بها، هذا ما تبين لي. والآن لا أحب أن أرى الدموع في تلك العيون الجميلة أيتها السيدة بلايث، حسنًا سأتوقف الآن. سمعتك تقرئين مقطعًا شعريًا ذات يوم في الشتاء الماضي، واحدة من مقطوعات تينيسون. أود أن أسمعها مرة أخرى، إن كان بإمكانكِ قراءتها من أجلي."

بهدوء ووضوح، وبينما كانت رياح البحر تهب عليهم، أنشدت آن الأسطر الجميلة لأغنية البجعة الرائعة لتينيسون "عبور الحانة." بينما كان الرجل العجوز يستمع بكامل انسجامه معها.

وعندما انتهت، قال: "أجل، أجل يا سيدة بلايث، هذا ما كنت أتحدث عنه، هذا كل شيء... كل شيء. لم يكن تينيسون بحارًا، لا أعرف كيف كان بإمكانه وضع مشاعر بحّارٍ عجوز في كلماتٍ كهذه. لم يكن يريد أي "حزن أو وداع" ولا أنا أيضًا يا سيدة بلايث... لأن الجميع سيكونون على ما يرام معي ومن بعدي أيضًا."

***

36
الجمال من أجل الرماد



"هل من أخبارٍ جديدةٍ من المرتفعات الخضراء يا آن؟"

أجابت آن وهي تطوي رسالة ماريلا: "لا شيء معيّن، كان جايك دونيل في المنزل يرمم السقف. إنه نجار مؤهل الآن، لذلك يبدو أنه اعتمد على طرقه الخاصة فيما يتعلق باختيار حياته العملية. أتذكر أن والدته أرادته أن يصبح أستاذًا جامعيًا. لن أنسى أبدًا اليوم الذي أتت فيه إلى المدرسة ووبختني لعدم مناداته ب تي. إس. كلير."

"هل يدعوه أيّ أحد بذلك الآن."

"لا أعتقد ذلك، حتى والدته قد استسلمت. كنت أعتقد دائمًا أن الصبي الذي لديه ذقن وفم جايك سيحصل على ما يريده في النهاية. كتبت ديانا لي أن دورا لديها عاشق. فقط فكر في الأمر... ما زالت طفلة!"

قال جيلبرت: "دورا تبلغ من العمر سبعة عشر عامًا. تشارلي سلون وأنا كنا كلانا متيمين بك عندما كنت في السابعة عشرة يا آن."

قالت آن بابتسامة نصف حزينة: "أحقًا جيلبرت!! يجب أن نكون مستمرين في السنوات عندما كان الأطفال الذين كانوا في السادسة من

العمر عندما اعتقدنا أننا كبرنا بما يكفي الآن ليكون لدينا بو. ودورا تفكّر رالف أندروز وأخ جين. أتذكره كطفل صغير، مدور الوجه، سمين، ذو رأس أبيض كان دائمًا الأول على صفّه. لكنه غدا شابًا جميل المظهر الآن."

"من المحتمل أن تتزوج دورا في سن صغيرة. إنها من نفس نوع شارلوتا الرابعة، لن تفوت فرصتها الأولى أبدًا خشية ألا تحصل على فرصة أخرى."

قالت آن: "حسنًا، إذا تزوجت من رالف، آمل أن يكون أكثر تطورًا من أخيه بيلي."

قال جيلبرت ضاحكًا: "على سبيل المثال، دعينا نأمل أن يكون قادرًا على تقديم عروض الزواج بنفسه. آن، هل كنت ستتزوجين بيلي لو عرض عليك الزواج بنفسه، بدلًا من جعل جين تفعل ذلك من أجله؟"

تشدقت وجنتا آن في صرخة من الضحك لتذكر ذلك: "ربما!! ربما تكون قد نومتني مغناطيسيًا في مثل هذا العمل المتهور. فلنكن شاكرين أنه فعل ذلك بوكالة أحدهم وليس بنفسه."

قالت ليزلي من الزاوية التي كانت تقرأ فيها: "تلقيت رسالة من جورج مور أمس."

سألت آن باهتمام، ولكن مع شعورٍ غريبٍ بأنها كانت تسأل عن شخص لا تعرفه: "أوه، كيف حاله؟"

"إنه بخير، لكنه يجد صعوبة بالغة في التكيف مع كل التغييرات في منزله القديم وأصدقائه. سيذهب إلى البحر مرة أخرى في الربيع، إن البحر يسري في عروقه، هكذا يقول، دائمًا ما يتوق إليه.

لكنه أخبرني شيئًا أسعدني من أجله. قبل أن يبحر إلى فوروينذز، كان مخطوبًا لفتاة في الوطن. لم يخبرني أي شيء عنها في مونتريال،

لأنه قال إنه كان يفترض أنها كانت ستنساه وتتزوج من شخص آخر. كان الأمر صعبًا عليه، ولكن عندما عاد إلى المنزل وجد أنها لم تتزوج أبدًا وما زالت تهتم به. ومن المقرر أن يتزوجا هذا الخريف. سأطلب منه إحضارها إلى هنا في رحلة صغيرة، يقول إنه يريد أن يأتي ويرى المكان الذي عاش فيه سنوات عديدة دون أن يعرف ذلك."

قالت آن، التي كان حبها للرومانسية خالدًا: "يا لها من قصة حب صغيرة لطيفة." أضافت بحسرة من لوم الذات: "عندما أفكر في الأمر، لو نجحت فيما فكرت فيه لما خرج جورج مور من القبر الذي دفنت فيه هويته. كيف قاومت اقتراح جيلبرت آنذاك! حسنًا، أنا أُعاقب على ذلك، لن أتمكن أبدًا من اتّخاذ رأي مختلف عن رأي جيلبرت مرة أخرى! إذا حاولت ذلك، فسوف يعارضني فورًا بتذكيري بقضية جورج مور!"

قال جيلبرت ساخرًا: "وكأن هذا سيجدي نفعًا إن فعلته! على الأقل لا أستاء من معارضتك لي أحيانًا يا آن، فالقليل من المعارضة تضفي نكهة على الحياة. لا أريد زوجةً مثل جون ماكاليستر فوق المرفأ. وبغض النظر عما يقوله، فإنها تشير في الحال بصوت منخفض باهت لا حياة له وتقول: "هذا صحيح جدًا يا عزيزي جون!"

ضحكت آن وليزلي معًا على تعليق جيلبرت، وكان الجمع راضيًا مثل الوتر المثالي في الموسيقى.

ودخلت سوزان في أعقاب الضحك ورددت صدى صوتها بتنهيدة مدوية.

سأل جيلبرت: "ماذا يا سوزان ما الأمر؟"

صرخت آن في حالة ذعر: "ليس هناك خطبٌ في جيم الصغير أليس كذلك يا سوزان؟"

"لا، لا، هدئي من روعك يا سيدتي العزيزة. ولكن أجل، لقد حدث

شيء ما ولكن معي أنا يا سيدتي العزيزة، كل شيء حصل لي هذا الأسبوع. لقد أفسدت الخبز وأحرقت أفضل قميصٍ للطبيب وكسرت طبقك الكبير. والآن، وفوق كل هذا، تأتي كلمة مفادها أن أختي ماتيلدا كسرت ساقها وتريد مني أن أذهب وأبقى معها لفترة من الوقت."

صاحت آن: "أوه، أنا آسفة جدًا، آسف أن أختك قد تعرضت لمثل هذا الحادث."

"آه حسنًا، كما يُقال في الكتب المقدسة يا سيدتي العزيزة، لقد خلق الإنسان ضعيفًا. لكنهم أخبروني أن شخصًا اسمه بيرنز كتبه. ولا شك في أننا ولدنا مشكلة عندما تتطاير الشرر إلى أعلى. أما ماتيلدا، فأنا لا أعرف ماذا أفكر بها. لم يكسر أي من أفراد عائلتنا ساقيه من قبل. ولكن مهما فعلت فهي لا تزال أختي، وأشعر أن من واجبي الذهاب إليها، إذا كنت تستطيعين أن تعفيني لبضعة أسابيع يا سيدتي العزيزة."

"بالطبع يا سوزان بالطبع. يمكنني أن أحصل على شخص يساعدني أثناء رحيلك."

"إذا لم تستطيعي ذلك فلن أذهب يا سيدتي العزيزة. لن أشعر بالقلق على ساق ماتيلدا، كما أن هذا الطفل المبارك ينزعج لوجود غيري معه."

"أوه، يجب أن تذهبي إلى أختك في الحال يا سوزان. يمكنني الحصول على فتاة من الميناء، يمكنها تدبر أمره لبعض الوقت."

صاحت ليزلي: "آن، هل تسمحين لي بالمجيء والبقاء معك بينما تكون سوزان بعيدة؟ سيكون عملًا خيريًا لي ولك. أنا وحيدة بشكل رهيب هناك في تلك الحظيرة الكبيرة من المنزل. هناك القليل جدًا لفعله، ولا يوجد ما هو أسوأ من الوحدة في الليل، وأخاف وأتوتر على الرغم من الأبواب مغلقة. كان هناك متشرد منذ حوالي يومين يجول هناك."

وافقت آن بفرح، وفي اليوم التالي تم تنصيب ليزلي كأحد أركان منزل الأحلام الصغير. ووافقت الآنسة كورنيليا بحرارة على الأمر.

قالت آن بسرية: "يبدو أنه القدر، حمدًا للرب على سلامة ماتيلدا كلو، ولكن بما أنها اضطرت لكسر ساقها، لا بد أنه خير لها. ستكون ليزلي هنا بينما أوين فورد في فوروينذز، أما تلك العجائز في غلين فلن تتاح لهم فرصة الثرثرة كالتي كانت عندما كانت تعيش هناك بمفردها. فهم يفعلون ما يكفي من ذلك لأنها لم تدخل في حداد. قلت لأحدهن ذات مرّة: "إذا كنت تقصدين أنها يجب أن تدخل حدادًا على جورج مور، يبدو لي الأمر أشبه بقيامته أكثر من جنازته، وإذا قصدتم ديك، فأنا أعترف أنني لا أستطيع أن أرى ملاءمة الذهاب إلى الحشائش لرجل مات قبل ثلاثة عشر عاما وبئس المصير!"

وعندما لاحظت العجوز لويزا بالدوين أنه من الغريب جدًا ألا تشك ليزلي أبدًا في أنه لم يكن زوجها، قلت: "لم تشك أبدًا في أنه لم يكن ديك مور، وكنت أنت الجارة المجاورة له. طوال حياته، لذا أنت مشبوهة مثل ليزلي بل أكثر بعشر مرات." لكن لا يمكنك إيقاف ألسنة بعض الناس يا عزيزتي آن، وأنا ممتنة حقًا لأن ليزلي ستكون تحت سقفك بينما يغازلها أوين."

جاء أوين فورد إلى المنزل الصغير في إحدى أمسيات آب عندما كانت ليزلي وآن منغمستين في اللعب مع الطفل. توقف عند باب غرفة المعيشة المفتوح، ولم تره الاثنتان بالداخل، محدقًا بعيون جشعة في الصورة الجميلة التي أمامه. حيث كانت ليزلي تجلس على الأرض والطفل في حجرها، وهي تربت بنشوة على يديه الصغيرتين السمينتين بينما كان يرفرف بهما في الهواء.

تمتمت، وهي تمسك بيد واحدة وتغطيها بالقبلات: "أوه! يا لك من طفلٍ جميل ولطيف."

قالت آن وهي تنظر إلى حركاته بعشق: "أليس هذه التغريدات التي نتحدث بها معه هي الأجمل؟ أليس كذلك أيها الرجل الصغير اللطيف!"

كانت آن، في الأشهر التي سبقت مجيء جيم الصغير، تتأمل بجدية في عدة مجلدات حكيمة، وربطت إيمانها بواحد خاص اسمه، "السير أوراكل في رعاية الأطفال وتدريبهم." وهو يناشد الآباء بكل ما لديهم من مقدّسات ألّا يتحدثوا أبدًا بلغة الأطفال مع أطفالهم، بل أن يحدثونهم وكأنهم كبار.

يجب أن يُخاطب الأطفال الرضع دائمًا باللغة العادية منذ لحظة ولادتهم. لذلك يجب أن يتعلموا التحدث دون تدنيسٍ من نطقهم المبكر. "كيف؟"، قال السير أوراكل، "كيف يمكن للأم أن تتوقع بشكل معقول أن يتعلم طفلها الكلام الصحيح، عندما تعوده باستمرار على مثل هذه التعبيرات السخيفة والتشويهات في لساننا النبيل كما تفعل الأمهات الطائشة كل يوم مع هذه المخلوقات العاجزة؟ هل يمكن للطفل الذي يُطلق عليه باستمرار "إغي! إغي!" الوصول إلى أي تصور مناسب لكيانه وإمكانياته ومصيره؟

لقد تأثرت آن بشدة بهذا الأمر، وأبلغت جيلبرت أنها سوف تكون صارمة بشأن التحدّث مع الطفل بهذه الطريقة تحت أي ظرف من الظروف. اتّفق معها جيلبرت، وصنعا اتفاقًا رسميًا حول هذا الموضوع، كان ميثاقًا قد انتهكته آن دون خجل في اللحظة الأولى التي وضعت فيها جيم الصغير بين ذراعيها وصاحت. "أوه أيها اللطيف! آغي!" واستمرت في انتهاكه منذ ذلك الحين. وعندما نبهها جيلبرت، سخرت من السير أوراكل.

وقالت: "أنا متأكدة من أنه لم يكن لديه أي أطفال من قبل يا جيلبرت، وإلا لما كان سينطق مثل هذه القمامة التي كتبها أبدًا. إنه أمر

طبيعي أن تتحدث إلى الطفل هكذا، هذا ما وجدته صحيحًا. سيكون من غير الإنساني التحدث إلى تلك المخلوقات الصغيرة، الناعمة، المخملية كما نفعل مع الأولاد والبنات الكبار. الأطفال يريدون الحب والعناق وأن نتحدث معهم مثلهم، وهذا ما سأفعله مع جيم الصغير" وتابعت مناغشة الطفل بلغةٍ طفولية: "فليبارك الرب قلبه اللطيفة العزيزة، إغي، إغي."

احتج جيلبرت على ذلك، فلم يكن مقتنعًا تمامًا بعد بأن السير أوراكل كان مخطئًا، لكونه ليس أمًا بل أبًا فقط، وقال: "لكنك الأسوأ في فعل هذا يا آن، لم أسمع أبدًا شيئًا مثل الطريقة التي تتحدثين بها إلى ذلك الطفل الآن."

"من المحتمل جدًا أنك لم تفعل ذلك مطلقًا. اذهب بعيدًا، ابتعد. ألم أرعى ثلاثة أزواج من توائم هاموند قبل أن أبلغ سن الحادية عشرة؟ أنت والسير أوراكل لستما سوى منظرين بدم بارد. جيلبرت، فقط انظر إليه! إنه يبتسم في وجهي، إنه يعرف ما نتحدث عنه."

وضع جيلبرت ذراعه حولها وقال: "أنتن أيتها الأمهات! لقد كان الله يعلم ما يفعله عندما خلقكن."

لذلك تم التحدث إلى جيم الصغير على هذا الأساس، وكان وجهه مشرقًا وضاحكًا.

كانت ليزلي أول من لاحظ وجود أوين فورد المفاجئ. حتى في الغسق، كان يمكن أن ترى آن البياض المفاجئ الذي اجتاح وجهها الجميل، ونحت اللون القرمزي على شفتيها وخديها.

تقدّم أوين بشغفٍ في لحظاتٍ لم تنتبه لها آن.

قال وهو يمد يده اتجاهها: "ليزلي!" كانت هذه هي المرة الأولى التي يناديها فيها باسمها، لكن اليد التي أعطته إياها ليزلي كانت باردة، وكانت هادئة للغاية طوال السهرة المسائية المحاطة بضحكات

وأحاديث آن وجيلبرت وأوين. وقبل أن ينهي حديثه، اعتذرت ليزلي بسرعة وصعدت إلى الطابق العلوي.

كانت أجواء أوين السعيدة قد همدت، وذهب بعيدًا بعد فترة وجيزةٍ وسط جو كئيب.

نظر جيلبرت إلى آن.

"آن، ما الذي تنوي فعله؟ هناك شيء ما يحدث لا أفهمه. كانت الأجواء الليلة متوترة. تجلس ليزلي بائسة، وأوين فورد يمزح ويضحك من خارجه وهو ينظر إلى ليزلي بداخله. وكنت تبدين طوال الوقت وكأنك ستنفجرين ببعض الكلمات المكبوتة داخلك. قولي لي! ما هو السر الذي تخفينه عن زوجك المخدوع؟"

ردّت آن: "لا تتصرف هكذا!! أما بالنسبة إلى ليزلي، فهي سخيفة وساذجة، وأنا ذاهبة لأخبرها بذلك."

وجدت آن ليزلي تقف عند النافذة، والمكان تملؤه أصوات أمواج البحر. جلست ليزلي ويديها مقفلتان في ضوء القمر الضبابي شاردة، وقالت بصوت هامس: "

"هل كنت تعلمين أن أوين فورد سيأتي إلى فوروينذز يا آن؟"

قالت آن بصراحة: "أجل."

صرخت ليزلي: "كان يجب أن تخبريني يا آن. لو كنت أعلم ذلك لما بقيت، كنت سأرحل ولن أبقى لمقابلته بالطبع. كان يجب أن تخبريني. لم يكن ذلك عادلًا يا آن، أوه، لم يكن ذلك عادلًا!"

كانت شفاه ليزلي ترتعش وكان شكلها كله متوترًا مع العاطفة. لكن آن ضحكت، وانحنت وقبلت وجه ليزلي الموبوء.

"أنت عاطفية جدًا يا ليزلي. لم يندفع أوين فورد من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسي لأجل رغبته الشديدة في رؤيتي أنا بالطبع. ولا أعتقد أنه كان مستوحى من أي شغف جامح ومجنون لملكة الجمال

كورنيليا. اخلعي عنك أجواءك المأساوية هذه يا صديقتي العزيزة، لن تحتاجينها مرة أخرى أبدًا.

هناك بعض الأشخاص الذين يمكنهم الرؤية من خلال حجر الشحذ عندما يكون هناك ثقب فيه، حتى لو لم تستطعيين ذلك. لست نبية، لكنني سأغامر بالتنبؤ هذه المرّة، وأقول لك أن مرارة الحياة قد انتهت بالنسبة لك. وحان الوقت لتحصلي على الأفراح والآمال، لا يخلو الأمر من بعض الأحزان، ولكن لامرأةٍ سعيدة. إن العام الذي رأيته فيه جلب لك أفضل هدية في حياتك يا ليزلي، حبك لأوين فورد. الآن، اخلدي إلى الفراش واستمتعي بنومٍ جيد."

أطاعت ليزلي الأوامر وذهبت إلى الفراش، ولكنها خافت أن تكون في حلمٍ وتستيقظ منه إن فعلت ذلك، لا أعتقد أنها تجرأت على أحلام اليقظة حتى، كانت الحياة صعبة للغاية بالنسبة لليزلي المسكينة، والطريق الذي كان عليها أن تمشي عليه كان ضيقًا للغاية، وشائكًا، لدرجة أنها لم تستطع أن تهمس في قلبها بالأمل الذي قد يكون في انتظارها في المستقبل. لكنها راقبت الضوء الدائر العظيم خلال الساعات القصيرة من ليلة الصيف، ونامت قريرة العين.

وعندما جاء أوين فورد في اليوم التالي ليطلب منها أن تذهب معه إلى الشاطئ، لم ترفض على الإطلاق.

***

37
قرار الآنسة كورنيليا



عرجت الآنسة كورنيليا إلى المنزل الصغير بعد ظهر يومٍ غائمٍ، حيث كان خليج آب الأزرق باهتًا، والزنابق البرتقالية التي تحرس بوابة حديقة آن تنهل من كأس أشعة آب. لم تهتم الآنسة كورنيليا لا بالبحار الزرقاء ولا بالزنابق المتعطشة لأشعة الشمس، فجل ما فعلته هو الارتماء على كرسيها الهزاز المفضل وهالةٌ من الكسل تحتويها.

لم تحك الصوف ولم تغزل، ولم تتفوه ببنت شفةٍ عن أي أحد.

كانت محادثة الآنسة كورنيليا باختصارٍ خاليةً من أي لذةٍ، وقد لاحظ ذلك جيلبرت الذي كان يستمع إليها. فقد فضّل البقاء على الذهاب إلى الصيد كما كان ينوي.

"ما الذي حدث أيتها الآنسة كورنيليا؟"

لم تبد الآنسة كورنيليا أي ردة فعلٍ على سؤاله، وساد صمت مقلقٌ، حتى قطعته سائلةً باهتمامٍ شديد:

"أين ليزلي؟"

أجابت آن: "لقد ذهبت هي وأوين لقطف التوت من الغابة القابعة خلف منزلها. ولن يعودا قبل موعد العشاء، أي الآن."

قال جيلبرت: "لا أعتقد بأنهما يباليان أبدًا بالوقت. لم أستطع أن أصل لجوهر هذه القضية أبدًا. أنا متأكدٌ من أنكن أيتها النساء ستستطعن إيجاد الخيط بسهولة. يبدو لي بأن زوجتي لن تخبرني بذلك. أستفعلين أنت أيتها الآنسة كورنيليا؟"

قالت الآنسة كورنيليا مصممةً على أن تمسك بزمام الأمور: "لا، لن أفعل. ولكن عوضًا عن ذلك سأخبرك بشيءٍ آخر. لقد أتيت اليوم خصيصًا لأخبرك به. لقد قررت أن أتزوج."

وساد الصمت المكان. فمن كان سيصدق بأن الآنسة كورنيليا ستعقد نية الزواج. بالطبع لا أحد. التزمت آن وجيلبرت الصمت. لا بد من أن ما سمعاه لم يكن إلا خطئًا.

قالت الآنسة كورنيليا، وعيناها تبرقان: "حسنًا، كلاكما تبدوان كالكلاب من نوع كيرفيميكسد."

وعندما انتهت تلك اللحظة المحرجة، استعادت الآنسة كورنيليا زمام الأمور، وقالت: "أتعتقدان بأنني صغيرةٌ ولا أفقه شيئًا بأمور الزواج؟"

قال جيلبرت بهدوءٍ وعقلانية: "أنا أعترف بأن الأمر مذهل. ولكنني قد سبق وسمعت لعشرات المرات بأنك لن توافقي على أي رجلٍ، ولو كان الأفضل والأوسم في هذا العالم."

ردت الآنسة كورنيليا: "لن أتزوج أفضل رجلٍ في العالم. إنّ مارشال إليوت بعيدٌ كل البعد عن كونه الأفضل في هذا العالم."

"هل ستتزوجين مارشال إليوت؟" صاحت آن، بعد أن استفاقت من صدمتها، واستعادت قدرتها على التكلّم.

"نعم، لقد كان ينتظر إشارةً مني طيلة العشرين سنةً الماضية. أتعتقد بأنني كنت أذهب إلى الكنيسة بجانب رجلٍ تافهٍ؟"

"نحن حقًا سعداء من أجلكما." قالت آن بصدقٍ، رغم عدم

استعدادها لمناسبةٍ كهذه. فهي لم تتخيل نفسها أبدًا تقدم تهنئة خطوبةٍ إلى الآنسة كورنيليا.

قالت الآنسة كورنيليا: "شكرًا، أنا أعلم بهذا. أنت أول من يعلم."

قالت آن بنبرةٍ عاطفيةٍ حزينة: "سنفتقدك جدًا يا عزيزتي الآنسة كورنيليا."

قالت الآنسة كورنيليا بجمود: "أوه، بالطبع لن تفعلا. أنت بالطبع لا تتوقعين مني العيش مع عائلة ماكاليستر، وإليوت، وكروفورد، أليس كذلك؟ تخيلي أن أعيش مع غرور عائلة إليوت، وكبرياء عائلة ماكاليستر، وتكبر عائلة كراوفورد. ارحمنا أيها الرب! سنعيش أنا ومارشال في منزلي. لقد سئمت وتعبت حقًا من استئجار الرجال. إن جيم هاستينغز الذي استأجرته هذا الصيف من أسوأ الرجال. بإمكانه أن يدفع أي شخصٍ يراه للزواج. ألا توافقانني؟ لقد أزعجني بشدةٍ ليلة أمس، وقام بسكب كميةٍ كبيرةٍ من الكريمة في الفناء، وأطلق ضحكةً شريرةً وقال "فلتأكلي من خيري أيتها الارض." أهذا رجل؟! لقد أخبرته بأنني لست معتادةً على إطعام أرضي الكريمة المخفوقة."

قال جيلبرت بجدية: "حسنًا، أتمنى لك حياةً مليئة بالسعادة."

وأضاف، غير قادر على مقاومة متعة مضايقة الآنسة كورنيليا، رغم عيون آن التي تتوسله بألّا يفعل: "أخشى بأن أيام استقلالك ستنتهي. فكما تعلمين مارشال إليوت رجلٌ حازمٌ للغاية."

ردت الآنسة كورنيليا: "أنا أحب الرجل الذي يتمسك بما يحب. لم يستطع آموس غرانت، الذي لاحقني لمدةٍ طويلة، أن يفعل ذلك. إنه ليس سوى حثالة. لقد أقدم على الانتحار ذات مرة، إذ ألقى بنفسه في الماء، ولكنه ما إن بدأ يغرق حتى شرع بالسباحة لينقذ نفسه. أهذا رجل؟! لم يكن مارشال ليفعل ذلك."

"لقد سمعت بأنه يتمتع بمزاجٍ لطيف." قال جيلبرت.

"وهذا ما يميزه. كم أنا ممتنةٌ لذلك. سيكون من الممتع أن أفقده عقله. باستطاعتك أن تفعل ما يحلو لك مع رجلٍ متهورٍ إن كان يجيد التعامل معك. ولكن لن تستطيع ذلك مع رجلٍ باردٍ لا يفقه شيئًا."

"أنت تعرفين أنه صعب المراس يا آنسة كورنيليا."

اعترفت الآنسة كورنيليا بحزنٍ شديد: "نعم، إنه كذلك، ولن أستطيع تغييره البتة. ولكن الجيد في الأمر أنه مشيخيّ. أعتقد بأن الأمر لن يشكل فارقًا لي."

"أكنت ستتزوجينه لو كان ميثوديًا أيتها الآنسة كورنيليا؟"

"لا، لن أفعل. لو أن الأمر كان يتعلق بالسياسة لما باليت، ولكن الحكم هنا للأقوى؛ أي للديانة."

"قد تصبحين أرملةً في أية لحظةٍ يا آنسة كورنيليا."

"لا لن أفعل. فمن المتعارف عليه أن عائلة إليوت عمرها طويلٌ على عكس عائلة برااينت."

"متى ستتزوجين؟" سألت آن.

"في غضون شهرٍ تقريبًا. سيكون فستان زفافي مصنوعًا من الحرير باللون الأزرق الداكن. آه صحيح، أريد أن أسألك، أتعتقدين بأنه من الأفضل لي أن أضع الطرحة مع الفستان؟ أظن بأنها ستليق بي حقًا. يقول مارشال أن باستطاعتي الحصول على واحدةٍ إن أردت ذلك. يا له من رجل!"

"إن كنت ترغبين بذلك، فلم تسألين؟" سألت آن.

أجابت الآنسة كورنيليا بغرابةٍ لا تمت للبشر بصلة: "حسنًا، أنا لا أريد أن أكون مختلفةً عن البقية. أنا حقًا أريد ارتداءها، ولكن ربما لا ينبغي أن أفعل ذلك وأنا أرتدي فستانًا أزرق اللون. من فضلك أخبريني يا آن، ما رأيك بالأمر؟ أرشديني."

اعترفت آن: "أنا لا أظن بأن الطرحة توضع فقط مع فساتين الزفاف

البيضاء. إنه فقط تقليدٌ من تلك التقاليد القديمة. وأنا أوافق السيد إليوت يا كورنيليا. فليس هناك أي سببٍ وجيهٍ يمنعك من ذلك إن كنت تريدين ارتداءها حقًا."

ولكن الآنسة كورنيليا هزت رأسها، وقالت بحسرةٍ على ذلك الحلم الضائع: "إن لم يكن ذلك متعارفٌ عليه فلن أفعله البتة."

قال جيلبرت برسمية: "بما أنك عازمةٌ على الزواج يا آنسة كورنيليا، سأقدم لك بعضًا من النصائح، التي أعطتها جدتي لأمي عندما تزوجت والدي، التي ستجعل زوجك خاتمًا في إصبعك."

قالت الآنسة كورنيليا بهدوء: "حسنًا، أعتقد بأنني أستطيع السيطرة على مارشال إليوت. ولكن لا ضرر من الاستماع لبعضها."

"أولًا، تمسكي به جيدًا، وثانيًا، أطعميه ما يكفي من الفطائر. ماذا أيضًا؟ نعم، وثالثًا ورابعًا أبقي عينيك عليه."

قاطعته الآنسة كورنيليا: "أنت تقول الحكم."

***

38
ورودٌ حمراء



كانت حديقة المنزل الصغير مملكةً للنحل، تزيّن خديّها ورود آب الحمراء. عاش آل المنزل الصغير عمرًا فيه، واعتادوا على التنزه وتناول العشاء في الزاوية العشبية خلف الجدول، والجلوس فيها عند الشفق حتى يبحر عث الليل العظيم في الظلام المخملي.

ذات مساء وجد أوين فورد ليزلي تجلس وحدها فيها. كانت آن وجيلبرت بعيدين، وسوزان، التي كان من المتوقع أن تعود في تلك الليلة، لم تكن قد عادت بعد.

كانت السماء الشمالية كهرمانية وخضراء شاحبة فوق قمم التنوب، وكان الهواء باردًا، لأن شهر آب كان في أواخر أيامه، وكانت ليزلي مرتديةً وشاحًا قرمزيًا فوق فستانها الأبيض.

تجولا معًا في المسارات الصغيرة والودية المزدحمة بالزهور في صمت، كان لا بد أن يذهب أوين قريبًا فقد كانت إجازته على وشك الانتهاء. وجدت ليزلي قلبها ينبض بشدة. كانت تعلم أن هذه الحديقة المحبوبة ستصبح مسرحًا للكلمات الملزمة التي يجب أن تختم تفاهمها الغامض ذاك.

قال أوين: "في بعض الأمسيات تنبعث رائحة غريبة في نسائم هذه الحديقة، مثل عطر وهمي. لم أتمكن أبدًا من اكتشاف الزهرة التي تأتي منها. إنها بعيدة المنال ومثيرةً للقلق وحلوة ورائعة. أحب أن أتخيل أنها روح الجدة سلوين وهي تمر في زيارة صغيرة إلى البقعة القديمة التي أحبتها كثيرًا. لا بد أن يكون هناك الكثير من الأرواح الودودة التي ما زالت تحيا حول هذا المنزل القديم الصغير."

قالت ليزلي: "لقد عشت تحت سقفه لمدة شهر واحد فقط، لكني أحبه لأنني لم أحب منزلي هناك حيث عشت طوال حياتي."

قال أوين: "هذا البيت بُنيَ وكُرس بالحب... ومثل هذه البيوت، لا بدّ أن تمارس تأثيرًا على أولئك الذين يعيشون فيها. وهذه الحديقة... عمرها أكثر من ستين عامًا، وهي تاريخ آلاف من الآمال والأفراح المحفورة في أزهارها. بعض هذه الزهور زرعتها بالفعل يد عروس مدير المدرسة، وقد ماتت منذ ثلاثين عامًا.

ومع ذلك فإنها تزدهر في كل صيف. انظري إلى تلك الورود الحمراء يا ليزلي، وكيف جعلوها ملكةً هكذا على كل شيء آخر!"

قالت ليزلي: "أحب الورود الحمراء. آن تحب الوردية أكثر من غيرها، وجيلبرت يحب الأبيض. لكني أريد تلك القرمزية. إنها ترضي الشغف كما لا تفعل أي زهرة أخرى."

قال أوين، مقتطفًا بعض البراعم المتوهجة نصف المفتوحة: "هذه الورود متأخرة جدًا، تتفتح بعد زوال جميع الأزهار الأخرى، وتحمل دفء وروح الصيف ليؤتي ثماره. الوردة هي زهرة الحب، لقد هتف العالم بها على مدى قرون. الورود الوردية هي حبٌ متفائل ومتوقع، والورود البيضاء هي حب ميت أو مهجور، أما الورود الحمراء... آه يا ليزلي، ما تعني الورود الحمراء؟"

قالت ليزلي بصوت منخفض: "الحب المنتصر."

"تمامًا! الحب المنتصر والكمال. ليزلي، أنت رزينة الفهم والعقل. لقد أحببتك منذ البداية. وأنا أعلم أنك تحبينني، لست بحاجة لأن أسألك. ولكنّي أريد أن أسمعك تقولين ذلك... يا حبيبتي! أنت حبيبتي!"

قالتها ليزلي بصوتٍ منخفض جدًا وشفتان ترتعشان. أمسك يدها... والتقت شفاههما. كانت تلك هي اللحظة الأسمى في الحياة بالنسبة لهما، وبينما كانا يقفان هناك في الحديقة القديمة، بسنواتها العديدة من الحب والبهجة والحزن والمجد، تُوّج شعرها اللامع بوردةٍ حمراء لحبٍ منتصر.

عادت آن وجيلبرت في الوقت الحاضر برفقة الكابتن جيم. وأشعلت آن بضعة أعواد من الأخشاب الطافية في المدفأة، من أجل حب اللهب المتقطع، وجلس الجميع حولها لمدة ساعة من الأجواء المسائية الدافئة.

قال الكابتن جيم: "أشعر بأنني شابٌ مرة أخرى عندما أجلس في هذه الأجواء." سأل أوين: "هل يمكنك قراءة المستقبل في النار أيها الكابتن جيم؟"

نظر الكابتن جيم إليهم جميعًا بمودة ثم عاد مرة أخرى إلى وجه ليزلي النابض بالحياة وعينيها المتوهجة.

قال: "لست بحاجة إلى النار لأقرأ مستقبلك. أرى السعادة لكم جميعًا... جميعكم، أراها لليزلي والسيد فورد، والطبيب هنا والسيدة بلايث، ولجيم الصغير أيضًا، حتى أنني أراها للأطفال الذين لم يولدوا بعد ولكنهم سوف يولدون. أرى السعادة للجميع، ولكن ضعوا في اعتباركم، أنه على الرغم من ذلك، لا بد من وجود مشاكل ومخاوف وأحزان أيضًا. لا بد أن يدخلوا في حياة الجميع، ولا يمكن لأي منزل، سواء كان قصرًا أو منزلًا صغيرًا من الأحلام، منعهم. لكنها لن تتغلب

عليكم إذا واجهتموها معًا بالحب والثقة. يمكنكم التغلب على أي عاصفة من أجل صفاء أجوائكم."

نهض الرجل العجوز فجأة ووضع يدًا على رأس ليزلي وواحدة على رأس آن.

قال "امرأتان جميلتان، صادقتان ومخلصتان ويمكن الاعتماد عليهما. سيكتسب أزواجكما الشرف بفضلكما، وسينهض أطفالكما ويدعون لكما مباركين في السنوات القادمة."

كانت هناك بهجةً غريبة حول المشهد الصغير. انحنت آن وليزلي لتلقّي البركة. ورفع جيلبرت يده فجأة فوق عينيه. كان أوين فورد مبتهجًا كشخص يمكنه رؤية الرؤى. كلهم كانوا صامتين للحصول على مساحةٍ من كلام الكابتن. أضاف بيت الأحلام الصغير لحظة أخرى مؤثرة لا تُنسى إلى مخزن الذكريات.

قال الكابتن جيم ببطء أخيرًا: "يجب أن أذهب الآن." ورفع قبعته ونظر في الغرفة، وأضاف وهو يخرج: "تصبحون على خيرٍ جميعكم."

ركضت آن إلى الباب من بعده، مثقوبة بحزن وداع غير عادي، ونادته وهو يمر عبر البوابة الصغيرة المعلقة بين التنوب: "مهلًا أيها الكابتن جيم"

نادى عليها بمرح: "أجل!"

وكانت المرّة الأخيرة التي يجلس الكابتن جيم فيها بجانب المدفأة القديمة لبيت الأحلام.

وعادت آن ببطء إلى الآخرين.

وقالت: "إنه أمر مؤسف للغاية أن تفكر في أنه يذهب بمفرده إلى تلك الحياة الوحيدة... وليس هناك من يرحب به هناك."

قال أوين: "إن الكابتن جيم هو خير صاحب للآخرين، لدرجة أنه لا يمكن للمرء أن يتخيله سوى صديقًا جيدًا لنفسه. لكنه غالبًا ما يكون

وحيدًا. كانت هناك لمسة من الرائي فيه هذه الليلة، لقد تحدث كشخصٍ خلقه الله لأجل التحدّث فقط. حسنًا، على أي حال، يجب أن أذهب أيضًا."

اختفت آن وجيلبرت بتكتم. ولكن عندما رحل أوين، عادت آن لتجد ليزلي واقفة بجانب الموقد.

قالت وهي تضع ذراعيها حولها: "أوه ليزلي! أعلم ما تفكرين به، وأنا سعيدة جدًا يا عزيزتي."

همست ليزلي "آه يا آن، سعادتي تخيفني... يبدو أنه من الرائع أن تكون حقيقيًا، أخشى أن أتحدث عنه أو أن أفكّر فيه. يبدو لي أنه مجرد حلم آخر لبيت الأحلام هذا وسوف يتلاشى عندما أغادر."

"حسنًا، لن تغادري حتى يأخذك أوين. وستبقين معي حتى يأتي ذلك الوقت. هل تعتقدين أنني سأسمح لك بالذهاب إلى ذلك المكان الوحيد والحزين مرةً أخرى؟"

"شكرًا لك يا عزيزتي. كنت أريد أن أسألك عما إذا كان بإمكاني البقاء معك. لم أرغب في العودة إلى هناك... يبدو الأمر وكأنني أعود إلى برودة وكآبة الحياة القديمة مرة أخرى. آن، آن، ماذا فعلت ليهبني الرب صديقةً مثلك، امرأةً طيبة ولطيفة، حقيقية ومخلصة ويمكن الاعتماد عليها، لقد صدق الكابتن جيم."

ابتسمت آن: "قال "نحن" وليس أنا فقط، ربما يرى الكابتن جيم كلانا من خلال النظارات الوردية لحبّه لنا. ولكن يمكننا أن نحاول أن نرتقي إلى مستوى إيمانه بنا على الأقل."

قالت ليزلي ببطء: "أتذكرين يا آن، ما قلته لك في تلك الليلة عندما التقينا على الشاطئ، أنني كرهت مظهري الجميل؟ لم أكن لأفكر بي أبدًا. كرهت جمالي لأنه جذبه إلي، ولكن الآن، أوه، أنا سعيدة لأن كل ما أمتلكه يحبّه أوين، وروحه الفنانة تسعد به. أشعر أنني لم آتي إليه

خالية الوفاض."

"أوين يحب جمالك يا ليزلي. من منا لا يفعل أصلًا؟ ولكن من الغباء أن تقولي أو تعتقدي أن هذا هو فقط ما جذبه إليك. ولكن لا داعي لأتكلم لأنه هو من سيقول ذلك. والآن يجب أن أقفل الباب. لقد توقعت مجيء سوزان الليلة، لكنها لم تأت."

قالت سوزان وهي تدخل بشكل غير متوقع من المطبخ: "أوه ها أنا ذا يا سيدتي العزيزة! كانت مجرد نزهة في غلين بالأسفل هنا."

"أنا سعيدة برؤيتك يا سوزان. كيف حال أختك؟"

"إنها قادرة على الجلوس، لكنها بالطبع لا تستطيع المشي بعد. ومع ذلك، فهي قادرة على الصعود بدوني الآن، لأن ابنتها عادت إلى المنزل لقضاء إجازتها. وأنا سعيدة برؤيتك يا سيدتي العزيزة.

كُسرت ساق ماتيلدا ولم يكن هناك خطأ، لكن لسانها لم يكن كذلك. كانت تتحدث عن رجليها طوال الوقت يا سيدتي العزيزة، على الرغم من أنني أحزن أن أقول ذلك عن أختي. لطالما كانت متحدثة رائعة ومع ذلك كانت أول فردٍ في عائلتنا يتزوج. لم تكن تهتم كثيرًا بالزواج من جيمس كلو، لكنها لم تستطع تحمل عرقلته. جيمس رجل صالح، عيبه الوحيد أنه يبدأ دائمًا في قول النعمة بمثل هذا التأوه الغامض يا سيدتي العزيزة. إنه دائمًا ما يدمّر شهيتي. وبالحديث عن الزواج يا سيدتي العزيزة، هل هذا صحيح أن كورنيليا براينت ستتزوج من مارشال إليوت؟"

"نعم، صحيح تمامًا يا سوزان."

"حسنًا يا سيدتي العزيزة، لا يبدو لي ذلك عادلًا. ها أنا، لم أقل كلمة واحدة ضد الرجال، ولم تأتي قسمتي بأي حال من الأحوال. أما كورنيليا براينت، التي لم ترحمهم أبدًا، كل ما عليها فعله هو أن تمد يدها وتلتقط واحدًا. إنه عالم غريب جدًا يا سيدتي العزيزة."

"هناك عالم آخر يا سوزان."

قالت سوزان بحسرة: "نعم، لكن يا سيدتي العزيزة يبدو أنه لا يحتوي على زواج ولا على من سيتزوج."

***

39

موت الكابتن جيم



في يومٍ من أواخر أيام شهر أيلول، نُشر كتاب أوين فورد. أمضى الكابتن جيم ذلك الشهر مجيئةً وذهابًا إلى مكتب بريد غلين ليطمئن على الكتاب. ولكنه في هذا اليوم تحديدًا لم يذهب لأن ليزلي هي من ذهبت وأحضرت النسخ الثلاث. واحدةٌ للكابتن، وواحدةٌ لها، وواحدةٌ لآن.

قالت آن بحماسٍ كطفلةٍ صغيرة: "سنأخذها إليه هذا المساء."

سارتا، في ذلك المساء الصافي، على طول طريق المرفأ الأحمر الممتع. كانت الشمس قد غربت خلف التلال الغربية عند الوادي بينما انطلق ضوء المنارة الفضي الساطع.

قالت ليزلي: "إن الكابتن جيم دقيقٌ في مواعيده."

لم تنسَ آن وليزلي أبدًا ملامح الكابتن جيم عندما أهدينه الكتاب... كتابه هو... الذي كتبه بكل حب. لقد تضرَّجت خدوده البيضاء باللون القرمزي، ولمعت عيناه بوميض السعادة، فبدا شابًا يافعًا. وعندما أمسكه ليفتحه أخذت يداه ترتعشان.

كان عنوان الكتاب حياة الكابتن جيم، وعلى صفحة الغلاف وضع

اسم كلٍ من أوين فورد وجيمس بويد. كان الغلاف يحوي صورةً للكابتن جيم نفسه وهو يقف عند باب المنارة، وينظر باتجاه الخليج. لقد التقط له تلك الصورة في إحدى المرات التي كانا يكتبان بها. ولكن الكابتن لم يعلم بأن الصورة ستكون على غلاف الكتاب.

قال: "يا إلهي! هذا البحار العجوز أنا! إنه أنا حقًا! هذا أفضل يومٍ أعيشه في حياتي. أنا فخورٌ جدًا بنفسي. يا للشعور الجميل يا فتاتاي. لن أنام هذه الليلة أبدًا، سأمضيها بقراءة كتابي، وسأنهيه قبل شروق الشمس."

قالت آن: "حسنًا، لقد انتهى دورنا هنا. سنذهب لتختلي به."

كان الكابتن جيم ينظر إلى الكتاب بنشوةٍ عميقة. فأغلق الكتاب بحزمٍ، واحتج قائلًا: "لا، لا، لن تذهبا إلى أي مكان قبل أن تحتسيا الشاي مع عجوزٍ مثلي. لم أسمع شيئًا، أسمعت أنت يا مايت؟ أعتقد بأن الكتاب لا مانع لديه من الانتظار. لقد أمضيت عامًا كاملًا أنتظره، لذا لا مانع لدي الآن من أن أنتظر بضع ساعاتٍ أخرى."

تحرَّك الكابتن جيم وأوقد النار، وحضّر الخبز والزبدة. وعلى الرغم من حماسه الشديد، إلا أنه لم يكن نشيطًا كما كانت عادته. ولم تعرض الفتاتان عليه يد المساعدة أبدًا، لأنهما كانت على درايةٍ من أن ذلك سيؤذي مشاعره.

قال وهو يخرج كعكةً من خزانته: "يا لحظكما الجيد. فقد أرسلت لي اليوم والدة جو الصغير سلةً كبيرةً مليئةً بالكعك والفطائر. إنها من أفضل الطهاة. انظرا إلى هذه الكعكة الجميلة المزينة بالكريمة والمكسرات. لقد مضى زمنٌ على احتفالي بأمسيةٍ كهذه. هيا انضما إليّ أيتها الفتاتين. فلنحتسي كوبًا من اللطافة كالأيام الخوالي."

جلست الفتاتان بمرحٍ، وأخذتا تحتسيان شاي الكابتن جيم الذي لا غبار عليه تمامًا كما كعكة والدة جو الصغير. كان الكابتن جيم ملك

الكرم والضيافة مساءها. وقد استطاع أن يكبح جماح نفسه من النظر إلى تلك الزاوية التي يرقد فيها الكتاب. ولكن ما إن أغلق الباب خلف آن وليزلي، حتى انقض عليه فورًا.

وفي طريق عودتهما أخذتا تتخيلان مدى سعادة العجوز بأحداث الكتاب. تلك الصفحات المليئة بأحداث حياته الساحرة، وبروائح الواقع.

قالت ليزلي: "أتساءل إن كانت ستعجبه النهاية التي اقترحتها."

استيقظت آن في الصباح الباكر لتجد جيلبرت ينحني عليها مرتديًا ملابسه، ووجهه لا يبشر بالخير أبدًا.

"هل استُدعيت؟" سألت بنعاس.

"لا يا آن، أعتقد بأن شيئًا خاطئًا قد حدث في فوروينذز. لقد مرت ساعةٌ على شروق الشمس وضوء المنارة لا يزال ساطعًا. أنت تعلمين يا آن بأنه دقيقٌ في مواعيد إشعال ضوء المنارة لحظة غروب الشمس وإطفائه لحظة شروقها."

انتفضت آن فزعةً، ونظرت من نافذة غرفتها فرأت ضوء المنارة الباهت يحتضن سماء الفجر الزرقاء.

فقالت بقلق: "ربما سقط نائمًا على كتابه، وغرق في النوم فلم يشعر بما يحيطه."

هز جيلبرت رأسه نافيًا.

"أنا لا أعتقد ذلك. سأذهب لأتفقده."

صاحت آن: "انتظر لحظة، سأذهب معك. أوه... نعم... لا بد لي من ذلك. أعتقد بأن جيم الصغير سيكون نائمًا الآن، سأتصل بسوزان فقد يكون الكابتن جيم مريضًا وبحاجةٍ للمساعدة."

كان صباحًا رائعًا، مليئًا بالألوان ويضج بالأصوات الهادئة. كان شاطئ المرفأ يتلألأ بحب، وكانت النوارس البيضاء تحلّق فوق الكثبان

الرملية. ووراء البار كان البحر مشرقًا فضيًا، بينما كانت الحقول الواسعة الواقعة قرب الشاطئ يافعةً ندية تستجم أسفل شمس الصباح. وكانت الرياح ترقص وتهدر كاسرةً الصمت بأجمل أغانيها. ولولا ضوء البرج الساطع، لاستمتعت آن وجيلبرت بذلك المشهد. إذ كانا يهرولان والقلق ينهش قلبيهما.

طرق جيلبرت الباب ولكن أحدًا لم يفتح. فما كان منه إلا أن اقتحمه.

كانت الغرفة القديمة هادئةً للغاية، وبقايا وليمة الأمس باقيةً على الطاولة بينما المصباح ما يزال مشتعلًا عند الزاوية. كان الكابتن نائمًا عند تلك الزاوية التي غلّفتها أشعة الشمس.

كان الكابتن نائمًا على تلك الأريكة وهو يحتضن كتاب "حياته" والذي كان مشرعًا على صفحته الأخيرة. كانت عيناه مغمضتين، وكان وجهه مكللًا بملامح السلام والسعادة الكاملة التي حارب للوصول إليها.

"إنه نائمٌ أليس كذلك؟" همست آن بارتجاف.

ذهب جيلبرت إلى الأريكة وانحنى عليه لبضع لحظات فاحصًا إياه، ثم استقام، وأضاف بهدوء: "نعم، إنه نائمٌ بسلام... لقد رحل يا آن."

لم يتمكنا من معرفة الساعة التي مات فيها. ولكن استطاعت آن أن توقن بأنه قد توفي بعد أن حقق حلمه، أي مع شروق شمس الخليج. وفي ذلك المد الساطع، انجرفت روحه فوق البحر، حيث شمس الصباح التي تتلألأ، قاصدةً الملاذ حيث تنتظره مارغريت الضائعة هناك خلف العواصف الهوجاء.

***

40
الوداع لبيت الأحلام



دُفن

الكابتن جيم في مقبرةٍ صغيرةٍ بجانب المرفأ، حيث تقبع السيدة البيضاء الصغيرة. أقام أقرباؤه "نصبًا تذكاريًا" باهظ الثمن وقبيحًا للغاية، وهو نصبٌ كان سيسخر منه لو رآه. لكن أثره الحقيقي كان في قلوب أولئك الذين عرفوه، وفي كتابه الذي كان سيعيش لأجيال.

حزنت ليزلي على موت الكابتن جيم الذي لم يشهد النجاح المذهل الذي حققه بعد موته.

وقالت: "كم كانَ سيسعد بذلك، ولا سيما رؤيته للبهجة التي طغت على كل قارئٍ غاص في لجّه. فقط لو استطاع مشاهدة كتاب حياته يتصدر قوائم أفضل الكتب مبيعًا، أوه، لو كان من الممكن أن يعيش ليشهد على ذلك يا آن!"

لكن آن، على الرغم من حزنها، كانت أكثر حكمة.

قالت: "لقد كان الكتاب نفسه هو ما مجّد كاتبه يا ليزلي، وليس ردة فعل الناس. لقد كانت الليلة الماضية من أعظم الليالي السعيدة التي عاشها، لولا أن تلقفه الموت ذلك الصباح. أنا سعيدة من أجلك أنت

وأوين لتحقيقكما مثل هذا النجاح الباهر، وأنا على يقينٍ من أن روح الكابتن جيم ترقد بسلامٍ الآن."

لا يزال نجم المنارة يسطع ليلًا، وتم إرسال حارس بديل إلى منطقة فوروينذز، حتى يحين الوقت الذي يمكن فيه لحكومة حكيمة أن تقرر أي من المتقدمين الأكثر ملاءمة للمكان، أو من لديه نفوذ أقوى. كان أول رفيق في المنزل الصغير، محبوبًا من قبل آن وجيلبرت وليزلي، وتحمّلته سوزان التي كانت تحب القطط قليلًا.

وقالت: "يمكنني أن أتحمله من أجل الكابتن جيم وسيدتي العزيزة، لأنني أحببت الرجل العجوز. وسأراه وهو يعض وينقضّ على كل فأر تحسبه الفخاخ. لكن لا تتوقعين أن أفعل أكثر من ذلك يا سيدتي العزيزة. فالقطط هي قطط، وهذا رأيي فيها ولن يتغير. وعلى الأقل يا سيدتي العزيزة، أبقيه بعيدًا عن جيم الصغير المبارك. تصوري بنفسك كم سيكون الأمر مروعًا إذا امتلك أنفاس هذا الطفل الحبيب."

قال جيلبرت: "يطلق على ذلك مجز-هرة."

"أوه أنت تلعب على الكلام الآن أيها الطبيب العزيز، ولكن يمكن ألا يكون ذلك مضحكًا."

"القطط لا تمتلك أنفاس الصغار يا سوزان، هذه خرافات قديمة."

"أوه، حسنًا، قد تكون خرافة أو قد لا تكون أيها الطبيب العزيز. كل ما أعرفه هو أنه سبق وحدث ذلك. هرّ زوجة ابن شقيق زوج أختي امتلك أنفاس طفلهم، وكان البريء المسكين قد رحل عندما اكتشفوا ذلك. وسواء كانت خرافة أم لا، إذا وجدت ذلك الوحش الأصفر يتربّص بالقرب من طفلنا، فسوف أضربه بالعصا يا سيدتي العزيزة، أنا أقول لك من الآن."

كان السيد والسيدة مارشال إليوت يعيشان براحة وانسجام في البيت الأخضر. كانت ليزلي مشغولة بالخياطة، حيث كان من المقرر أن

تتزوج هي وأوين في عيد الميلاد. تساءلت آن عما ستفعله عندما تذهب ليزلي.

قالت بحسرة: "تأتي التغييرات طوال الوقت. بمجرد أن تصبح الأمور جميلة حقًا، تتغير."

قال جيلبرت: "منزل مورغان القديم في غلين معروض للبيع، وهو لا يطرح شروطًا على وجه الخصوص."

سألت آن بعدم مبالاة: "فعلًا؟"

"نعم. الآن بعد رحيل السيد مورغان، تريد السيدة مورغان أن تذهب للعيش مع أطفالها في فانكوفر. ستبيعه بثمنٍ بخس، لأن مكانًا كبيرًا كهذا في قرية صغيرة مثل غلين لن يكون من السهل جدًا التخلص منه."

"حسنًا، إنه مكان جميل بالتأكيد، لذلك من المحتمل أن تجد مشترٍ له"، قالت آن، متسائلة عما إذا كان يجب عليها خياطة سراويل جيم القصيرة مزينة بالريش أو بدونه. كان من المقرر أن يتم تعميده الأسبوع المقبل، وشعرت آن بأنها مستعدة للبكاء عند التفكير في الأمر.

علّق جيلبرت بهدوء: "أعتقد أننا يمكن أن نشتريه يا آن!"

تركت آن خياطتها وحدقت فيه: "أنت لست جادًّا يا جيلبرت؟"

"بلى يا عزيزتي."

قالت آن غير مصدقة: "ونترك هذه البقعة العزيزة علينا؟؟ منزل أحلامنا؟ أوه جيلبرت، لا يمكنني التفكير في الموضوع حتى."

"استمعي إلي بصبر يا عزيزتي. أنا أعرف تمامًا ما تشعرين به حيال ذلك، إنني أشعر بالشيء نفسه. لكننا كلنا نعلم أنه سيتعين علينا الانتقال يومًا ما."

"أوه لكن ليس قريبًا يا جيلبرت... ليس بعد."

"قد لا نحصل أبدًا على مثل هذه الفرصة مرة أخرى. إذا لم نشتر

منزل مورغان، فسيقوم شخص آخر بذلك، ولا يوجد منزل آخر في فلين لنحظى به، ولا يوجد موقع آخر جيد حقًا نبني عليه. هذا المنزل صغير... حسنًا، إنه كذلك، ولا يمكن أن يكون كمثله أي منزل آخر بالنسبة لنا، أعترف بذلك، لكنك تعلمين أنه بعيد المنال هنا بالنسبة لطبيب. لقد شعرنا بالإزعاج، على الرغم من أننا فعلنا أفضل ما في الأمر، وهو مناسب لنا الآن. ولكن في غضون سنوات قليلة، عندما يريد جيم غرفة خاصة به، سيكون صغير علينا جدًا."

قالت آن والدموع تملأ عينيها: "أوه، أعرف... أعرف! أعرف كل ما يمكن أن يقال من عيوبٍ فيه، لكني أحبه جدًا... وهو جميلٌ جدًا."

"ستشعرين بالوحدة الشديدة هنا بعد رحيل ليزلي، وقد رحل الكابتن جيم بالفعل. إن منزل مورغان جميل، وجاء في الوقت المناسب، وأعلم أننا سنحبه. لطالما أُعجبت به أنت يا آن."

"نعم ولكن... ولكن... يبدو أن كل هذا ظهر فجأة يا جيلبرت... أشعر بالدوار. منذ عشر دقائق لم أفكر في مغادرة هذه البقعة العزيزة. كنت أخطط لما أريد القيام به من أجلها في الربيع، ما أردت أن أفعله في الحديقة.

وإذا تركنا هذا المكان، فمن سيحصل عليه؟ إنه بعيد المنال، لذلك من المحتمل أن تستأجره أسرة فقيرة، عديمة التغيير، ومتجولة... وأوه... سيكون هذا تدنيسًا. سيؤلمني بشدة."

"أعلم! ولكن لا يمكننا التضحية بمصالحنا الخاصة لمثل هذه الاعتبارات يا فتاتي. سوف يناسبنا منزل مورغان في كل الأمور الأساسية، ولا يمكننا حقًا أن نفوّت مثل هذه الفرصة.

فكّري في تلك الحديقة الكبيرة مع تلك الأشجار القديمة العظيمة، والبستان الرائع الذي يقع خلفه اثني عشر فدانًا. يا له من مكان للعب أطفالنا! هناك بستان رائع أيضًا، وقد أعجبت دائمًا بهذا الجدار العالي

المبنيّ من الطوب حول الحديقة مع الباب بداخله، كنت تعتقدين أنها تشبه حديقة كتب القصص. ومنظر الميناء والكثبان الرملية من منزل مورغان رائعين كما هنا."

"لا يمكنك رؤية نجمة المنارة من هناك."

"بلى يمكنك رؤيتها من نافذة العليّة. هناك ميزة أخرى يا آن، فالعليّة كبيرة وواسعة وأنت تحبين ذلك."

"ليس هناك جدول في الحديقة."

"حسنًا لا، ولكن هناك واحد يمر عبر بستان القيقب إلى بركة غلين. والبركة نفسها ليست بعيدة. ستكونين قادرة على تخيل أن لديك بحيرة المياه الساطعة الخاصة بك مرة أخرى."

"حسنًا، لا تقل أي شيء عن ذلك الآن يا جيلبرت. أعطني وقتًا للتفكير... لأعتاد على الفكرة."

"حسنًا. ليس هناك عجلة كبيرة بالطبع. فقط... إذا قررنا الشراء، فسيكون من الجيد أن ننتقل ونستقر قبل الشتاء."

خرج جيلبرت، ووضعت آن سراويل جيم الصغير القصيرة من يديها المرتعشتين جانبًا. لم تعد قادرة على الخياطة في ذلك اليوم. وبعيون مبللة بالدموع تجولت في تلك البقعة الصغيرة حيث كانت ملكة سعيدة للغاية.

كان منزل مورغان هو كل ما ادّعى جيلبرت. كانت الأرض جميلة، المنزل قديم بما يكفي ليكون له الكرامة والراحة والتقاليد، وجديد بما يكفي ليكون مريحًا ومحدثًا. لطالما أعجبت آن بذلك... لكن الإعجاب ليس محبة. وقد أحبّت بيت الأحلام هذا كثيرًا. لقد أحبّت كل شيء فيه، الحديقة التي اعتنت بها، والتي اعتنت بها العديد من النساء قبلها، وبريق الجدول الصغير الذي يتسلّل بشدة عبر الزاوية، والبوابة بين أشجار التنوب، والحجر الرملي الأحمر القديم، واللومبارديون

الفخمة، والخزانتان الزجاجيتان الصغيرتان الجذابتان فوق قطعة المدخنة في غرفة المعيشة، وباب المخزن المعوج في المطبخ، والنافذتان المضحكتان في الطابق العلوي والركض الصغير في الدرج... كانت هذه الأشياء جزءًا منها! كيف ستقوى على هجرانها؟

وكيف أن هذا المنزل الصغير، الذي كرسته من قبل بالحب والفرح، أعيد تكريسها لها من خلال سعادتها وحزنها! هنا قضت ليلة زفافها. وهنا حيث عاشت جويس يومًا وجيزًا وهنا عادت حلاوة الأمومة مرة أخرى مع جيم الصغير، وهنا سمعت الموسيقى الرائعة لضحك طفلها وهنا جلس الأصدقاء المحبوبون بجانب المدفأة... الفرح والحزن والولادة والموت جعلت بيت الأحلام الصغير هذا مقدسًا إلى الأبد.

والآن يجب أن تتركه. كانت تعلم ذلك، حتى بينما كانت تعارض فكرة جيلبرت. كان المنزل الصغير متضخمًا. جعلت اهتمامات جيلبرت التغيير ضروريًا، عمله، على الرغم من نجاحه، أعاقه موقعه. أدركت آن أن نهاية حياتهم في هذا المكان العزيز اقتربت، وأنه يجب عليها مواجهة الحقيقة بشجاعة. لكن كم كان قلبها متألمًا!!

وقالت وهي تبكي: "سيكون الأمر أشبه بتمزيق شيء من حياتي. أوه، إذا كان بإمكاني أن آمل أن يأتي بعض الناس الطيبين إلى هنا بدلًا منا، أو حتى أن يُترك مهجورًا. سيكون ذلك بحد ذاته أفضل من أن يجتاحه حشد لا يعرف شيئًا عن أرض الأحلام، ولا شيء عن التاريخ الذي أعطى هذا المنزل روحه وهويته.

وإذا أتت مثل هذه القبيلة إلى هنا، فسيتم تدمير المكان في أي وقت من الأوقات، فالمكان القديم يتلاشى بسرعة كبيرة إذا لم يتم الاهتمام به بعناية. سيقومون بتدمير حديقتي، وترك اللومبارديين، وسيبدو الشحوب وكأنه فم جاف فقد نصف أسنانه، وسوف يتسرب الماء من السقف، ويسقط الجص، وسيضعون الوسائد والخرق في ألواح النوافذ

المكسورة، وسيكون كل شيء في حالة مريعة."

تصوّر خيال آن بوضوح الانحطاط القادم لمنزلها الصغير العزيز الذي أضرّها بشدّة كما لو كان بالفعل حقيقة واقعة. جلست على الدرج وبدت تشهق بصرخات طويلة مريرة. وجدتها سوزان هناك واستفسرت بقلق شديد عن المشكلة.

"لم تتشاجري مع الطبيب، أليس كذلك يا سيدتي العزيزة؟ ولكن وإن كان كذلك، فلا تقلقي. قيل لي إنه شيء من المحتمل جدًا أن يحدث للأزواج، على الرغم من أنني لم تكن لدي أي خبرة بهذا بنفسي. ولكنه سيندم على ذلك، ومن بعدها تعود الحياة لطبيعتها."

"لا لا يا سوزان، لم نتشاجر. الأمر فقط... سيشتري جيلبرت منزل مورغان، وعلينا أن نذهب ونعيش في غلين... وسوف يتحطم قلبي."

لم تكن تشعر سوزان مثل آن على الإطلاق. في الواقع، لقد كانت مبتهجة للغاية باحتمالية العيش في غلين. وكانت شكواها الوحيدة ضد مكانها في المنزل الصغير هي موقعه الوحيد.

وقالت: "لماذا يا سيدتي العزيزة؟ سيكون الأمر رائعًا. منزل مورغان جميل جدًا."

قالت آن وما زالت تبكي: "أنا أكره البيوت الكبيرة."

قالت سوزان بهدوء: "أوه حسنًا، لن تكرهينه عندما يصبح لديك نصف دزينة من الأطفال. وهذا المنزل صغير جدًا بالنسبة لنا بالفعل. ليس لدينا غرفة احتياطية، لأن السيدة مور موجودة هنا، وهذا المخزن هو المكان الأكثر خطورة الذي حاولت العمل فيه على الإطلاق. هناك زوايا في كل اتجاه. علاوة على ذلك، إنه بعيدٌ جدًا عن العالم هنا. لا يوجد شيء على الإطلاق سوى المناظر الطبيعية."

قالت آن بابتسامة خافتة: "ربما بعيدًا عن عالمك يا سوزان... لكن ليس عن عالمي."

"أنا لا أفهمك تمامًا يا سيدتي العزيزة، لكنني بالطبع هذا يعود لكوني لست متعلّمة جيدة. ولكن إذا اشترى الطبيب بلايث منزل مورغان، فلن يكون هذا فعل خاطئ أو ما شابه. لديهم ماء فيه، والمخازن والخزائن جميلة، ولا يوجد قبو آخر من هذا القبيل في جزيرة الأمير إدوارد، هذا ما قيل لي. القبو هنا مفجع بالنسبة لي يا سيدتي العزيزة، وأنت أعلم بالأمر."

قالت آن بوقاحة: "أوه، اذهبي بعيدًا يا سوزان، اذهبي بعيدًا... الأقبية والمخازن والخزائن لا تصنع منزلًا. لم لا تبكين مع من يبكون فقط؟!"

"حسنًا، لم أكن أبدًا أيدًا للبكاء يا سيدتي العزيزة. أفضل أن أواسي الناس وأفرحهم بدلًا من البكاء معهم. الآن، لا تبكي وتفسدي عينيك الجميلتين. هذا المنزل جيد جدًا وقد خدمت دورك فيه، لكن الآن، آن أوان الأفضل."

يبدو أن وجهة نظر سوزان هي وجهة نظر معظم الناس. كانت ليزلي هي الوحيدة التي تعاطفت بفهم مع آن. كانت تبكي أيضًا عندما سمعت الخبر. ثم جفّفت كلتيهما دموعهما، وذهبتا للعمل على استعدادات النقل.

قالت آن المسكينة باستسلام مرير: "بما أننا يجب أن نذهب، دعينا نذهب بأسرع ما يمكن وننتهي من الأمر."

قالت ليزلي: "أنت تعلمين أنك ستحبين هذا المكان القديم الجميل في غلين بعد أن تعيشين فيه لفترة كافية لتغدو ذكرياتك العزيزة منسوجة حوله. سيأتي الأصدقاء إلى هناك كما أتوا إلى هنا، وسوف تمجّده السعادة لك. الآن، إنه مجرد منزل لك الآن، ولكن السنوات ستجعله كمنزل الأحلام هنا."

كان لدى آن وليزلي صرخة أخرى في الأسبوع التالي عند تعميد

جيم الصغير. شعرت آن بالمأساة حتى المساء عندما وجدت طفلها العزيز في ثوب نومه الطويل مرة أخرى.

وتنهدت قائلة: "لكنه سيكون ثوبًا قصيرًا بعد ذلك، ثم سروالًا، ولن يكبر في أي وقت من الأوقات."

قالت سوزان: "حسنًا، لا تريدينه أن يبقى طفلًا دائمًا يا سيدتي العزيزة، أليس كذلك؟ فليبارك الرب ذاك القلب البريء، إنه يبدو لطيفًا جدًا في ثيابه القصيرة عندما تكون قدماه العزيزتان بارزتان. وفكّري في التوفير في الكي يا سيدتي العزيزة."

قالت ليزلي وهي تدخل بوجه لامع: "آن، لقد تلقيت للتو رسالة من أوين. أوه! لدي أخبار سارة. كتب لي أنه سيشتري هذا المنزل من أمناء الكنيسة ويحتفظ به لقضاء إجازاتنا الصيفية فيه. ألست سعيدة يا آن؟"

"أوه ليزلي، إن كلمة سعيدة فقط لا تعبّر عمّا أشعر به، يبدو الأمر جيدًا جدًا لدرجة يصعب تصديقها. لن أشعر بنصف سوءٍ حتى الآن، لأنني أعرف أن هذه البقعة العزيزة لن تدنسها أبدًا قبيلة مخربة، أو أنني تركتها لتتعثر في الاضمحلال. هذا بهيج! بهيجٌ للغاية!"

في صباح أحد أيام تشرين الأول، استيقظت آن على إدراك أنها نامت للمرة الأخيرة تحت سقف منزلها الصغير. كان اليوم حافلًا بالندم... وعندما حلّ المساء، جُرّد المنزل من ملابسه. كانت آن وجيلبرت وحدهما في الوداع.

ذهبت ليزلي وسوزان وجيم الصغير إلى غلين مع آخر حمولة من الأثاث. وتدفّق ضوء الغروب من خلال النوافذ ذات الستائر.

قالت آن: "ينظر إلينا بيت الأحلام هذه النظرة المحطمة للقلب وكأنه يوبخنا، أليس كذلك؟ أوه، سأشعر بالحنين الشديد الليلة في غلين!"

قال جيلبرت بصوتٍ مليء بالمشاعر: "لقد كنا سعداء للغاية هنا،

أليس كذلك يا فتاتي؟"

اختنقت آن بغصة، غير قادرة على الإجابة. انتظرها جيلبرت عند بوابة شجرة التنوب، بينما كانت تعبر المنزل وتودّع كل غرفةٍ فيه. كانت ذاهبة لكن المنزل القديم سيظلّ مكانه، مطلًا على البحر من خلال نوافذه الجذابة. كانت رياح الخريف تهبّ حولها حزينة، وكان المطر الرمادي يضربها، ويتدفق الضباب الأبيض من البحر ليغلّفه، ويسقط ضوء القمر فوقه ليضيء الممرات القديمة التي سار فيها مدير المدرسة وعروسه.

هناك على شاطئ المرفأ القديم ذاك... كان سحر القصة باقيًا. كانت الريح لا تزال صافرةً مغرية فوق الكُثبان الرمليَّة الفضيَّة، وستستمر الأمواج في مناداة الخلجان الصخرية الحمراء.

قالت آن بين دموعها: "ولكننا سنرحل..."

خرجت، وأغلقَت الباب وأوصدته وراءها، كان جيلبرت ينتظرها بابتسامة، وكان نجم المنارة يلمع باتجاه الشمال. كانت الحديقة الصغيرة، حيث لا تزال أزهار القطيفة تتفتح، تخبِّئ نفسها في الظل.

ركعت آن على ركبتيها، وقبَّلت العتبة القديمة البالية التي تخطتَّها كعروس.

"وداعًا يا بيت الأحلام الصغير العزيز."

***

نلتقي قريبا في الجزء السادس ..



"وبينما كان جيلبرت وآن يكرّران عهود الزّواج، سمعا زقزقة عصفور يقف مبتهجًا على أحد الأغصان المَخفيّة، رغم أنَّ الطيور لا تغني كثيرًا في شهر أيلول.

فرحت آن بسماعه، وكذلك جيلبرت، إذ لم يسبق له أن سمع نغمةً مُبهجةً إلى هذا الحدّ."

نعم! لقد تزوّجت آن!! وكانت أول عروسٍ في المرتفعات الخضراء، كانت عروسًا سعيدةً وجميلة، خطفت الأنظار بخصرها النحيل وابتسامتِها العذبة.

لكن هل ستنتهي المغامرات والأحداث المشوِّقة هنا؟ بالطبع لا... تأخذنا لوسي مود مونتغمري إلى منزل أحلام آن، حيث تذوب عروسنا حبًا بالجنة الصغيرة التي تملؤها وحبيبها جيلبرت سعادةً وحياة. وينفتح فصل جديد في حياتهما لمغامرات من نوع آخر مع سكان فوروينذز وقرية جلين سانت ماري.

يجد السيّد والسيّدة بلايث شخصيات مثيرة تنتظرهما في فوروينذز. أصدقاء جدد، لكلٍّ منهم حكايته، فتبدأ الجيرة والصحبة الطيبة... تتوالى الأيام ويتوالى معها الفرح والحزن والأحداث المفاجئة والثرثرة! وللقصة كما لكلّ سفينة، قبطانٌ لا تتحرّك دفّتها من دونه.

flamingopubl & Little Puffin







Designed by: MAHER ADNAN